المأســاة

الهجرة والهجرة المعاكسة

بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد

اسم الكتاب: المأسـاة الهجرة والهجرة المعاكسة

تأليف: أحمد النويري

رقم الايداع / ٢٠١٦/٢١٢١٨

الترقيم الدولى / ٥-٣٩-٦٥٦٥-٩٧٧-٩٧٨

الطبعة الأولى ٢٠١٦



القاهرة: ٤ ميدان حليم - خلف بنك فيصل

شارع ٢٦ يوليو - من ميدان الأوبرا

٢٧٨٧٧٥٧٤ - ٠١٠٠٠٠٠٤٠٤٦

Tokoboko_5@yahoo.com

المأساة

الهجرة والهجرة المعاكسة

تأليف

أحمد النويري

الإهـــداء

إلي أرواح المغرر بهم من قبل كلاب التهريب المجرمين. . إلى الذين ابتلعهم البحر، وذهبت أجسادهم طعاما للأسماك. . إنهم ضحية السراب الخادع وأطماع المافيات.

إلى الذين حكم عليهم العوز والحاجة في بلدانهم، فطلبوا حاجتهم وراء البحر – الحرية والعيش الكريم – فغرقوا فى البحر. لعلّ في هذا لذويهم عزاء.

المؤلف



(1)

لعلّ المآسي الإنسانية بدأت منذ بداية، ظهور الإنسان على الأرض أي حين خرج آدم وحواء من الجنّة، من هناك نمسك برأس الخيط فى سلسلة المآسي البشرية، التى تتابعت عبر أحقاب الزمن، وقد كان أولها: إزهاق الروح حيث قتل قابيل أخاه هابيل، وهل هناك مأساة مثل خسارة آدم وحواء وذريتهما فقدان جنة النعيم؟!

كان ذلك بتدبير من الشيطان الذى قعد لهما كما توعّد، وقد لعنه الله إلى يوم الدين، وهو أول مخلوق عصى ربّه.

خلال فترات التاريخ منذ العصور السحيقة وإلى يومنا هذا، عانت البشرية مآسي كثيرة، وصلت أخبار بعضها إلينا عندما بدأ التاريخ بدوّن، وغابت عنّ أخبار الذى أهمله التاريخ.

وفى سلسلة مآسي الإنسانية ها نحن نعرض بعضها: مأساة معاصرة لا زال جرحها ينزف دماً كل يوم.

تلك هي الهجرة والهجرة المعاكسة.

وتاريخ البشرية مليء بالمآسى والنّدبات على المستوى الفردى أو الجماعى فى كل زمان ومكان، وما هذه الرواية وهى تتكىء على أحداث

واقعية ومصادر موثقة، وخبرات وتجارب الكاتب والراوى الذاتية: إضافة إلى خبرات وتجارب آخرين معاصرين وغابرين، الا أن الرصيد والمخزون الفنى والمعلوماتى يشكّل النسيج الأول للرواية، وما الرواية إلا شريط يسجل محطات فى الحياة يتم فيه عرض الأحداث التى وقعت بالفعل للبشر، إضافة إلى خيال خصب واسع يتخيله الكاتب.

ومن خلال هذه الأحداث التى غذّاها الخيال بالطبع كانت هذه الرواية التى تستصرخ ضمير الإنسانية لإنقاذ البشر المعذبين. صرخة فى ضمير الإنسان إن كان فى الإنسان بقية من ضمير هذه العبودية التى تظهر على وجه البسيطة منذ أحقاب موغلة فى القدم وحتى اليوم، استعباد البشر للبشر على شتّى الوجوه وبكيفيّات مختلفة، موجات من البشر تتحرّك فى اتجاهات معاكسة تتحول إلى أصقاع متباينة، بعضها بفعل الحروب والغزوات، وبعضها بحكم التصحُّر والجدب، وأخرى تفرضها القوة والجبروت، عبوديّة بالسيف والغلبة، وعبوديّة بسبب العوز والحاجة، وجميعها تفضى فى النهاية بالإنسان إلى الرق، الإنسان المقهور والمغلوب على أمره، المنهوك جسديّاً والمدمّر نفسيّاً، المحطّم على كل الوجوه. إنسان كرّمه الله وجعله خليفته فى الأرض.

عبر الزمن الغابر يحدّثنا التاريخ عن مآسى الإنسان. قست عليه الطبيعة، واعتدت عليه الوحوش، وأخيرا استرق بعض البشر البشر بطرق شتى.. ابتداء من بيع الإنسان فى الأسواق عقب السبى جراء الغزوات، كما يحدث للسبايا من إناث وذكور، إلى تسخير العبيد فى

مختلف الأغراض، حين باع الناس أولادهم ومماليكهم فى أسواق النخاسة عبر التاريخ، ربما كان آخرها سرقة الشباب والشابات من أفريقيا السوداء، من أجل تعمير الدنيا الجديدة، وإلى وقت قريب، عندما صدر قانون تحريم الرق.

هذا الإنسان الحر الكريم لاحقته المآسى حتى عصرنا هذا: عصر الحريات - العولمة - والاقتصاد الحر، والرخاء بفضل الثروات الطبيعية فى باطن الأرض، والتى استخرجتها التقنيات الحديثة، والعلم الذى وصل إليه عقل الإنسان ومع هذا كلّه ضل الإنسان مغلوبا على أمره مقهورا، تتجاذبه الهواجس والأفكار السوداء نفسيّاً، يعضّه الجوع والحاجة إلى الطعام، والملبس جسديّاً، هنا وهناك فى شتّى الأرض شمالا وجنوبا، الإنسان فى الشمال حاله كحال صاحب الجنوب، كل يعيش المأساة كما سنجد فى مشاهد عبر صفحات هذه الرواية الإنسانية المفجعة.

فى شمال الكرة الأرضية - أوربا الغربية - أو فى الجزء الشمالى منه - أمريكا الشمالية وكندا - أو ما نسميه بالغرب، المتميّز بالقوة المادية والحضارة والثقافة، وثروات هائلة موجودة أصلا فيه، ومنهوبة من عالم آخر فقير، ومتخلّف أغلبه فى أفريقيا: شمالها وجنوبها وراء الصحراء.

فى هذا الجزء من الأرض الذى نراه متقدما ومرفّها ومستقرًّا فى جميع أحواله، يتمتع برغد العيش، ويرفل فى النعيم، تتصاعد فيه التنمية كل عام وتتراكم الثروات، ويزداد الإعمار فى كل مكان. والإنسان - هل سألنا أنفسنا ما حال الإنسان فيه؟! الإنسان الذى هو كل شىء

فى الوجود.. كيف حال الناس؟.. ليس كل الناس بالطبع، هل كلّهم مرفهون؟ وفى رغد من العيش؟- وكلّهم نفسيًّا فى حال مستقر؟ وراضون عن أنفسهم ومجتمعاتهم؟.. ويتعايشون بسلام؟. لماذا نجد الفضاعات المرعبة؟ والجرائم الكبرى، والمآسى والأخبار السوداء كل يوم فى أرقى دول الغرب المتحضّر، الغنى ذي الثروات الهائلة، والثقافة، والحضارة والتقدم؟!

أليس هذه الحادثة وأمثالها الكثير فى مجتمعات الشمال، تعد من الفضائع المرعبة، والممارسات القذرة، أو قل المآسى الفضيعة التى ترفضها الفطرة السليمة، وتجرمها جميع الأديان السماوية، وحتى المجوسية، والشرائع الوضعية، وكل الديانات الأخرى إن وجدت على وجه الأرض؟!

رجل فى الغرب، من الشمال: يغتصب أخته، وبنت أخته، وتغتصبه أمه وهو مراهق، ويغتصب والده إحدى بناته؟!

والحادثة بالتفصيل كما أوردتها الصحف وتناقلتها وكالات الأنباء وأخبرت بها الفضائيات.

شاب من بلاد التشيك فى وسط أوربا الغربية، بكامل قواه العقلية، يرتّب علاقة جنسية مع إحدى أخواته، فيضاجعها فى الفراش، ويمارس معها الجنس بشكل طبيعى، وكيفما شاء وشاءت هى، دونما حياء ولا خجل، ولا وازع من تبكيت للضمير.. يستمرئ معها العلاقة فتدوم

أعواما، ثم يثنّى باخته الأخرى وأختها شقيقته وشقيقتها، على سبيل التغيير وتوسيع التجربة، بعدها ينتقل إلى بنت أخته فيمارس الجنس معها أيضاً، يعشقها وتعشقه، وكأن ليس هناك غير أولاء المحرمات، فى بلاد التشيك على طولها وعرضها، هو أيضا اغتصبته أمّه فى إحدى المرات عندما كان مراهقاً كما اغتصب والده إحدى بناته، وكأن الأمر عاديّاً ومن قبيل المباحات.

هذا ما نقلته لنا الأخبار عن الصحف والمجلات، وما تحدّثت به الفضائيات.

ويضيق المجال إذا ما عدّدنا الحوادث الغريبة والشاذّة التى تقع كل يوم فى بلدان كثيرة من بلاد الغرب - الشمال - وهنا تحضرني حكاية، كان شاهدًا عليها أحدهم حدّثنى ذات يوم فى أعوام مضت، كانت سيدة ايطالية جميلة وثريّة، تنزل فى فندق صحبة ابنها الشاب الذى لم يتجاوز العشرين من العمر، قال: وكنا ننزل فى نفس الفندق، فندق متوسط السعر والفخامة، كانت ترتاح إليه، وإلى العاملين فيه، وتعرف الإدارة التى تعرف سيرة المرأة وتلبى جميع طلباتها. امرأة ما زالت فى شبابها، لم تتجاوز الأربعين من العمر، مليحة ومثقّفة وذات مال يتمنّاها كل الرجال، لكنّها كانت لها الرغبة المحرّمة ولا تبغى سواها:- ابنها الشاب تنام معه فى جناح واحد وتمارس معه الجنس، لا تصاحب فى جولاتها الصباحية إلاّ إيّاه وفى المساء تسهر معه فى الملاهى والمراقص، هو وحده جليسها على طاولة واحدة محجوزة مقدماً فى الصدارة، ترقص مع من

يطلبها للرقص، وان كانت تفضّل ان ترقص مع ابنها، ويرقص هو مع فتاة من عمره - عادة متعارف عليها فى المجتمعات الغربية - وفى آخر السهرة تعود مع ابنها، يقود بها السيارة أو تقودها هى، يعودان كعاشقين بضمهما فراش واحد وفى جناح واحد، وكأن الأمر طبيعى لا غبار عليه، أليس هذا الشذوذ مرفوضًا فى كل الشرايع والأديان؟! اليست هذه مأساة أو جزء من المأساة التى يعيشها الغرب - الشمال - وربما وجدت أيضا فى الشرق والغرب، فلا يخلو مجتمع فى كل مكان من مثل هذه الظواهر، غير أن الشمال الذى نعده مغايرًا للجنوب والشرق، أو على الأصح متقدما عليهما فى الحضارة والرقى هو أكثر مآسي وندوبا تشوه وجه المجتمع فيه، وللشرق والجنوب مآسيه الأخرى التى هى ربّما أشدّ وأنكى وأكثر فضاعة ورعبا.

ولعلكم فى الشمال استمعتم إلى خبر تلك المرأة فى بلدة من بلدات الشمال فى إحدى الدول الكبرى المتحضرة والمتفوقة على سواها فى العلوم والآداب والفنون، وأسباب التقدم والعمران الأخرى. تلك التى هاجمت زوجها فى غفلة منه وهو نائم على فراش الزوجية، هاجمته وطعنته بسكين، أعدّته مسبقا مع سبق الإصرار، ثنّت بذبح ابنها منه، وهو لا يتجاوز السنة من العمر، وبأعصاب باردة هادية قطّعت الجثتين ووضعتهما فى أكياس من البلاستيك، ودفنت كل جثّة فى ركن من حديقة المنزل، بعدها عادت إلى مطبخها فتناولت طعامها وشربت كؤوسا من نبيذ، ونامت حتى الصباح، وهي فى قبضة الشرطة تعترف بالجريمة بكل برود.

وذلك الرجل فى الغرب البعيد، المتحضر وصاحب الثروات الهائلة - الغرب- والتقنيات المتطورة، قلعة الرسمالية والعولمة - قائدة العالم الجديد - (أمريكا) رجل من ذلك البلد، يهاجم تلاميذ إحدى المدارس، ويحصد جمعاً منهم بالرصاص ويسلّم نفسه للشرطة، وغيره ذئب آخر تتعدّد ضحاياه من الفتيات الصغيرات، والنساء الراشدات البريئات يعاشرهن عشرة محرّمة، ثم ينفذ فيهن حكمه بالإعدام، يقوم بنفسه بتصفيتهن تصفية جسدية غير نادم على ما فعل، وسيان عنده إن قبض عليه أو ظل طليقا.

هذا غيض من فيض ورد على سبيل المثال ليس إلاً، ممّا يحدث بين أهل الشمال، وفى الجنوب هناك أيضا: هول ودمار وفضاعات ورعب ومآسٍ متعددة ومتنوعة، هى جزء من مأساة الإنسان الكبرى فى هذا العصر الذى نعيشه، نراها فى تلك المشاهد الغريبة والمفارقات العجيبة والمليئة بالفواجع، والرعب، والجراح، والدماء، والموت الجماعى بين فكي الحيتان فى أعماق البحار، جراء الهجرات غير الشرعية، التى انتشرت وتوسعت فى هذا العصر نحو الشمال، تعاكسها هجرات أخرى نحو الجنوب: هجرات شرّعية غير أنها مليئة بالمآسى هي أيضن وربما لا يكون فيها الموت بالجملة، وفى عمق البحر كما يحدث لأصحاب الهجرة غير الشرعية نحو الشمال.

(2)

هذه هجرات من نوع آخر، ولغرض مغاير، لكنها يصاحبها القهر والابتزاز المادي والمعنوي، والإهانة والتزوير، والتدجيل، والإغواء والسفالة وانحطاط الخلق، والطمع والتدليس والخداع والظلم، والاستغلال البشع أناس من الشمال يتّجهون صوب الجنوب: فرادى وجماعات، ينشدون غايات، فى هجرات تطول أو تقصر، لكنّهم يتعرضون إلى معاملات سيئة – ليس فى كل الأحوال بالطبع- أغلبها سببه الطمع والابتزاز بين النساء، والعجائز منهن بالذات، والقصص كثيرة ومثيرة، قصص تتحول أحيانا إلى مآسٍ فى نهايتها، بعد أن تبدأ بأحلام وردية، واامال زاهية، عند طرف ودون طرف آخر، وما سيرد فى الصفحات التالية: قليل من كثير.

هذه سيدة من ألمانيا الغربية ولدت سنة 45 كما قيل لها- قبل انتحار الفهرر بايام، فى نهاية الحرب الكونية الثانية، أمّا أمها كما حدثتها، فقد كانت من جيل زعيم الرايخ العظيم. نشأت هذه السيدة فى القسم الغربى من ألمانيا بعد تقسيمها إلى شطرين، فكانت تبعيّة القسم الغربى إلى النظام الرأسمالى، أو ما يعرف بدول الحلفاء المنتصرة فى الحرب.. أما القسم الشرقى فكان يتبع السوفيتى، أو المعسكر الشيوعى الشريك فى الانتصار على دول المحور. كانت مدينة هذه السيدة التى نشأت فيها، وتربت وتعلمت وعاشت عمرها كلّه هى: (همبرة) تلك المدينة التى

تقع فى الشمال على ضفة البلطيق الجنوبية، والتى تتميّز بكثرة المرافئ التجارية فيها، والمدينة متحررة ومنفتحة أكثر من باقى المدن الألمانية، ولانها مدينة بحرية وبها ميناء كبير، ترسو فيه السفن التجارية الكبيرة، القادمة إليها والخارجة منها، كانت المدينة من هذه الناحية ملتقى أجناس من البشر، ذوى ثقافات متباينة، ولغات مختلفة، وإن كانت اللغة الإنجليزية هي السائدة، أو قل اللغة التى يتحدّث بها غالبية السكان إلى جانب اللغة الأم همبرف مدينة مفتوحة مرحبة بالزائرين تقدم لهم الخدمات ويجدون عندها كل ترفيه.

تعلمت هذه السيدة فى المدينة التى عاشت وتربّت فيها، تحصلت على دبلوم عالٍ فى الإعلاميات حصلت بموجبه على وظيفة فى إحدى شركات التأمين الملاحية، ترقت فيها حتى وصلت إلى مدير عام فى إحدى الإدارات.

ضلت السيدة فى مدينتها لا تبرحها حتى وصلت إلى سن التقاعد، تزوجت فى شبابها من رجل يهودى الأصل يكبرها بعشرين سنة، أنجبت منه بنتا، تزوجت هي بدورها وغادرت ألمانيا فى هجرة إلى استراليا وانقطعت أخبارها.

ضلت السيدة مع زوجها المسن حتى تقدم بها العمر، انفصل عنها حين أغوته عجوز ثرية فى سنّه، انتقل ليعيش معها فى قصرها خارج المدينة، لم يبق طويلا صحبة العجوز الثريّة، فهي متعالية ومتعجرفة،

وسيئة الطباع، سافر بعد سنة إلى إسرائيل، حيث كانت له أخت متزوجة من يهودى شرقى فى مدينة عسقلان، وافاه الأجل هناك، وأسدل الستار على حياة مارقاريتا مع زوجها العجوز.

مارقاريتا هذه بعد أن وصلت إلى سن التقاعد وأحيلت إلى المعاش، ظلت تعيش بمفردها، لا من يؤنس وحدتها فى شقّة صغيرة، فى عمارة كبيرة، تسكنها عائلات كثيرة، فى العمارة كانت هناك عجائز فى سنها، كل منهن تحتفظ بشقتها فيها، بعضهن مع زوج عجوز متقاعد، وأحيانا مقعد، وبعض مع ابن أو ابنة، وبعض وحيدات مثلها، كانت مارقاريتّا تقصد كل مساء مقهى قريبا من العمارة، تلتقى فيه مع عجائز فى سنها متقاعدات، يحتسين القهوة، والألمانيات مغرمات بالقهوة إلى درجة الادمان وخاصة فى ليالى الشتاء الباردة، كانت الأحاديث فى شتى شؤون الحياة، ذكريات الصبا، وأخرى تتعلق بمناسبة أفراحهن حيث تزوجن من زمن بعيد فى أيّام غابرات، وأحاديث عن السفر والترحال، وفى الشؤون العامة، وأحاديث أخرى تشمل الفكاهة والمزاح، للترويح عن النفس، هروبا من منغصات الحياة، وينسى الجميع آلامهن من أمراض العصر، كالسكرى وارتفاع ضغط الدم والنقرس، وما شابه من أمراض تهاجم عادة كبار السن.

ذات مرة كانت واحدة من أولئك العجائز تستحوذ على المجلس بحديث شدّ انتباه الجميع، فأنصتن إليها باهتمام زايد، كانت تسرد حديث حول رحلة سياحية قامت بها ضمن مجموعة من السوَّاح إلى

إحدى بلدان الجنوب، رأت فيها كما قالت العجب العجاب، كان حديثها لا يخلو من مبالغة لتاسر السامعات فيغبطنها على ما فازت به، من متع وراحة نفس،وترفيه وترويح، ولتبدو بينهن مميّزة، يشار إليها بالبنان وبالتقدير وبالتمييز.

كانت مارقاريتا تسمع من بين السامعات، إلى تلك العجوز وهى تسوق حكاية تلو أخرى، وتصنف ما شاهدته فى ذلك القطر الجنوبى الذي زارته وراء البحر: شمس مشرقة معظم ساعات النهار، مناخ معتدل يغرى بتخفيف اللباس حتى لو كان الوقت شتاء، ليالى مقمرة، ونجوم ساطعة تزين السماء، بحر ينادى للسباحة منذ الصباح وحتى المساء، وفى كل الفصول، صحراء متزامية الاطراف ذات رمال ناعمة، تعلو كثبانها وتتقوس كأنها أمواج، حيوانات برّية كالغزال الذى تلمحه من بعيد، فيهرب قبل أن تقترب منه، وهو يستعرض قفزات رشيقة وجميلة، تضاهي رشاقته وجماله، وقالت إنها رأت شجرة النخيل وأكلت من ثمارها المعلّق فيها قبل قطافها، وأن لها طعما ومذاقا خاصا، ليس كتلك التى تأتى فى معلبات وقالت إنها رأت العيون التى تنبع بالمياه الساخنة، وحين تبرد تشق الأرض مكونة جداول وأودية صغيرة، تسقى تلك الغابات من النخيل، تتفرّع منهاسواقى تروى مزروعات مختلفة، منها خضروات لا تتغذّى على المقويات الكيماوية، ولا تمسها مبيدات حشرية، وصفت لهن كيف ركبت الجمل.

قالت إحداهن:

- هل ركبت فعلا الجمل؟!

- نعم.. تهيّبته لأول مرّة لكن مروض الجمل أخبرنى: أن لا خطر منه، وأخذ بخطامه وأوقعه على الأرض، وهو يشير إليه بإيعاز خاص وبصوت معين، استبرك الجمل بهدوء، فاعتليت ظهره وأنا خائفة، وكانت رقبته الطويلة حين برك، رفعها إلى أعلى حتى كادت أن تلمس وجهى، ثم بإيعاز آخر أصدره له صاحبه، فنهض الجمل فكاد أن يطرحنى وراء ظهره، لكنّه اعتدل بسرعة فاستوى.

سار الجمل فوق الرمال يقوده صاحبه، فجأة يثبّت الرجل الحبل فى رقبة الجمل ويتركنى لمصيرى، تمالكت نفسى من الخوف وسار الجمل بهدوئه المعتاد، فعادت إلىّ الطمأنينة، إنها تجربة مثيرة، تبقى فى الذاكرة كشىء عزيز.

قالت إحدى الجالسات من الرفيقات العجائز:

- ولم يشرد بك الجمل ويذهب بعيدا فى الصحراء كما نشاهد فى الأفلام؟!

- لم يحدث هذا.. إنه جمل مروض لهذا الغرض، يركبه السواح يسير بهم الهوينا فوق الرمال، وفى نقطة محدّدة يعرفها سلفا يبرك دونما إيعاز، وهنا على الراكب أن ينط من فوقه.

- قالت أخرى:

- ألم يحدث لك شيء أو داهمك خوف حين برك بك الجمل؟

- هذه ملاحظة فى محلّها.. لقد كدت أن أنكبّ على وجهى فوق رقبته الطويلة، حين لامس برجليه الأماميتين الأرض، وندّت عنى صرخة فزع.. لكن الرجل صاحب الجمل طمئنى بإشارة منه وضحك من استغاثتى.

قالت ماركاريتا وقد تكلمت لأول مرة، فقد كانت منصتة بانتباه شديد:

- ياله من عالم هذا الذى وراء البحر فى الجنوب؟!!

قالت أخرى:

- وماذا لو أخبرتك صاحبتنا عن أشياء أخرى غريبة، ومثيرة فى تلك البلاد على مدى أكثر من رحلة سياحية قامت بها خلال سنوات عديدة؟

قالت ماركاريتّا:

- وهل زارت هذه السيدة؟ هذه البلاد أكثر من مرّة؟

قالت المتحدّثة؟

- أكثر من ثلاثة عشر مرة، خلال أربع سنوات، كنت أزور هذه البلاد وغيرها تشبهها مناخا وطبيعة ارض تقريبا، وكلّها فى الجنوب، وفى كل رحلة كانت لى مفأجاة وتجارب كثيرة.

- يالك من رحّالة سائحة، وباحثة ومطلعة وصاحبة تجربة فى نفس الوقت.. قالت أخرى تعرف عن المتحدّثة خبايا كثيرة سمعتها منها من قبل.

- نعم أنا لم أهدر وقتى سدى منذ إحالتى على المعاش، نوعت رحلاتى، ووزعتها بين فصول السنة، وفى أكثر من بلاد ولكن الذى

شدّنى أكثر هو الجنوب، لما فيه من نزهات ومتع.

- قالت أخرى من صاحباتها القدامى.

- هل حدّثتنا عن بعض المغامرات، أو على الأصح حدّثى بقية الرفيقات بما حدثتنى به عن بعض الخصوصيات؟

- قالت:

الخصوصيات أسرار، والسر إذا جاوز الاثنين فشى.

قالت إحداهن:

- وهل تحتفظ من فى سنّنا ببعض الخصوصيات والذكريات الجميلة فى خزانة الأسرار؟ وإلى متى؟ .. ثم هل بيننا نحن العاقلات، غرّة توزّع الأسرار على أترابها دون تحفظ ولا مبالاة؟!

كانت هي فى دخيلة نفسها تود أن تبوح بكل ما فى جعبتها من مغامرات قامت بها مع طرف مغاير فى الثنائية الجنسية

- الرجل والمرأة - فى أغلب البلاد التى زارتها، وكلّها ذكريات جميلة، ومغامرات ما خطر على بالها أن تمارسها فى يوم من الأيام، وهى فى هذا العمر المتأخر.

تكلّمت واحده من هنا وأخرى من هناك. يشجعنها على أن تروي لهم حكاياتها مع التجربة والمغامرة فى بلاد الجنوب قائلات:

- وهل بيننا نحن العجائز وفى عمر واحد تقريبا من أسرار أو تحفّظات عمّا نفعل أو بالاحرى عمّا فعلنا سابقًا، وخاصة إذا كانت أفعال

أو أسرار تروّح عن النفوس أو تزيل الكآبة والحزن، وتطرد الملل الذى نعيشه، ونحن نمضغ الأيام مع هذا البرد القارس، ووحشة الانفراد، حين نأوى إلى فراشنا الخالى إلاّ منّا، وكل واحدة فى شقة باردة، يصك أبوابها ونوافذها الريح، ومغلق دائما إلا من غرفة واحدة فيها مخدعنا، نجتر فيها ذكريات الأيام الخوالى، ونتحسّر على أيام الشباب قالت: واحدة.

قالت مجدولين: اسم صاحبة السياحة والترحال.

- نعم.. هي الحقيقة.. نحن الآن نقتل الوقت، ونجتر الذكريات، حياتنا روتين يتكرّر كل يوم.. طعام وشراب.. ثم نوم.. جلوس فى هذا المقهى الذى حفظنا كل الموجودات فيه.. حتى رياضة المشى محرومات منها لأنّنا غير قادرات عليه فى هذه الأجواء الملبّدة بالغيوم معظم فصول السنة.. تصوروا لمّا كنا نرحل فى سياحات خارج البلاد، إلى الجنوب، كنّا نمشى على الأقدام مسافات طويلة تمتد ساعات كل يوم، نرى الوجوه غير الوجوه، والطعام والشراب مغايرا لما يوجد عندنا، وحتى سحنات، الناس ولباسهم، تجد فيه العين ما يروق لها، ناهيك عن الطبيعة المخالفة لما عندنا، وخاصة تلك الصحراء التى تتنوَّع فيها النباتات الصحراويّة والتضاريس، والحيوانات والطيور، علاوة على الشمس المشرقة طوال النهار، النسيم العليل الجاف وكل ما هو موجود يسرّ النظر ويبهج النفوس.

قالت صاحبتها المقرّبة التى لم تخفِ عنها جميع أسرارها:

- لهذا قلنا لك حدّثينا عن كل شيء، ولا تنسى الصبوات والمغامرات، إنها أحاديث مسليّة، فلا تحرمي جليساتك منها وقد أصبحنا جميعا صديقات أليفات.

- ومن أين نبدأ؟ هى ذكريات عديدة لا تلم بها جلسة واحدة ولو طالت.

- قالت صاحبتها:

نبدأ بالذى يروِّح على النفس، ويدغدغ المشاعر والأحاسيس.. بالصبوات.. المثير الممتع.. مغامرات العجائز مع الشباب اليافع الغر.

- لكن تجربتى الأولى كانت مع كهل تجاوز الأربعين، غير أنه كان فى قوة وجادبية شاب فى الثلاثين من العمر.

- وأنت كم كان عمرك فى ذلك الوقت؟ قالت صاحبتها:

- ومتى سمعتى بامرأة تصرّح بعمرها الحقيقى.. الاّ إذا كانت مجبرة على إبراز بطاقتها الشخصية، عند كتابة المحاضر الرسمة مثلا؟!

- ما علينا لنفرض أنك قد تجاوزت الأربعين مثله.

- ربما كان ذلك صحيحاً.. أنت تريدين حكايتى معه، أم تبحثين عن كم بلغت من العمر؟. ولو كنت ذكية، لعرفت ذلك بنفسك، ألم تعرفى أننى قمت بهذه الزيارة بعدما بلغت سن المعاش؟!.. أجابت صاحبتها.

واحدة من الجالسات كانت لها صلة بالسائلة قالت لها:

أنت تحبين المشاكسات دائما مالنا والبحث عن أشياء جانبية لا لزوم لها.

قالت مارقاريتا:

- وهى ترنو إلى صاحبتهم مجدولين صاحبة المغامرات.

- دعك منها وحدثينا حديثك مع الرجل العبرة ليست بالأعمار وانما بالجرأة والجسارة والمبادرة، وفاز باللذة الجسور كما يقال.

قالت مجدولين:

نعم أصبت كبد الحقيقة.. لقد فاز باللذة الجسور.

- واحدة من المنصطات بانتباه:

دعونا نصمت لنستمع.

- الجميع فى صوت واحد: سكوت.

تهيئت مجدولين لتبدأ فى سرد الحكاية، فعدّلت من جلستها وسكتت قليلا للتشويق وشد الانتباه.

قالت صاحبتها:

- أي الحكايات مع الشباب أم مع صاحبك الكهل؟

نظرت إليها فى غير ارتياح وقالت: ألا تصبرين؟

تكلمت إحدى الجالسات فقالت:

- لا تضيعوا علينا هذه الفرصة الثمينة فى جدل عقيم.. نحن كلّنا آذاناً صاغية، لأخبار السيدة عن الجنوب.

قالت صاحبة مجدولين:

- قولى لنا أخبار المغامرات فى الجنوب.

- مارقاريتا:

- نحن نستمع إليك يا مجدولين:

- نبدأ بحكايتى مع الرجل الكهل الذى عرفته فى الحقيقة هو الأول، فى رحلتى الأولى، وكنت غير متأكدة من أخبار سمعتها من رفاق سبقونى إلى تلك البلاد فى رحلات سابقة.

واحدة:

- المهم كيف كانت القصة، أو المغامرة كما قالت صاحبتك؟

- ويا لها من مغامرة.. كنت متأكّدة من أن الرجل الذى يرافقنا كدليل سياحي هو من نوع خاص، حين كنّا فى الحافلة.

كنّا نزور معالم سياحية فى ضواحي مدينة كبيرة، كنّا ننزل فى أحد فنادقها، فندق جميل يقع على شاطىء البحر من ذوى الخمسة نجوم كان الرجل وهو يقدم لنا معلومات تاريخية عن بعض الآثار وأخرى معلوماتية عن معالم وإنجازات حضارية وعصرية، كان الرجل يتكلّم الألمانية بطلاقة ويتقن لغات أخرى كالفرنسية والإنجليزية والإيطالية وغيرها.

كان يخاطب الجميع فى الحافلة، ويخصّ البعض بتركيز نظره أكثر، وكان الجميع ينظر اليه، ويتابع شروحاته.

تحرّك وسط الحافلة، ووقع نظره على سيدة كانت تجلس بجانبى فى الكرسي.. كانت له بها معرفة سابقة منذ سنوات كما أخبرتنى فيما بعد، حيّاها بفرح وتبادل معها كلمات بالفرنسية، سألها عن رفاق لها، ثم ركّز

نظره عليّ.. سألها من صاحبتك.. أجابته وهي تبتسم بمعنى.. قالت!

إنها سيدة ألمانية جاءت لأوّل مرة فى سياحة إلى الجنوب، وترجو أن تكون سياحتها مفيدة.

قال:

- مرحبا بها فى الجنوب، ونحن فى الخدمة وغمز صاحبته الفرنسية.

- كعادتك لا تصبر على طعام واحد قالت له:

- أجابها:

هكذا هم الرجال مع النساء.

ضايقنى حوارهما الرخيص إلى حد ما.. لكنىّ لم أجد مدخلا للكلام فأثرت الصمت.

عاود هو نظره إلىّ بتودّد، وحيّانا بإماءة، وتحرك إلى خلف الحافلة مجتازنا بخطوات.

هَمزتنى صاحبتى بمرفقها دون أن تنبس ببنت شفة وتبسّمت.

قلت:

صاحبك جوّالا كما يظهر لى.

قالت:

هو رجل لطيف يحسن المعاملة، ويحترم الرفقة، يتقن عمله واللغات التى يتحدّث بها.. أما ملاحظتك عنه، فهذا من طبع الرجال.

- وعيب النساء الغيرة.. التى لا تكون فى محلها.

- وهذا أيضا، من طبع المرأة.. الغيرة حتى وإن لم يكن لها فيها حق.

- المرأة تغيّر ملابسها أحيانا خمس مرات فى اليوم، لكنّها لا تغيّر مبادئها، ومنها الرجل إلا من بعض الشاذات.

- وما رأيك فيه.. أقصد هذا الرجل؟

- وماذا يعنينى من أمره؟ هو رجل وكفى كأيّ رجل نتعامل معه فى الفندق.

- لكنه صيّاد.. وصيّاد ماهر ومرّة أخرى أقول لك إنه لطيف.

- يظهر أنك على معرفة تامة به.

- كانت معرفة منذ سنوات.. تقريبا من عشر سنوات مضت.

- وكنت شابة.. والحق أقول لازلت، وجميلة.

- كان هذا فى وقت مضى.. الجمال والشباب ولّى والعمر يمضى دون أن ندرى.

- لكنك عشت أيامك.. كما يبدو لى طولا وعرضا. أليس كذلك؟

- أنت محقّة فيما تقولين.. لم أهدر وقتى، ولم أظلم شبابى.. أخذت من متع الحياة، سافرت كثيرا وروّحت عن نفسى، ولم أندم فى حياتى عمّا فعلت.

(3)

وجدت فى نظرتها للحياة كل الصواب تقريبا.. لماذا نشقى ونكدح؟ نضرب فى الأرض ونجتهد، نكافح من أجل الدرس والتحصيل العلمي ثم ندخل معترك الحياة، نعمل فى وظيفة أو غيرها، نوفّر المال وندّخر جزءًا منه للحاجة، نحال على المعاش، وفى الحقيقة إلى الفراغ، نجترّ أيّامنا وذكرياتنا.. نجد أنفسنا على هامش الحياة، رجالا ونساء متقاعدين ومتقاعدات، الصواب من هنا يجب أن تبدأ الحياة.. هذا ما يجب أن نفعله، وما يجب أن نؤمن به.. ما نحن فيه سياحة نروّح فيها عن النفس.. صحيح ما قالته السيدة.. يجب أن نأخذ حقنا من الدنيا.. هنا ما فكّرت فيه وعزمت على فعله. وجاء الرجل فى المساء بعد أن فرغ من عمله.. رجل يرتدى بدلة كاملة كأنه مدعوّا إلى حفلة أو سهرة خاصة.. جاء وقد تغيّر شكله عمّا رأيته فى الصباح حين كان يرافقنا فى جولتنا السياحة كدليل سياحى.. رجل مهيب تميّزه قامته العالية، وخطواته الثابتة، يمشى باطمئنان وفرحة على وجهه، جاء يبحث عنّى كما لفتت نظرى صاحبتى الفرنسية، التى كانت تجلس معى فى ركن جانبى، ويظهر أن فى الأمر تواطؤ وتدبير، حيّانا قبل أن يصل تحية بيده.. اقترب وصافحنا ثم سحب كرسيا وجلس.. تكلّم بالألمانية ملاحظا لصاحبته الفرنسية السابقة قائلا:

أنت تتقنين الألمانية، فلا بأس أن يكون حديثنا بها مشتركا.

قالت: لا بأس وهى تتكلم الفرنسية كما نتكلمها.

- حقا؟! ولكن إكراما لها لنتحدّث بلغتها.

- شكرا قلت ونظرت إليه - تهيبته فخفضت نظرى.. لاحظ هو ذلك.. تلهى مع صاحبته القديمة، يسألها عن رجل كان يرافقها السنة الماضية كيف حاله.

التفت إلىَّ يسألنى اسمى فى تودّد.. قالت صاحبتى بسرعة هى: مجدولين والمانية كما تعرف.

قال:

اسم جميل ومحبوب، فهو اسم محبوب، اسم مشترك بين الأوربيات نجده فى ألمانيا وفرنسا وإيطاليا وبين الإنجليزيات.

قالت: الفرنسية

هذا حقا وما رأيك فى اسمى؟

- هو أيضا اسم مشترك، مع تحريف من سوزى إلى سوزان ومشتقات أخرى.

- وماذا تعنى الأسماء مع المخبر؟ خبّرنى عن مخبرك ودع اسمك.

جرى هذا الحوار بينهما وأنا صامته.. لاحظ هو ذلك.

قال:

وما رأى مجدولين؟

نطق اسمى لأول مرة فسرى فىّ نوع من الارتياح، قلت: لا يعدو الحقيقة.. المخبر هو كل شىء، والاسم للتمييز فقط.. هذه سوزى، وتلك ميرى، وأخرى مجدولين وهكذا.

قال:

ملاحظا ومخاطبا الفرنسية:.. صاحبتك ظريفة ولبقة، وعلى درجة من الثقافة والفهم.. هنيئا لك بها.

- قالت:.. هى صاحبتى وصاحبتك ما دامت تجلس معنا وتشاركنا الحديث.

- آه هذا صحيح.. ملاحظا خلو الطاولة من الكؤوس أو الفناجين.. يظهر أنكما لم تطلبا شيئا حتى الآن؟

قالت صاحبتى:

نحن ننتظرك.. زلة لسان، كانت يجب أن تقول: هى صدفة نلتقى هنا معك.. وجودك معنا صدفة جميلة.

أشار إلى النادل الذى جاء يتفقد الزبائن ويلبّى طلباتهم بين الحين والآخر.

خاطبه الرجل باسمه قائلا:

استفسر عمّا ذا تشرب السيدات.. أما أنا كالعادة قهوة وكوبا من الماء.

قالت الفرنسية:

- هل أقلعت عن شرابك المعتاد؟!

- لا ولكن خفّفت منه تجنّبًا لكثرة الغازات - كان الرجل يشرب الجعّة - واستبدلته بكأس من نبيذ مع العشاء وكأسين فقط من الويسكى أثناء السهرة إذا قرّرت السهرة والاّ فلا داعى إذا نمت مبكرا.

- وهل قرّرت الليلة ان تنام مبكرا؟ وتبّسمت.

- حسب ما يقتضيه الحال.

جاء النادل فوضع ما طلبنا وانصرف.. كنت أراقب الرجل فى حركاته ولفتاته، كان يختلس النظر إلىَّ، وحين تلتقى العيون يهرب وأهرب أنا منه.

لاحظت صاحبتنا الفرنسية ذلك قالت:

هي المكابرة يلجأ إليها الأشخاص أحيانا.

غير هو الحديث فقال:

- مجدولين.. لماذا لا تشاركينا الكلام؟!

قالت الفرنسية:

لأن عيونها تتكلّم.

تبسّم هو، ونظرت إليها أعاتبها على صراحتها وخفّة لسانها.

استدرك الموقف.. مرّة أخرى غيّر مجرى الكلام، قال:

سوزى أين ستسهرين الليلة؟

- فى بار الحديقة كالعادة ومعي ضيفة عزيزة: مجدولين وأنت

مدعوًّا كضيف عزيز أيضاً، إذا لم تكن مرتبطًا.

- بكل سرور سألبّى الدعوة ما دمت ضيفا عزيزا.. متى تبدأ السهرة؟

- بعد ساعة حينما نفرغ من العشاء حالا سنكون هناك وبعد أن نتهيأ للسهرة.

- وهل تكفى ساعة للمرأة كى تتهيأ للسهرة؟! لا أعتقد ذلك.

- ساعة أو ساعة ونصف بعدها حتّما سنكون هناك.

- سأخذ احتياطى حتى لا أضل قابعا لوحدى ترمقنى العيون سأكون هناك بعد ثلاث ساعات علّنى أجدكما.

اشتركنا الثلاثة فى ضحكة واحدة، قالت سوزى:

سنسبقك وسترى:

- أرجو ذلك وأشك فيه.. إلاّ إذا غيرت المرأة من طبعها الذى نعرف.

كنت مأخوذة بحديث الرجل، وقوة ملاحظاته، وقد سيطر عليّ بشخصيته الآسرة، وملاحة لفتاته، حضوره وقوة تأثيره، أناقة ملبسه وظرفه، حتى طريقة تناوله لفنجان القهوة ورشفاته على مهل، ومراعاته للإتكيت.

تعلّل صاحبنا بالخروج لقضاء غرض ما، وواعدنا على اللقاء فى بار الحديقة كما اتفقنا وعلّق بقوله:

علنى أجدكما بعد ثلاث ساعات كما اتفقنا.. ساعتها تكون قد تغيّرت الطباع.. تبسّم ونهض يودعنا مصافحة باليد.

- إنه رجل لطيف أليس كذلك؟ قالت: سوزى الفرنسية.

- هو كذلك وخبير بالنساء لعلّه جرّب كثيرا.

- وكيف هو رجل بلا تجربة؟! الرجل ذو الخبرة مفضّل على غيره فى كل الأحوال.

ضل هاجسي الوحيد بعد أن غادرنا.. لذلك اقترحت على سوزى: أن تذهب كل واحدة إلى غرفتها استعدادا للعشاء ثم بعد ذلك إلى السهرة التى تواعدنا بشأنها.

حين انفردت فى غرفتى وجدت نفسى أفكر فيه.. أعيد فى مخيلتى ملامحه، وملاحته، حديثه وأناقته، حضوره المميّز الآسر، وطريق نطقه للكلمات الألمانية لها نكهة خاصة.. أصبح الرجل لا يفارق خيالى.. فجأة وجدت نفسى أتمنّى صحبته، دق قلبى حين تصورته لى وحدى أثناء السهرة عندما نجلس وإيّاه، يخصّنى بحديثه، وربما يغازلنى، ولو بمواربة، سيّما وان صاحبتنا الفرنسية، يظهر أنها مطواطية معه، وربما هناك تدبير بشأنى، بينه وبينها، وأنها - سوزى - رغم أنه كانت له بها علاقة فى زمن مضى، إلاّ أنها الآن انسحبت، وآثرتني به.

أخذت كل منّا تعّد نفسها للسهرة.. استعرضت كل واحدة جميع فساتينها التى صحبتها معها - والمرأة فى سفرها تحمل حقائب ملئى بالفساتين ولا تستعمل الاّ القليل منها - تخيرت كل منا أجمل فساتينها بعد أن طرحتها جميعا فوق السرير وضلت تفاضل بينها وقتا طويلا حتى أستقر الرأى على الأجمل فيها وربما الذى معه ذكريات عزيزة، ثم

أخرجت ما يلائمه من الأحذية وحقيبة اليد، وشال ينسجم معه، ومعطفا من الفراء الثمين رغم قلّة البرد، كل ذلك من أجل الفخفخة والتفاخر.. وضعت كل شيء على جانب فوق الفراش، وأخذت حمّامها قبل العشاء اختصارا للوقت، وحتى لا يكون على حساب التزيّن والمكياج، الذى تهدر فيه المرأة أغلب الوقت ولا تحسب له حسابا مهما طال.

بعد العشاء مباشرة عادت كلٌّ إلى غرفتها، وضلت تناضل طويلا من أجل ترميم الوجه وتلميع البشرة بالمساحيق والدهانات الململمّعة وأحمر الشفاه والخدود ثم ثنّت بعناية الحواجب والعيون، وخط الألوان والظلال، وهذا يتطلب خبرة وجهدا ووقتا، أما تسوية الشعر وتسريحه وتثبيته (سشوار) كامل لهذا أيضا وقتاً إضافيا. بحيث استوفينا الساعات الثلاثة. ولم تنته كل منّهما بعد وأخيرا خرجتا تقصدان مكان السهرة: ملهى الحديقة.. كان نزلاء الفندق يتقطارون إلى المكان من جميع منافذ الفندق، ومن المسارب المفضية إلى القواطع المسكونة بهم. كانتا ترفقان ظاهريّاً بزينتهما أن يفسدها عارض ما، وفى الحقيقة، كان الوهن وتقدم العمر هو الذى يفرض تلك المشية الوئيدة المترفقة، خوفا من اختلال التوازن وحتى السقوط.. الأحذية ذات كعوب عالية والشعر عارٍ مثبّت بلصّاقات، والأجساد ثقيلة مترهلة.

كان صاحبهما قد جاء فى الموعد وهو على يقين أنه سابقهما، لم يدخل إلى الملهي، وضل فى الخارج يراقب من بعيد، ولأن الطاولة محجوزة فهو مطمئن من هذه الناحية.

دخلت السيدتان إلى الملهى وقصدتا طاولتهما المحجوزة، فلما لم تجدا الرجل الظريف قالت مجدولين المحتفى بها:

- يظهر ان صاحبك قد أخلّ بالموعد، فهو لم يأتِ بعد وربما لا يأتى أصلا.

- سنسجل عليه نقطة التأخير، لكنه حتما سيأتى.

- ربما.. لكن الأصول: أن يكون فى انتظارنا.

- للغائب عذره.. أنا واثقة من مجيئه.

- لا أدرى أنت أعرف به منّى.. وربما كان له عذره كما تقولين.

يظهر الرجل أمامهما بعد برهة وجيزة، وهو يرتدى لباسا يليق بالسهرة، أناقة وذوقا.. طلق المحيا فرح باللقاء.

تقف مجدولين مذهولة، وتمد يدها إلى الرجل فيأخذها برفق وينحنى يلامسها بشفتيه، يرسلها ويشير إلى سوزى ألاّ تقف ويجاملها بقبلة فى الهوا.

كانت فرحة مجدولين لا توصف، وهى تجد الرجل مقبلاً عليها بكليته، يحادثها، ويتطلع إليها بشغف لما يبدو لها وتفسّر، لا ينسى مجاملة صاحبته الأولى محافظة على شعورها.. لكنها هى:- سوزى - كانت تتعمد أن تفسح له المجال بل وتشجعه على الاهتمام بمجدولين التى ظهر بها يدع مجالا للشك أنها تعلقت بالرجل وشغفت به.

قاد مايسترو الجوق مجموعته الموسيقية فى مقطوعة تدعو إلى الرقص.

نهض الرجل وهو يقفل أزرار سترته، ويعدّل من رباط عنقه، ثم أخذ بيد مجدولين ودعاها إلى الرقص.. كادت المرأة أن تطير من الفرحة.. تبعته وهى تراعى زينتها وفستانها الفخم الذى انتقته من بين عشرات ليليق بها أمام الجمع وبالرجل، وقد راهنت على أن يكون من نصيبها دون صاحبتها كما تشير الدلائل.

كان الرجل بالنسبة لها مذهلا: قامة وظرفا وأناقة، وأدبا جما وخلقا كريما، ولباقة واتباعاً للإتكيت، أخذها بلطف واحترام ودخل وإياها حلبة الرقص.. كانت الرقصة كلاسكية هادئة رتيبة، اليد اليسرى فى اليد اليمنى، ذراعه يحيط بالجسد، ويدها الأخرى فوق كتفه.. انتهت الرقصة وتبدلت الموسيقى تدعو إلى الرقص النشط الذي يتطلب جهدا وحركة سريعة، فطن هو إلى الموقف.. دعاها إلى الجلوس.. عادت تتقدمه إلى مجلسهما جذلى لا تسعها الدنيا من الفرح.. علقت صاحبتها قائلة:

– ما هذه السعادة التي تطفح على الوجه، وهذه الحمرة في الخدود، والسرور الذي تنطق به الأسارير؟! حقا إن الترويح عن النفس هو إكسير الحياة، وإن لحظة فرحة خير من الدنيا بأسرها.

– شكرا لله ولك يا سوزي على هذه الفرصة... اقصد الضيافة الكريمة.

– والشكر موصول: لمبروك– اسم الرجل– أليس كذلك؟

– نعم إنه: نعم الرجل لطفا، وذوقا، وخلقا كريما.

ضل الجميع يكتفي بالفرجة على الرقصات المتتالية والاستماع إلى فواصل الموسيقى العالية: لموزار وبيتهوفن، بين الرقصات.

تتابع الشراب كأس بعد كأس في غير إفراط حتى نهاية السهرة، حيث عادت السيدتان برفقة الرجل إلى القاطع الذي تسكنان فيه.

قصدت سوزي الفرنسية غرفتها أولا بنية مُبَيَّتة ودعاها بتحية المساء، وعاد الرجل رفقة مجدولين إلى حيث تسكن في قاطع آخر... على باب غرفتها ودعها بحميمية متمنيًا لها نوما هادئا، بعد أن صافحها ضاغطا على يدها بلطف قائلا:

- إلى اللقاء... وخرج.

(4)

دخلت غرفتها.. اعتلت سريرها واندست تحت اللحاف.. نشط عقلها.. ضلت عيونها مفتوحة. اجترت أحداث ساعات السهرة: لحظة بلحظة، وكلمة بكلمة، ولفتة وخلجة شعور.. جافاها النعاس ولم تنم إلا قبل الفجر.. في وقت استيقاظها المعتاد نبهتها الساعة البيولوجية، فتحت عيونها، أرادت أن تنام تعويضا لما اقتطعه السهاد من نومها المقرر والمقدر بست ساعات في الليلة كما تعودت منذ أن بلغت الخمسين من العمر.. لكنها غالبت النوم وخرجت لعلها تجده.. بحثت عنه في الصالونات الموزعة بين صالات الفندق- أمام الاستقبال.. في المقاهي والبارات عند أركان الحديقة.. أعياها البحث، قصدت غرفة صاحبتها: سوزي الفرنسية علها تجد عندها سلوى في الحديث عن سهرة البارحة، أو بالأحرى عن سيرة الرجل... يكفيها أن تذكره لها، وأن تأتي على أخباره بأي شكل.

تغيب الرجل عن الفندق ثلاثة أيام، فقد انتدب من طرف فندق آخر، لمرافقة مجموعة من السياح (جروب) كدليل سياحي إلى أطراف الصحراء، وكان وقتها لم تنتشر الهواتف الخلوية بعد، كان في إمكان الرجل أن يتصل بها حينما وصل الجروب إلى العمار حيث تتوفر الاتصالات السلكية، بادر على الفور بالاتصال يبحث عن مجدولين ليحادثها، لكنه لم يظفر بها في غرفتها حيث كانت هائمة على وجهها تبحث عنه وتسأل.. بلغ بها الحزن أشدّه، عندما لم تعثر على خبر، كانت صاحبتها سوزي لها

علاقة ومعرفة بإدارة الفندق، سألتهم عنه، وأخبروها بأنه مكلف بمهمة من قبل الشركة التي تملك الفنادق في تلك الجهة، فأسرعت وأخبرت صاحبتها التي كاد أن يطيش عقلها، قالت لها:

-هو قادم يوم الغد مساء.

سكنت المرأة وعاد إليها صوابها.. قبلت صاحبتها مكافأة على تلك البشرى السارة، وبرقت عيناها بعلامات السرور.

أشارت إلى السماء تشكر من في السماء!!.

فرغ الرجل من مهمته المكلف بها، وجاء مسرعا إلى الفندق يبحث عن صاحبتيه.. وجدهما تنتظران في صالون بصالة الاستقبال، مرق بخفة ووجهه متهلل.. قصدهما.. قامتا لتحيته.. احتضنته مجدولين وسكنت على صدره برهة من وقت، والدمع ينسكب من عينيها... تخلص منها برفق ممسكا بيدها وأجلسها بجانبه.

كانت صاحبتهما تجلس قبالتهما وتبتسم ثم قالت:

-كيف يكون حالك عندما ترحلين بعد انقضاء المدة؟!

- نظرت إليها تعاتبها دون أن تنطق بكلمة.

- إنّه عشق الناضجات قالت: سوزي.

- قال صاحبها يغطي الموقف:

إنها رحلة ممتعة في الصحراء في هذه الأيام الخريفية التي يتبدل فيها المناخ، بين الحرارة والبرودة، تمنيت أنكما معنا.

قالت سوزي في خبث:

هناك يمتزج الساخن بالبارد.. أعني التقاء الجنوب والشمال.. وضحكت.

نظرت إليها مجدولين بارتياح هذه المرة، وتمنَّت منها مزيدا من التورية والإسقاط.

قال الرجل:

لنخرج الليلة إلى المدينة في جولة خفيفة على الأقدام، وربما أخذنا عشاء خفيفا في أحد المطاعم بدل طعام الفندق المعتاد.

اتفق الجميع على الفكرة، وخرجوا قبل المساء في جولة قريبة إلى وسط المدينة، ثم جلسوا في مطعم شعبي نظيف، تذوقوا طعاما لذيذا يغاير طعام الفندق، ولم يتناولوا مشروبات روحية.. اكتفوا بالماء المعد على المائدة.

عاد الرفاق مشيا على الأقدام، وعلى مهل حتى وصلوا إلى الفندق.

قالت سوزي:

أحس بإعياء رغم أن الجولة كانت ممتعة والطعام لذيذا،

وأفضل هذه الليلة عدم السهر.. أنا ذاهبة إلى غرفتي للتحدث مع ابنتي في مرسيليا، وأشعر بحاجتي إلى النوم مبكرا وأستأذن منكما الآن... كانت تلك المبررات مجرد ذريعة لتترك لهما الحرية، وتهيئة الأجواء المناسبة للتصرف كيفما يحلو لهما.

قالت مجدولين:

- لا بأس خذي راحتك... وطمننينا عن بنتك وإذنك معك.

لم يعلق مبروك بشيء، نظر إلى سوزي وتبسّم.

بعد قليل صحب مبروك مجدولين إلى غرفتها... ودخل ومكث وقتا يسيرا مقدار أن أشعل سيجارة أخذ منها نفسًا ثم خرج.

تكررت الزيارة بعد ذلك على مدى ثلاثة أيام خلال أسبوعين، هي المدة المتبقية من إجازة مجدولين.

جاء يوم الرحيل إلى الشمال بالنسبة للمجموعة- الجروب- ويوم الفراق بالنسبة لمجدولين- رحلت جسدا دون روح.. ذرفت الدمع وهي تودّع مبروك أمام الجميع، وغيرها كثيرات كان لهم نفس الموقف، الأمر معتاد كلما حل جروب بالجنوب ورحل إلى الشمال بعد انقضاء المدة... مشهد مألوف، شباب في مقتبل أعمارهم، يودعون عجائز متهالكات قادمات من الشمال، يذرفن الدموع عند الرحيل، وشباب يتظاهرون بالحزن.. مفارقة عجيبة لكنها أصبحت معتادة.

هذا ما كان من أمر مجدولين بنت الشمال، وقد جاءت إلى الجنوب للمرة الأولى- لكنها عادت مرات عديدة.

في الجنوب والشمال على السواء عوامل جذب وطرد، يأتي ذكرها في ثنايا هذه الرواية.. مأساة كبرى توزعت بين أهل القطبين إن صح التعبير، من خلال الهجرة والهجرة المعاكسة، الشرعية وغير الشرعية بين الشمال والجنوب.

نعم مآسٍ فظيعة ومرعبة، أهوال ونكبات جسدية ونفسية، يعانيها كلا الطرفين، خلال هذه التحولات البشرية بين بلاد الشمال الغنية المترفة، وبين أقطار الجنوب ذات الحاجة والعوز.. مآسٍ لا يسلم منها الجنوب ولا الشمال مع اختلاف شكل المآسي وأسبابها.

سنصادف نماذج كثيرة خلال الهجرات الشمالية الشرعية، والجنوبية الغير شرعية... هجرات قهرية يدفعها من جانب العوز والحاجة، وغول المصبغة والفقر.. الحرمان والجوع... العبودية والقهر وفقدان الكرامة، الحيف والظلم وسلب الحريات في أغلب أقطار الجنوب، ومن جانب آخر -الشمال- حاجات مفتقدة كثيرة... أهمها الشمس وصفاء الجو، يجدها الشماليون في الجنوب، حيث يهربون من بيئة باردة ملبدة بالغيوم معظم شهور السنة، ومن التلوث والغازات الضارة، ومن فتور العلاقات الاجتماعية.. هجرات شرعية وطوعية منظمة ومقننة، وسيان سوى أكانت شرعية أو غير شرعية، لا تخلو من مآسٍ لكلا الطرفين..

هذا الذي يأتي من الجنوب متجها نحو الشمال، يتعرض لعذابات وأهوال، تدمي القلوب، وتخلع الفؤاد، وتزلزل الكيان، يكابدها هذا الجنوبي، حيث يقطع فيافي الصحراء الواسعة، يسلك دروبا وعرة، يعز فيها الماء والقوت، ثم وهو يركب البحر في قوارب مطّاطية خالية من الأمان والتأمين، تسمّى قوارب الموت، يتعرض فيها للغرق كل لحظة حتى يصل أو لا يصل إلى الشمال... من جهة أخرى أهل الشمال في هجراتهم المعاكسة، ينشدون المفقودات في بيئتهم، يلتمسون العوض

في الجنوب، يتعرضون بدورهم إلى منغصات تتعدّد أساليبها وأشكالها، لعل أبرزها: الابتزاز والتدليس، وأحيانا الموت المحقق على أيدي مجرمين وإرهابيين بمسميات مختلفة، أو على أيدي أصحاب الإجرام الطامعين، وبعض السفلة المزورين، الذين يستولون على أموالهم وأملاكهم، عن طريق الحيلة والمكر... فلا أهل الجنوب سالمون، ولا أهل الشمال المهاجرون هجرات عكسية.

وفي الرواية عرض وأي عرض، لما يعانيه الطرفان من ضيم النفوس، وما أشد ضيم النفس، إنه الموت الزؤام، وما يطلع عليه القارئ في الصفحات التالية: لهو دليل على ما تقدم، في الهجرات العكسية.

(5)

هذا شاب جاء من النيجر، يتبعه أخوه الشقيق الذي لم يبلغ سن الرشد بعد- فتى في الرابعة عشرة من عمره- وآخر من نيجيريا، وفي الطريق اجتمعوا مع جماعة من مالي، جاؤوا جميعا يقصدون الشمال، ومن الجنوب الشرقي هناك جماعة قادمة من الصومال: رجل يحمل صغيره- سنتين ترافقه زوجته الشابة، وفي الطريق، انضم إليهم مجموعة من بدو أرتيريا: شبان وشابات، وفي الطريق أيضا رافقهم رهط من الحبشة... قصدوا جميعا الأراضي السودانية، تدفعهم المسارب والطرقات، جنوب البحر الأحمر، يتحايلون على العسس والدوريات المراقبة للحدود، يتحاشون وجودهم خوفا من عرقلتهم أو القبض عليهم، فتضيع عليهم فرصة الالتحاق بالشمال، مازال أمام هذه الجماعات القادمة من كل صوب في الجنوب، والمتجهة نحو الشمال...

مازال أمامها صعوبات وعراقيل لا حصر لها، في طريقهم الطويل عبر الصحراء، التي تمتد من شرق موريتانيا، وجنوب الجزائر، وشمال مالي وإلى غرب وشمال السودان، فتشغل الفضاء الواسع بين ليبيا في الشمال- وهي المقصد في الغالب- وتشاد والنيجر في الجنوب... إنها الصحراء الكبرى: بحر الرمال، والتضاريس الوعرة، الفيافي الموحشة التي لا نبات فيها ولا شجر ولا بشر... الماء فيها، والقوت مفقود، والأخطار محدقة بمن يدخلها من كل جانب، قد لا يصدق القارئ أن هذه الجماعة القادمة في اتجاه الشمال هي راجلة تقطع هذه المسافات البعيدة سيرا على الأقدام، وعلى من يعرف جغرافية هذه المنطقة ومسافة كل مراحلها من العمران في جنوب الصحراء، و إلى الأراضي الآهلة بالسكان، أن يقدّر مقدار ما يتعرض له هؤلاء الآدميون المساكين، من معاناة ومتاعب، وهول جسيم وعذابات كثيرة، في رحلتهم هذه يطاردون الحياة والموت يترصدهم من كل جانب وفي كل حين.

انظروا بالله عليكم يا إخوة الإنسانية في حال هؤلاء... هذا الذي جاء يجر أخاه الصغير من بين عائلته الفقيرة، التي تسكن كوخا حقيرا في إحدى التجمعات السكانية في النيجر، وهو يقطع الصحراء صوب الشمال، يدركه الإعياء الجوع والعطش، فيلتمس منبسطا من الأراضي بين الأحراش القليلة، لينام وينام الصغير، وهيهات النوم لمن يعضه الجوع بنابه، وتجف عروقه بفعل العطش، يمتد الشاب على الأرض محاولا النوم الذي جافى عينيه، لكن الصغير من شدة التعب والسير

حافيا على الحصى، تأخذه سنة من نوم، كان الفصل صيفا، والحرارة شديدة، لكن أرض الصحراء تبرد في الليل، وهما في هذا الحال.. الصبي الصغير مستغرق في النوم، وأخوه بين النوم واليقظة، في ذلك المهمة، وفي عتمة الليل تزحف نحو الصغير أفعى شديدة السمّية، تنشب أنيابها في رجل الصغير.. تفرغ سمها في جسده الضئيل، يصرخ الولد.. ينتبه أخوه، ينهض فيرى الحية تزحف نحوه... يعاجلها بضربة من يده بعصاة غليظة.. ولكنها فعلت فعلتها.. ضل الصغير يتخبط من شدة الألم، يصرخ ويستغيث بأخيه- لكن ما الحيلة... ليس هناك من جدوى.. قضى الأمر... فارق الصغير الحياة... ليس لأخيه إلا أن يحفر له بتلك العصاة حفرة في الأرض، ويسوي عليه التراب، ويضع شاهدا من حجر عند رأسه وقدميه، ويمضي في طريقه.

بعد مسيرة يومين بمفرده، لا أنيس ولا معين، يلمح من بعيد قافلة من بشر تضرب في الصحراء، على غير هدى قادمة من بنين ونيجريا.. ينضم إليها وقد تعرف على أفرادها وعرف منهم وجهتهم فكان القصد واحدا.

كان يتكلم قليلا من الإنجليزية، لغة معظم سكان نيجريا، وكانوا هم يتكلمون بعض الفرنسية لغة أغلب أهل النيجر.

سارت القافلة البشرية في الطريق، وكان الشاب النيجيري يعرف بعض معالمها، حيث ولجها من قبل في هجرة سابقة إلى ليبيا... بعد ثلاثة أيام انضمت إليهم جماعة قادمة من مالي، سار الجمع في اتجاه الشمال، يقودهم ذلك الشاب الذي عرف الطريق من قبل.. طريق مقطوع

بعض معالمها. بعد شهر من السير أغلبه يتم في الليل خوفا من الهجير الذي لا يطاق، وصل الجمع إلى الشاطئ الجنوبي للبحر الأبيض، هذا البحر الذي ابتلع خلال عقد من الزمن عشرين ألفا من البشر القادمين من الجنوب، كما جاء في إحصائيات مراكز الرصد التي تتابع أخبار الهجرات غير الشرعية نحو الشمال.

والآن على هذه الجماعات التي تصل إلى الأراضي الساحلية على ضفة البحر الجنوبية، وعلى اختلاف جنسياتها... عليها أن تبحث عن عمل في تلك المناطق لتوفر أجرة السفر حتى تقطع البحر نحو الشمال، حيث الرخاء، والعمل المتوفر، وبأجور عالية، وحيث رغد العيش والحرية والكرامة والاستقرار، على هؤلاء جميعا القادمين من الجنوب للعمل لمدة سنتين على الأقل، لتوفير أجرة ركوب تلك المراكب المطاطية- مراكب الموت- أو بعض المراكب الخشبية المتهالكة والخارجة من الخدمة، التي قد تصل أو لا تصل حتى إلى منتصف الطريق في البحر، إذ تتوقف أحيانا بسبب الأعطال، أو نفاد الوقود، وأحيانا بسبب غضبة البحر، تهاجمها الأمواج العاتية، فتتركها حطاما، يطفو فوق المياه، ويغرق البشر الذين فوقها، فيتلقفهم لحومهم الكبير، أو تنهش لحمه الأسماك الصغيرة والمحار، فيصبحوا بين عشية وضحاها في خبر كان.

هكذا هي الهجرات الغير شرعية تلاقي مثل هذا المصير في أغلبها وكلّها هجرات نحو الشمال.

تتجمع الجماعات البشرية من مختلف الجنسيات في بلدان الجنوب، على ساحل المتوسط، تلك التي تنوي الهجرة إلى الشمال، تكدّ وتكدح، في سبيل لقمة العيش، والأهم لتوفير نفقات السفر، التي يقررها عتاة المجرمين العاملون في تهريب البشر، يعمل هؤلاء المحتاجون المساكين في مهنة شاقة وحقيرة أحيانا، ولمدد طويلة، وفي ظروف قاسية صعبة، ينامون تحت هياكل البناءات، إذا كانوا عاملين في إنشاء المباني وفي زرائب الحيوانات حين يحترفون رعي الماشية، وفي حظائر الدواجن، وألواح من صفيح يصنعونها بأيديهم، إذا كانت أعمالهم غير قارّة، هناك في مدن، وقرى، وأرياف، البلاد التي تقع على الساحل الجنوبي للمتوسط، يضلون لمدة سنتين، أو تزيد، من أجل توفير بعض المدخرات، وهناك يحلمون بالعالم الخرافي، على ما حدثهم به الآخرون الذين حالفهم الحظ، فوصلوا سالمين بعد أن ابتزهم المجرمون تجار تهريب البشر، واستولوا على أموالهم وسلموهم للبحر،.... غير أن الله سلمهم فوصلوا سالمين، وتهيئت لهم فرص النجاح، وفي الحصول على عمل غير حياتهم رأسا على عقب، فاستبدلوا ملابسهم الوضيعة الرثة بملابس عصرية جديدة، وأصابوا من المآكل أطيبها، وبعضهم تزوج من بيضاوات، وسكن الدارات الفخمة، وقاد السيارات الفارهة، هكذا تأتيهم الأخبار ممّن سافر قبلهم من أقاربهم فسكن الشمال، وعاش حياة الآدميين، عبر وسائط متعددة من الاتصالات العصرية... لا شك: أنه عالم يغري بالمغامرة والمجازفة للوصول إليه، ولو كلف ما كلف حتى لو كانت الحياة... وغالبا ما يحدث

هذا وتكون النهاية غرقا في البحر، وما قيمة حياة يحياها هؤلاء البؤساء، سوى في بلدانهم الأصلية، حيث العبودية وسلب الحريات، والاضطهاد العرقي، والتفرقة العنصرية، والعراء، والجوع، والجهل والمرض، وكل ما يسلب إنسانية الإنسان ويحط من كرامته.

هكذا كان الجنوبيون الفارون من ذلك الجحيم، يفكرون ويعملون على تغيير واقع حالهم، كلّما برقت لهم بارقة من أمل في تغيير الحال، لذلك كانوا يتجهون شمالا، يكابدون أهوالا وعذابات لا يحتملها البشر، حال هو صراع بين الموت والحياة لكنهم مكرهون أن يجربوه تجربة مريرة قاسية. تفلّت هذا الزخم من البشر، من بؤر العوز والشقاء المادي والمعنوي، وجاء فرادى وجماعات، خلفهم بيئتهم الطاردة، وأمامهم المجهول الذي ربما يكون فيه الخلاص. قدموا من بلدان تباعد بينها المسافات، وتحدّها الحدود، وتتنوع فيها الجغرافيا، ويسجل عنها واقع الحال والتاريخ المعاصر، إنها بؤر للحروب والمجاعات، والصراع القبلي، وقلة المـوارد، وانخفاض معدلات التنمية، والفساد المالي والإداري، والنهب في رأس السلطة.

ومن أرض الصومال في الشمال، جاء ذلك الرجل يحمل صغيره ذي السنتين، برفقة زوجته الشابة، ومعهم رفيق كهل من جنوب الصومال، قطعوا المسافة الطويلة الوعرة عبر هضبة الحبشة الصخرية، ذات الأحراش الكثيفة، والأنهار الصغيرة التي تنحدر من أعالي الجبال في كل الاتجاهات، على مدى ثلاثين يوما سيرا على الأقدام حتى وصلوا إلى

أسفل الهضبة.. هناك انضم إليهم جماعة من الشابات والشباب قادمون من أرتيريا، وفي السودان الشرقي رافقهم جماعات أخرى من العاطلين عن العمل، تنوي بدورها الهجرة، بعدما سمعوا منهم أخبارا عن الشمال مشوّقة، وأنهم متجهون إلى هناك، حيث الفردوس وجنات النعيم. أصبحت القافلة تعد أكثر من خمسين فردا: عائلات بها أطفال، وأفراد.

كان في جماعة السودان خبراء بمسالك الأرض، عارفون بمراكز التفتيش والمراقبة على الحدود، وبذلك تفادى الجميع العرقلة والمضائقات، التي يمارسها أفراد الجنود العاملين بالحراسات في المنافذ الداخلة والخارجة من السودان وإليه، وهي مضائقات وعرقلة من أجل الحصول على الرشاوى وسلب الحاجيات ليس إلا.

تمكن الجميع: صوماليون وسودانيون من الشرق ومن أرتيريا من دخول السودان في ما وراء النيل من جهة الغرب، والحرارة شديدة في أغلب فصول السنة في ذلك المهمة المترامي الأطراف والفقير من الطعام وحاجات الإنسان إلا من بعض الخضروات والغلال يصادفها هذا الجمع البشري في بعض المزارع على طول الطريق.

كان الطريق صعبا وشاقا، وهذا الجمع أغلبه حفاة وشبه عراة، وهم يقطعون المسافة بين وادي النيل والفاشر، وبعد الفاشر إلى الحدود.

كان المنفذ المعروف على الحدود يتمثل في زاوية ضيقة تشترك فيها مصر وليبيا والسودان، بها مراكز تفتيش ومراقبة، واحتمال المنع من

العبور بها وارد وعدم مواصلة السير نحو الشمال لذلك كانت الجماعات المهاجرة غالبا ما تحيد عن الطريق والمسالك المعروفة إلى منافذ غيرها تؤدي إلى الصحراء الليبية، وهنا تبدأ رحلة المتاعب، والعذابات والهول الشديدة، فالمسافة ليست بالهينة، في صحراء قاحلة ليس فيها من أسباب الحياة شيء، وسائل التنقل قليلة، إلا من بعض سيارات صحراوية معدّة للحمولة ونقل البضائع من السودان وإليه.

تصرّمت الرفقة بين تلك الجماعات البشرية المتكافلة والمتضامنة طوال الطريق عبر الأراضي السودانية، عندما اقتربت من الحدود تلك الزاوية الضيقة- تشيت مجموعات صغيرة العدد، وتمايزت جنسياتها، ذهب السودانيون في طريق، وأهل أرتيريا في طريق آخر، وأخذ الرجل الصومالي يحمل ابنه على كتفه تتبعه زوجته ويرافقه ذلك الكهل رفيقه من الصومال الجنوبي طريقا آخر، لم تطأه قدمه من قبل، تحايل الجميع على جنود البوابات الحدودية، بأن ابتعدوا عنهم أثناء عتمة الليل- وليس للجنود مركبات تطارد المتفلتين- نجت كل مجموعة من قبضتهم، وهم في الحقيقة ليس في حاجة للقبض على أحد من أجل حجزه تطبيقا للقوانين المعمول بها، في الدول الثلاثة، إذ أن السلطة غائبة في تلك المناطق النائية، إلا أن هم الجنود الوحيد، هو فرض الإتاوات الزهيدة على تلك الجماعات الفارة من المجاعات.. أولئك التعساء... الجنود فقط يريدون الحصول على تعويض على تلك الغربة والنفي الإجباري في ذلك المكان البعيد. تفرقت الجماعة حين اقترابها من منطقة الخطر،

والتأمت حين ابتعدت بعد مسيرة يومين.. تلاحقت بالمجموعات السودانية والإرترية، وكذلك الرجل الصومالي ورفيقه وزوجته وابنه الذي يحمله على ظهره، وصادف أن التقوا جميعا لمجموعات مهاجرة هي الأخرى قادمة من حلائب ومن النوبة في جنوب مصر... سار الجمع الكبير في الصحراء تحرقهم الشمس في النهار ويقرصهم البرد في الليل، هكذا هو مناخ الصحراء العارية من الشجر، والخالية من البشر... في الطريق الطويل العريض الذي هو بعرض الصحراء وطولها، فالصحراء في تلك المنطقة الواسعة، كلها طريق ممتد تسير فيه السيارات التي يعمل أصحابها في التهريب -تهريب السلع والبشر- بالسرعة القصوى، إن أرادوا ذلك... سيارات صحراوية تراها عن بعد متوازية في مساراتها، وتتفاوت حين بعد حين، تقف لتلتقط أولئك المشردين في الصحراء إذا كانت في جيوبهم نقود، أما الذين لا يملكون مالا، فلا يرحمهم أحد، إلا الرحمن الرحيم، يتركونهم لمصيرهم غير عابئين بهم.. وهناك في الصحراء يهددهم شبح الجوع والظمأ، وللصحراء قانونها: إنها بحر بلا أمواج تبتلع البشر كما يبتلع البحر.

وقفت سيارة صحراوية صاحبها من عتاة المجرمين المهربين المتميزين، وقف ليأخذ من يملك نقودا.. تعلق بالسيارة جمع غفير، حتى اختل توازنها، وكادت بطنها تصل إلى الأرض... أخذ المهرب المجرم صوته ومسدسه الذي لا يفارقه أبدا... بدأ يستلم المعاليم التي قرر قيمتها من عنده.. ومن لا يجد عنده مالا يأمره بالنزول، فإذا أبى ضربه

بالصوت وبضيق شديد، وإن تحرش به أحد أشهر في وجهه المسدس، فإن أصر على عدم النزول أطلق عليه الرصاص، تأديبا له وعبرة لغيره، ثم يواصل سيره غير آبه بشيء وكأنه قتل حيوانا شرسا، يبقى على ظهر السيارة فقط الذين دفعوا المعلوم... يضل أولئك الذين ليس في جيوبهم مال، يتابعون سيرهم على الأقدام، في ذلك المهمهة الموحشة يعض الجوع بطونهم، ويقرص البرد أطرافهم في الليل، وتحرق الشمس جلودهم في النهار، لا يدرون متى تنتهي عذاباتهم ويصلون إلى بر الأمان.

انفصل الرجل الصومالي وزوجته ورفيقه الكهل الذي جاء من أرض الصومال في الجنوب، بسبب مرض ابنه الصغير، الذي فأجاه إسهال حاد، انفصل عن المجموعة الكبيرة التي واصلت سيرها، وضل يعالج ابنه، علاجا بدائيا لا يفيد في شيء، مجرد جرعات من الماء، تعوض ما فقده الطفل من سوائل، وبعض حبات من عراجين شجرة الرتم، تمضغها أمه، وتضعها في فيه طريقة قديمة لعلاج الإسهال كانت أمه تستعملها للأطفال المصابين بداء البطن، لم يكن العلاج ناجحا، فقد الطفل ما في بطنه من سوائل، جف جسمه، غاب عن الوجود، فارق الحياة، ضلت الأم تندبه، والرجل يطلب منها التضرع بالصبر، فلا راد لمشيئة الله، هذا قدره جاء أجله، وهذه هي الأرض التي أراد القدر أن يموت فيها "ولا تدري نفس بأي أرض تموت" دفن الرجل ابنه بما عليه من لباس، ضل يترجى زوجته أن تكف عن النحيب، وأن تتبعه لمواصلة السير قائلا لها: ونحن جميعا لله، وإنا إليه راجعون، ولا

نعلم بما سبقنا ولدنا إلى المصير المحتوم، ولا ما تخبِّى لنا الأيام، وعلينا أن نرضى بحكم الله خيره، وشره، وليس في حكم الله شر لو علم الناس ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾(البقرة).

تبعته المرأة على مضض مكرهة، وهي ترنو إلى القبر الصغير الفريد في فج خال، يعلوه شاهد من حجر وضعه أبوه عند رأسه، والدمع يذرف من العيون الباكية حرقة على فلذة كبدها.

سار الرجل في طريق غير معلوم وزوجته ورفيقه، طريق هو عبارة عن أرض منبسطة، لا أثر فيها للنبات ولا الحيوان، إلا من بعض النتوءات ترى على مدى النظر بين الحين والآخر هي: تلال صغيرة متقطعة، تعلوها أحجار صلدة، أحرقت الشمس رؤوسها، تحيط بها من أسفل رمال بيضاء.

ضلت تلك الجماعة: الصومالي وزوجته، ورفيقه الكهل من جنوب الصومال، تتوالى عليهم الصباحات يوما بعد يوم، وتحل الليالي ليلة بعد أخرى قرابة شهر، تجد السير ليلا حيث يكون الجو باردا، وتكن نهارا حيث تكون الشمس في كبد السماء، جماعة صغيرة من البشر خالية الوفاض من طعام يؤكل، إلا من حبات تمر، وجرعات ماء تتزود بها، كلما مرت ببعض الآبار السطحية التي حفرها أصحاب البر وتركوها للسابلة صدقة جارية، أما التمر فكان من بعض الواحات الصغيرة

المزروعة في (حطايا) بين الرمال، ويتجمع القادمون من الجنوب، في الأقطار الواقعة على الضفة الجنوبية للمتوسط، يتجمعون في العواصم، والحواضر، والقرى الداخلية والأرياف، يعملون في كل الأعمال، وحينما اتفق، حتى لو كانوا عمالا تقنيين مهرة في بعض المهن، ولا يجدون عملا يناسب حرفيتهم ومؤهلاتهم. أنهم يلجأون إلى العمل في أعمال البناء، والزراعة، والرعي، وفي أعمال أخرى متدنية الأجور، همهم فقط جمع المال الذي يمكنهم من الالتحاق بأقطار الشمال، ووراء البحر بحثا عن الأجور المرتفعة، والحياة المرفهة، في بلاد متحضرة، ينعمون فيها بالحرية والحياة العصرية، في ضل النظم ذات القوانين والتشريعات، التي تكفل الحقوق والعدالة الاجتماعية، وكرامة الإنسان.

أعداد هائلة من بلدان الجنوب، وراء الصحراء الكبرى، وشرقها وغربها، تضل تترقب الفرص لتركب البحر، في هجرات غير شرعية ولا مأمونة، لا في الساحل الجنوبي، ولا عند الوصول في بلدان الشمال، حيث تترصدهم، السلطات المختصة، في كلا الطرفين للزج بهم في معتقلات الحجز، إما بسبب مخالفة القوانين، إذ لا أوراق ثبوتية تخصهم في الغالب أو لأسباب أخرى، منها: حملهم لأمراض ناقلة للعدوى، من التي تنتشر في الجنوب كثيرا، أو تكون أمراضًا قاتلة ليس لها علاجات كمرض نقص المناعة، والأبولا، وأمراض الكبد السحائي، وغيرها التي لم تكتشف لها أمصال بعد.

إن المهاجرين هجرات غير شرعية، وأغلبهم من أفريقيا السوداء،

المنتظرين في مدن الساحل الجنوبي، وكذلك بعض مواطني دول الشمال الأفريقي، من البيض ملاحقون دائما وفي كل الأوقات، وموصودون تحت أعين سلطات خفر السواحل، والأمن الداخلي، وكثيرا أحبطت هجراتهم، على الشواطئ، وفي عرض البحر، وزج بهم في السجون، وهنا يخسرون كل شيء: المال الذي دفعوه لأصحاب المراكب المهربين للبشر، وحجز أوراقهم الشخصية إن كانت لهم أوراق ويتعرضون إلى جزاءات مختلفة منها: الغرامة، والسجن، والسوابق من الجنح والجنايات التي تسجل في صحفهم، ومتاعب وعذابات نفسية وجسدية، تلاحقهم طيلة العمر.

لاشك أنهم فيئات مشوهة في المجتمع، ومشبوهة، ومرفوضة سوى في بلدانهم الأصلية، حين يعودون، أو حيث يتواجدون، وهكذا يضل الواحد منهم، محبطًا وغير راض عن نفسه، وساخطًا على المجتمع.

(6)

عودة إلى مجدولين التي كانت تقص القصص على صاحباتها في الركن الذي اعتادوه في المقهى، مساء كل يوم في مدينة همبرق، تتذكر كل منهم سيرة حياتها، وما فيها من مفرحات ومحزنات ومفارقات سجلتها الذاكرة على مدى أعمارهن، وقد تعدت كل منهم سن التقاعد بسنوات، فى تلك الجلسة الطويلة التي احتسين فيها أباريق القهوة.. كانت مجدولين محط أنظار الجميع ينصت إليها باهتمام، وخاصة صاحبتها مارقاريتا التي انضمت إلى نادي المتقاعدات- مجازا في ذلك المقهى بعد أن بلغت سن التقاعد وأحيلت إلى المعاش، وكان مازال فيها بقية من جمال وشباب، كانت مارقاريتا أكثر الجميع اهتماما وإنصاتا لما

تسرده عليهن مجدولين، من حكايات ومشاهدات، وحتى مغامرات عاشتها في الجنوب في زياراتها المتكررة إلى تلك البلاد وراء البحر على الضفّة الجنوبّية المقابلة للشمال. حكايات وقصص مثيرة، ومغامرات فيها تشويق، وتجربة مسلية مبهجة، مريحة للنفس والقلب والجسد معا.

كانت تشعر أغلب المستمعات وخاصة العارفات بمجدولين بشيء من المبالغة إلاّ أن جميعهن، يجدن في تلك المبالغات شيئا من الترويح عن النفس، والتسلية، ودغدغة الحواس، وإثارة العواطف الإنسانية، التي ران عليها الإهمال والنسيان بفعل تقدم العمر والجلوس على رصيف هامش الحياة.

كانت ماركاريتا تتابع مجدولين في كل كبيرة وصغيرة، تنصت باهتمام بالغ، ولا تسأل عن التفاصيل كما تفعل الأخريات، لكنها تجد في تلك التفاصيل التي تتوسع مجدولين في سردها، لذة في داخلها لا توصف، فكانت تختزل كل شيء في ذهنها، وحين ينفض الجمع، وتعود كل واحدة إلى شقتها، تضل ماركاريتا تجتر ما استمعت إليه، في تلك الجلسات المطولة، التي تكون فيها مجدولين، راوية وراوية بامتياز... وصّافة بارعة تجيد فن المبالغات، وتلّون الحكايات بالخيال الخصب الذي يكسو الحقيقة بشيء من الزيف، لكنّه مبهج ويثير الإعجاب.

ماركاريتا لم ترحل من قبل خارج ألمانيا، وأبعد مسافة قطعتها بالقطار هي من وإلى برلين.. وكان ذلك حين أزيل سور برلين، ذهبت تتفرج على آثار المَعْلَم الذي كان يفصل بين نظامين، في أوروبا الشرقية

وأوروبا الغربية، أو قل بين الغرب والشرق... كانت لها عمة عاشت الحرب الكونية الثانية وامتد بها العمر حتى سقوط سور برلين، قامت بزيارتها فوجدتها في أرذل العمر لم تعقل من هي زائرتها.

تداولت مارقاريتا، حكايات وقصصًا، وإثارات مجدولين بينها وبين نفسها... طرحت ما قد يكون فيه، من المبالغات وشطحات الخيال.. بقي كثير ممّا استمعت إليه يغري بالتفكير في الرحلة إلى الجنوب... أصبحت السياحة في بلدان الضفة الجنوبية، هاجسا ملحًّا على مارقاريتا... بدأت تحسب المدخرات، الفايض يكفيها بقية حياتها، وجدت في حسابها المصرفي مبلغا كبيرا من المال- لمن تبقيه هذا المال، علاوة على معاشها الشهري التقاعدي؟! هي لا وارث لها إلا بنت واحدة تزوجت وسافرت منذ أعوام وانقطعت أخبارها، ولا تعلم حتى أين موقعها في هذا العالم، ثم هي بنت غير بارّة بها، فمنذ أن سافرت لم تبعث لها برسالة واحدة، ولا فكرت في زيارتها، وحتى الشقة التي تملكها إذا ماتت- والإنسان يفكر في الموت دائما في عقله الباطن- وإن ما تملكه إذا ماتت سيئول إلى الدولة، إذا لم توص به إلى الجمعيات الخيرية، وكلبها المدلل الذي كانت تنوي أن توصي له بمالها مات، وهو الذي يفكرها دائما بالموت، وإذًا لماذا لا تسافر، فتتفرج على العالم، وعلى الجنوب بالذات، هذا الذي حدثت مجدولين بإخباره،، ووصفته، وما فيه من فرص لتجديد الحياة إن الحياة قصيرة إذا أفنينا أيامها يوما بعد يوم، وفي مكان واحد، ومشاهد متكررة، ونمط عيش لا يعتريه التبديل والتغير، وفي السفر حركة، تجديد

للنشاط والحياة، واكتساب للثقافات، ومعرفة للمجهول والتنقل حياة ونشاط، حتى المياه الراكدة إذا دام ركودها فسدت، وأصابها الأسن.. كانت مارقاريتا تحادث نفسها بهذه الحقائق والمسلمات، وتفكر فعلا في الرحيل- لذلك كانت تستزيد الحديث من صاحبتها مجدولين المجربة، عن السفر والترحال، وتستفسر عن أشياء كثيرة تجهلها، بخصوص السفر والسياحة، وكانت مجدولين تزودها بالمعلومات والنصائح، ولا تبخل كعادتها بالمبالغات لزوم التشويق والإغراء، فهي -مجدولين- تجد في ذلك سعادة غامرة، ومتعة ولذة ولو كانت وهمية، فلا تترك فرصة سانحة، حينما يتحلق حولها صاحباتها العجائز المتقاعدات، في ذلك الركن الذي أصبح من خصوصياتهم في المقهى القريب من محل سكناهم، إلا وبدأت أولا الحديث معهن في الشأن العام، وأحوال الطقس وخلاف ذلك، ثم لا تلبث أن تجرّهم إلى أخبار سياحاتها في العالم، وخاصة في الجنوب، ذلك الذي وجدت فيه مرتعا خصبا، ومجالا لصبواتها المتأخرة، التي فاجأتها قبل الشيخوخة بقليل، واستمرأتها وحرصت عليها، وقد تجاوزها الزمن، فهي الآن في الخامسة والستين، وفرصتها الكبرى ورواق مزاجها حين تبدأ في سرد مغامراتها، والتي أغلبها وهمية، تلك التي عاشتها في الجنوب، وهن مصيغات إليها في انتباه.

مارقاريتا الوحيدة من بين العجائز، صاحبات مجدولين التي كانت تفكر بجدية في السفر والرحلة إلى الجنوب، أما الباقيات فقد ألفن السياحة في أسبانيا، وهي على أطراف الجنوب، ولكن ليس على

الضفة الجنوبية وراء البحر، وليست بخصوصيات الجنوب من الناحية الاجتماعية ونمط الحياة وحتى المناخ، وسافرن أيضا إلى اليونان والجنوب الإيطالي، وهذه بلاد أوروبية تختلف عن الجنوب الذي يعرف بالشرق، تقاليد وعادات وحياة اجتماعية، وثقافة وحتى جغرافيا وتاريخا.

مارقاريتا قررت أخيرا الرحلة إلى الجنوب، قررت أن تهاجر إليه كما تهاجر طيور الشمال، تطلب الدفء والطقس المعتدل، وتهرب من الأجواء الملبدة بالغيوم ثلاثة أرباع السنة، وحقا إن للطيور حاسة خاصة تشدها إلى الجنوب فصلي الخريف والشتاء أنها تهاجر كل سنة ثم تعود... لماذا لا تهاجر مارقاريتا هجرة شرعية معاكسة؟ أليس الأمر جديرًا بالتجربة؟ مادام مشروعا وميسورا ومقدورا عليه.

ذات ليلة وقد طار من عينها النوم، جرها الفكر إلى أن تجرب أول سياحة لها إلى الجنوب، عزمت وحزمت أمرها، قررت أن تبدأ من صباح الغد في الاستعداد للسفر هناك وكالات أسفار ترتب رحلات جماعية للسواح خاصة، وفي أوقات معلومة ومبرمجة، لمدد معينة، وبتسهيلات وتخفيضات ودفع ميسر... رحلات تكون فيها الإقامة كاملة ومحجوزة مسبقا.. وكذلك التنقل في البلد المقصود، وزيارة المعالم والآثار وجميع المصروفات الأخرى، يدفع ثمنها أيضا في البلد الأصلي للسائح... جميع الإجراءات والترتيبات تتكفل بها الشركات السياحية التي ترتب هذه الرحلات... الأمر لا يحتاج إلا المبادرة واتخاذ القرار، والتدابير اللازمة.. ثم إلى جلسة خاصة، وعلى انفراد مع مجدولين للتزود ببعض النصائح

والآراء بشأن التعامل مع الآخر في مجتمعات الجنوب... كيفية التصرف، وكيف طباع الآخرين هناك، ثم تطلب منها تزويدها ببعض المعلومات، والإرشادات بخصوص المحاذير من أجل السلامة الشخصية، كي لا تقع في الأخطاء، أو يمارس عليها التدليس، وانخداع، وربما التزوير والابتزاز، وغير ذلك من خبرات وتجارب عاشتها مجدولين، ومن جهة أخرى لتستمع إلى مزيد من أخبار المغامرات التي عاشها مجدولين في بلاد الجنوب.. ذلك الجلسة مع مجدولين تكون على انفراد ودون أن تشاركها الأخريات من العجائز صاحبات مجدولين في الاستماع، لهذا كله طلبت مارقاريتا من مجدولين أن تزورها في شقتها أو تقوم هي بزيارتها على سبيل توطيد العلاقات والصحبة والموانسة أن لا ترى مانعا في ذلك.

قالت مجدولين:

ليس هناك من مانع أن تزوريني، وأن أزورك، أن شئت اليوم أو غدا.

قالت مارقاريتا:

أنا على استعداد لاستقبالك على الساعة الثامنة مساء فمرحبا بك.

استحسنت مجدولين دعوة مرقاريتا للزيارة في بيتها فقد أعفتها من القيام بواجب الخدمة والضيافة، ففي طبعها شيء من البخل وكثير من الكسل، ومن جهة أخرى لا تفضل زيارة الآخرين لها في بيتها لأنها فوضوية، وبيتها غير مرتب، ويفتقر إلى الأثاث الجديد والفاخر، الذي

غالبا ما تهتم به العجائز المتقاعدات، وتفتخر به، وكبيرات السن عادة ما يصرفن فائض دخولهن في تحسين عيشهن بما فيه من تجديد السكن والديكور، وقطع الأثاث، والتحف، واللوحات الزيبتية، وغيرها من مكمّلات التحسين والتزيين، يحسبن ذلك من الاحتفاء بالحياة والتشبث بها، والحياة تنقضي يوما بعد آخر، وما من عزاء لهن إلا هذا النوع من التمتع بالإنفاق وتبذير المال آخذات بنصيبهن من الدنيا، وقد حرمن أنفسهن منه عندما كنا شابات.

قالت مارقريتا:

- كيف هو طعامك في المساء؟ أتفضلين نوعا معينا من الطعام؟

- أنا عادة لا أتناول طعاما ثقيلا في المساء، فقط: شريحة من لحم الخنزير، وقطعة من الخبز الأسمر مع قليل من الزبدة. وكأسا من نبيذ أحمر... وشيء من الخضروات المسلوقة، وقليلا من الفاكهة المطبوخة ليس إلا.

- هذا هو تقريبا طعامي أنا. إلا أنني لا آكل لحم الخنزير وأعوضه بالسمك المشوي.

- والسمك أفضل، إن كان موجودا على أن يكون من أسماك البحر... فأنا أفضل عن كل لحم.

- وما نوع النبيذ الذي تفضلينه؟

- النبيذ الأحمر كما قلت لك، وأفضل الإيطالي أو البرتغالي فهذه

البلاد، كرومها أفضل بفعل تعرضها للشمس أكثر من سائر البلاد الأوروبية، أو ربما تربتها أكثر خصوبة.

- إذا أنا في انتظارك على الثامنة مساء ومرحبا بك ضيفة كريمة.

- نلتقي إن شاء الله في الموعد، قالت مجدولين.

جرى هذا الحوار بين مجدولين ومرقاريتا قبل أن يلتأم جميع العجائز المتقاعدات في المقهى مساء كل يوم عندما وجدت مارقاريتا عرابة المجلس اليومي مجدولين حين بكرت في القدوم إلى المقهى قبل الأخريات، وقد تعمدت ذلك لتنفرد بها فتدعوها لزيارتها في شقتها دون عوامهن.

تقاطر الجميع على المقهى وتحلقن حول مجدولين، بدأ الحديث كالعادة: ثرثرة عامة حول الأوضاع في الحي، وحتى المدينة والبلاد كلها، شمل: أخبار الأقارب والمعارف، الزيجات والانفصال بين المتزوجين، الذي يحدث كثيراً في تلك البلاد وسواها من البلاد الأوربية، بعد ذلك تأتي الوجبة اليومية التي عودتهم بها مجدولين، تلك التي تستعرض فيها أخبار سياحتها في بلاد الجنوب، وما فيها من صبؤات عجائزية بعضها حدث فعلا، والبعض الآخر أوهاما ومحض خيال، أوهام تتلبس مجدولين في غمرة حماسها، وهي تسرد الأخبار، وتختلق الحكايات، مستغلة انبهار المجموعة حولها بما تقول، أو على الأصح بما تكذب، من أجل أن تكون لها مكانة بينهن يحسدنها عليها، هكذا هم بعض

الناس يحب أن يراهم الآخرون متميزين ولو لم يكن لهم شيء من التفرد بميزات خاصة أو مواهب ظاهرة عن غيرهم... يحيطون أنفسهم بهالة كاذبة ولو كانت في خيالهم فقط.

قالت سيزى:

وهي تشك دائماً ولا تصدق مجدولين فيما تروى من قصص وأخبار عن الجنوب... بماذا تتحفين اليوم يا مجدولين من أخبار؟

- ويا لها من أخبار لازلت أذكرها كأنها حدثت البارحة.

- والذكرى سلوى إذا كانت سارة، قالت كاترين.

- وأي سلوى، إنها اجترار للسعادة والبهجة، وإن مضت مع الأيام لكن طعمها الحلو لا يزال على طرف اللسان.

قالت ميرى: وهي تغمز صاحبة لها متفقة معها على أن أخبار مجدولين معظمها كذب واختلاق - يا ليتنا كنا معك تعنى لنكون شاهدين على كذبك.

مارقاريتا تقول:

- أنا شخصيا تمنيت أنى كنت مع مجدولين في بلاد الجنوب.

قالت مجدولين:

إذا فكرت في السفر أعلميني ... ربما سافرت معك أو على الأقل زودتك بنصائح وتوجيهات.

- كاترين: نحن كلنا أصبحنا نفكر في السفر.

- ميرى: لعله إلى العالم الآخر.

ضحك الجميع من خاطرة ميرى.

قالت مجدولين:

- بل إلى الجنوب ... إلى الفردوس وجنات النعيم.. متنهدّة بصوت سموع.

- ميري: أما أنا فلا أصدق ما تقوله مجدولين... من غير المعقول: عجائز في عمرنا متهالكات ... بينهن وبين القبور خطوات... يعاكسهن شباب في مقتبل العمر، ويدخل معهن في مغامرات عاطفية... لماذا؟! ألم يكن في البلاد صبايا في عمر الورود يعاشرونهن كما نرى هنا في هذه البلاد، أو يتزوجوهن؟ ... هل الأمور معكوسة في الجنوب عن الشمال أم ماذا في الأمر؟

- مارقاريتا: لابد في الأمر سر ما.

- مجدولين: وأنا أعرف السر.

- قالت ميرى:

- ما هو ثقِّفينا تنالين أجرا.

- مجدولين: سر أسبابه متعددة.

مارقاريتا تقول:

- أنا أول من يستفيد منه لقد قررت السفر إلى هناك إلى الجنوب.

قالت مجدولين:

- وسأكون مستشارك الأمين.

- ميري: والخبير طبعا.

قالت أخرى في المجلس:

- وأنا ربما رافقت مارقاريتا.

- ميري: إنها العدوى تسري بين الجميع.

- مجدولين: وليس في ذلك من حرج ... ستجدن ما يسركُنَّ.

قالت مارقاريتا:

- لكن لم تطلعينا على السر يا مجدولين.

مجدولين تقول:

- أنتن تعرفن جميعاً، أن أغلب بلدان الجنوب أقل حظًا في الموارد الاقتصادية، من بلاد الشمال، وفي العلوم الحديثة والخبرات والتقنية أيضاً... النسبة غير النسبة ولهذا أثره في دخل الفرد، ونسبة النمو، بمعنى ...

- كاترين: بمعنى أن الشمال متقدمٌ جداً عن الجنوب، اقتصاديا واجتماعيّاً، وربما ثقافة وعلما، وبمعنى آخر: هناك الفقر والتأخر بين أفراد الشعوب في الجنوب، وحتى الثقافة والتحصيل العلمي، نتيجة

قلة الموارد التي تحرك الرواج الاقتصادي وتخلق فرص العمل للشباب.

- مجدولين: هذا ما أعنيه، وكنت أريد قوله بالضبط، زد على ذلك أن الشباب هناك طموح جدا، ونشطا، وشعلة من الذكاء، ونسبته عالية بين السكان، ولو وجد الفرص التي تمكنه من التعليم في ظروف تلائم تطلعاته وطموحه، لفاق الآخرين في التحصيل العلمي، والإنجازات العصرية، والاختراعات هذا ما لمسته هناك في الجنوب عند الكثيرين من الشباب.

- كاترين... وهي تشاكسها دايما وتشك في صدقها فيما تقص عليهن من قصص... وهل صفرت بشباب كانت لك معه مغامرة ما؟

- حدث كثيرا، وأضافت لكن أفضل الكهول القريبين من سني، فجانبهم دائماً مأمونان أكثر من الشباب ؟؟؟.

- كاترين: قولي المسنين مثلنا... أين نحن من الكهولة وقد تجاوزنا الستين؟

- قولي مثلك أنتِ... أما أنا ما زلت شابة، ومرغوب في، ولو حدثتك بما في جعبتى كله لهالك الأمر غير أن بعض الخصوصيات من الأسرار.

- هل علمتهم أم تعلمت منهم فن الحب؟!

- أنا مدرسة في هذا المجال، وما الشباب؟؟ إلا تلاميذ صغارا يتعلمون.

- وماذا عن الكهول؟

- هم تلاميذ نجباء؟

مارقاريتا:

لقد ذهب بنا الحديث مذهبًا آخر كنا في تقييم حال الجنوب من الناحية الاقتصادية، والاجتماعية، وظروف الشباب هناك من نواحٍ كثيرة، فإذا بكن خرجتن عن الموضوع.

- مجدولين مازال هو موضوعنا ... قلت لكن الشباب في الجنوب طموح ونشط وذكي، ويبحث عن فرص مواتية للانطلاق نحو تحقيق النجاح والإبداع، فقط الفقر يكبله بالقيود، ويشده إلى الوراء، ويثبط همته وعزمه، وهذا السبب: هو السر الذي قلت لكم يجعله يطارد الأوربيات السائحات العجائز الكبيرات بالسن ويعقد معهن صفقات الغرام.

- كاترين: صفقات متبادلة بالطبع.... وهل فيها من غبن لأحد؟!

- الكل رابح... هن يجدن: غاية مفقودة، ربما من سنوات وهم الشباب يحصلون على مكاسب مادية في شكل هدايا: كالساعات والملابس، وعلب السجائر، ومصاريف أخرى في السهرات، وحتى نقودا يصلحون بها حالهم، والأهم عندهم دعوتهم للإقامة في الشمال مع صديقاتهم، من أجل مستقبل أفضل. وذلك بالعمل حيث الأجور مجزية، أو لمواصلة الدراسة للحصول على شهادات عليا تكون مطمح بعضهم من ذوي الهمم العالية.

- كاترين: قلت صاحباتهم العجائز، هل هذا معقول؟!

- أنت العجوز.. لا تريدين أن تنزعي عنك هذه الصفة أما أنا ومارقاريتا... ونظرت إلى ميري، وحتى ميري فما زلنا في عز نضوجنا المتأخر إن صح هذا القول.

- وتطمعن في الشباب المقبل على الحياة، وأنتم مدبرات؟!

- أنت لا يروق لك إلا الجدال، الذي لا طائل منه، وتعشقين العجز لك ما تبغين، ونحن منك براء... نحن مازلنا شابات، وإن أنكرت عنا هذا.

- بعد التقاعد والمعاش؟!! من يصدق هذا؟! أنتن في الحقيقة متشبثات بالحياة الغاربة، ومن تقول غير هذا فهي واهمة.

- مارقاريتا: دعونا من هذا الجدل العقيم... يجب أن نقضى أيامنا في سعادة ودون منغصات أليست الآمال: أمانى ربّما تحققها الأيام؟

- مجدولين: ذلك الذي ليس له همة ... يركن إلى العجز، ولا ينشط للحياة.

- كاترين: وله طيش.

- ليس في اغتراف متع الحياة، عندما تجود بها الفرص، من طيش، بل هو عين العقل والصواب.

- والسن أليس لها احترام وأحكام؟ للأعمار مقامات والعاقل من عرف مقامه وقدره.

- مارقاريتا: عدنا إلى الجدل مرة أخرى... بالله عليك يا كاترين وفري عليك فلسفتك، ودعينا وشأننا نحن من حزب مجدولين.

- هو حزب ضال... ومتصابئ يطمع فيما ليس له.

- مجدولين هذا في تقديرك.... والحقيقية أننا كلنا ما عداك نعيش الواقع ولا نكابر... نحب الحياة... أليست الحياة كما يقولون تبدأ بعد الستين؟؟

- أي ستين هذه التي تتحدثين عنها؟ وأنت بالذات محالة على المعاش منذ خمس سنوات... من هو المكابر إذًا قالت كاترين.

- ولكن أشعر بنشاط وحيوية، لا تجدينها عند من في سن الثلاثين.

- لعلّ الشاب الذي حدثتينا عنه في رحلتك الأخيرة بعث فيك الحياة من جديد.

- وهل حدثتكم عن تجربة جديدة مع شاب عدا مبروك الذي قالت إنه كهل بقاربها في السن؟ أنا لم أسمع بهذه الحكاية قالت: ميري.

- كاترين: هي حدثتنا عن شباب، وليس عن شاب واحد... إذا كانت صادقة وعن تجارب ومغامرات كما قالت، لم نجربها حتى عندما كنا صبايا في أعمار الورود.

- ميرى تسأل: حقا ما تقوله كاترين؟ أو هي تمزح كعادتها؟!

- مجدولين: هي لا تصدقني دائماً ... تشك في كلامي... وربما

تستكثر عليَّ سعادة ضفرت بها دونها... إنه الحسد.

- ميري: اللهم لا حسد... الحسد نار تأكل نفسها إن لم تجد ما تأكله .... نار تحرق وتحترق.

- كاترين تتراجع عن مناكفتها لمجدولين ربما لتستزيدها مزيداً من الأخبار، حتى وإن كانت كاذبة، فهي مسلية على كل حال، والجالسات كلّهن يرغبن في ذلك... تقول: مخاطبة مجدولين... تجربتك الأخيرة أو صبوتك مع ذلك الشاب الثلاثيني- فيها شيء من الطرافة، حتى وأن كان البعض لا يصدقها.

قالت مارقاريتا:

ولماذا لا يصدقها البعض؟! هي تجربة عاشتها من ألفها إلى يائها، طولا وعرضا، كما حدثتنا، وقد استمعنا إلى أمثالها، حدثت مع أخريات ذهبن إلى الجنوب، فلماذا مجدولين لا تكون صادقة فيما قالت؟!

- كاترين: أنا قلت: ربما تكون صادقة على كل حال أغلبكن لم يستمع إلى هذه الحكاية- لقد أخبرتنا بها قبل أن تلتحق بمجلسنا ميرى و مارقاريتا، ونطلب منها باسمكن إعادتها على مسامعنا... لو سمحت بذلك.

- لن أسمح بذلك، ولن أحكى لكن مرة أخرى عن شيء، قالت مجدولين.

قالت كاترين:

- لا تغضبي يا مجدولين أنت عرَّابة المجلس ومحدثته... بل أنت

ملحه الذي لا يستصاغ بدونه.

- وأنت لا تصدقيني فيما أقول- وتشكين في كل شيء، وتناكفين.

- لا أنت محدثة لبقة... وعندك تخريجات متقنة، يغذيها خيال خصب.

- عدنا إلى التشكيك مرة أخرى.

- هذه هي الحقيقة... أنت بارعة في كل شيء.

- كلام مبطن لا أعلم هل هو مدح أم ذم.

- دعينا من هذا كلّه، وحدثي الجماعة بحكايتك مع الشاب في سياحتك الأخيرة- هن لم يستمعن إلى هذه الحكاية المسلية.

- قالت ميرى: حقا إن حكايات مجدولين جد مسلية.... إنها سلوتنا التي تذكرنا بأيام غابرات، وفي الذكرى اجترار عما في حياة الشباب من سعادة ذهبت بها الأيام.

- قالت كاترين: وخلّفت مسرات لا تجبرها حياة الوحدة والعجز.

- مارقاريتا: لا يحلو لك أنت يا كاترين، إلا أن تعودي بنا إلى المنغصات تذكرينا بها، ونحن نحاول نسيانها.

- أنا لا أهرب من الواقع الماثل أمام العين، ومن الإحساس به.

- وتبتعدي بنا عما يكون لنا فيه سلوى من حكايات مجدولين-

عفي عنا يرحمك الله قالت ميرى.

- لن أتكلم مرة أخرى- إذا تكرمت مجدولين وقصت القصة أنا شخصيا أحب سماعها، وأطلب منها العفو عما بدر مني.

- قالت مجدولين:

- لكنك لا تلبثي أن تعودي إلى عادتك بالمقاطعة والتعليق هذا إذا لم يكن تشكيك فيما أقول أنا لا آمن جانبك.

- ميري: أنا كافلة لها: لا تقاطع ولا تعلق، ولا تشكك.

قالت مجدولين:

إيه تلك حكاية- بعض من استمع إليها قال: إنها لا تحدث إلاّ في الخيال، لكنها حدثت فعلا، ومعي أنا بالذات، ولا زلت حين أذكرها استغرب كيف حدثت... كانت تستثير انتباه السامعات، وتشويقهن إلى إحدي مغامراتها، والتي ربما كانت أمنية تمنتها فقط.

- مارقاريتا: سكوت... نحن كلنا آذان صاغية يا مجدولين.

- هو شاب في الثلاثين من عمره- كان لا يتجاوز العشرين لكنها زادت له في عمره، ليناسب على الأقل نصف عمرها، وفي الحقيقة هو في عمر حفيدها إن كان لها حفيد في يوم من الأيام- قالت: كان شعره أسود مسبسب، واسع العينين، حلو التقاطيع، ربع القد، خفيف الدم، مبتسم جرئ يقتحم بحضوره الشخصي، من يتحدث معه في لحظات ... فاجأني حين كنت أسير مع رفيقة لي من الدغرك، كانت من أفراد جماعتنا

(الجـروب)، كنا في شارع شعبي يعج بالمارة والمتسوقين، على جانبيه حوانيت تبيع التوابع والعطور العضوية التقليدية وبعض الهدايا للسواح..

- ميري: كيف تعرفت عليه؟!

- واجهنا في اتجاه معاكس وحياني بصورة خاصة كأنه يقصدني وحدي، أو بالأحرى يصطادني: رديت تحيته بأدب جم وشجعته بابتسامة للحديث معي أن أراد.

قال:

هل لي أن أرافقكما للمؤانسة والمساعدة في شيء ما، وحتى لا يضايقكم الباعة من الأطفال الصغار الذين يلحون في عرض أشياءهم للبيع.. وسأكون لكما رفيقاً أميناً.

- قلت: لا بأس أن لم يقلقك ذلك.

- قال:

بكل سرور- أتطوع لخدمتكما كيفما شئتم، وأنا في الخدمة حتى تعودا إلى الفندق في أمن وسلام.

كان يتكلم الألمانية بلكنته المحلية، ولا يحيط بكل المفردات، فهو قد تعلم لغة الحياة العامة من السواح الألمان، فلغته خليط من لغة المثقفين ولغة العامة، لكنه يتقن الفرنسية كتابة ومحادثة، فهو قد تلقى بها دروسه في المرحلة الابتدائية، وحتى الثانوية، ثم واصل تعليمه الجامعي متخصصا في التاريخ الفرنسي الحديث... كان شعلة من ذكاء... نشط

خفيف الحركة، قوي الملاحظة، مبادرا دائما، فطن سريع الخاطر... مؤهلات كلها تغري بالمغامرة معه إلى أبعد الحدود.

- كاترين: كيف كانت استجابته هو؟

- كان مستجيباً إلى أبعد حد لذلك قررت بيني وبين نفس أن أضفر به دون صاحبتي، التي كانت لا تعرف إلا لغتها المحلية، وقليلاً من الألمانية، وهذه خدمتني بها الظروف، فأنا أتقن الفرنسية، لذلك قررت أن أحادثه بها لأقطع خط الرجعة عليه وعلى صاحبتي، التي في الحقيقة كانت تصغرني بسنوات، وكانت في ذلك المساء تتألق في لباسها ولا أنكر أنها كانت جميلة.

مارقاريتا: ولماذا مال إليك أنتِ بالذات؟

- هو الحذق ... الجرأة واللباقة، والفطنة والذكاء، تنوب عن مؤهلات كثيرة.

- كاترين: هذا قول حق صدقت في هذا.

- نظرت إليها مجدولين نظرة ذات معنى، ثم غضت الطرف... واصلت الكلام قالت:

كنا نسير في ممر ضيق تباع فيه عقود الورود البيضاء ذات الرائحة النفاذة... اشترى عقدين... قدم واحدا إليّ وآخر إلى رفيقتي طبعا على سبيل المجاملة... لكنه كان يقصدني بالهدية كما فهمت حين قدم لي العقد، أنا الأولى وتبسّم في وجهي، ثم قدم لصاحبتي عقدها باحترام،

ووجهه خالي من أي تعبير عدا المجاملة والتقدير.

قلنا له معا: شكراً على هذه الهدية التي ستضل ذكرى جميلة في حياتنا.

- قال:

هو الورد- أعتقد- أجمل ما يهدى... جمال اللون وطيب الرائحة، وقد اخترته عقدا بزيّن الرقبة، ينعش الأنفاس، ويلفت الأنظار.

- قلت: نعم الاختيار... وحسن الذوق... وظرف الهدية.

قالت صاحبتي بلغتها:

- إنها هدية جميلة حقّاً - وسأذكر عطرها ومنظرها الحلو.

- ترجمت له ما قالت، لأنه لا يتكلم الدنماركية... شكرها وانصرف إلى يكلمني بالألمانية، لكني مرة أخرى قررت قطع الرجعة، فهي تفهم شيئاً من اللغة الألمانية، واستأثرت وإياه دونها نتحدث بالفرنسية - قلت وقد جاءتني جرأة غير متوقعة: أين تسهر الليلة؟

قال وكأنه فاجأه سؤالي:

لم أقرر بعد ... ثم مستدركا بفطنته: سؤالي الغير متوقع: ربما ذهبت إلى فندق مجاور للفندق الذي أنتم فيه، فقد علمت أن جماعة من السواح الفرنسيين سينزلون فيه الليلة، في طريقهم إلى مدينة أخرى، في شرق البلاد، وفي هذه الجماعة سيدة تعرفت عليها السنة الماضية بمناسبة رأس السنة... سيدة لطيفة أردت أن أحيّيها.

شعرت بغيرة، ونوع من الإحباط ... سألته وقد تغيرت سحنتي في

شيء من الضيق، وهل لابد أن تحييها الليلة؟ أضفت: هل هي جميلة؟

- هي سيدة طيبة ولطيفة، وتحيتها واجب... وهل في تحيتها من ضير؟

- شعرت كأنه يثير غيرتي ... قلت أحسم الأمر ولا أترك له فرصة للتعلل بشيء أو الاعتراض: أنت الليلة ضيفي على سهرة يقيمها الفندق بمناسبة قدوم مجموعتنا، لأول مرة، وغدا صباحا حييها كما تشاء، وأظهرت بعض الغضب.

قال يطيب خاطري، أو ربما يخاتلنى فهو كما قدرت ساعتها: ذكي بامتياز، رغم حداثة معرفتي به التي لم تتعد الساعتين سيراً على الأقدام في ذلك السوق.

قال: لا بأس سأذهب إليها صباحاً.... وأقبل دعوتك للسهرة.

- أشعل غيرتي مرة أخرى، عندما قال: سأذهب إليها صباحاً قلت: وهل لا بد أن تذهب إليها صباحا، وأنت الليلة ستسهر إلى وقت متأخر من الليل.. .. حييها مرة أخره أن كان لابد من تحيتها.

- قال متى؟ .... عندما تسافر؟ أنا لا أعلم متى تسافر.

- وأنا لا أفهم لماذا هذا الإصرار على تحيتها؟ ..... لا تحييها.

- تبسم ورفع في عينين واسعتين ذات أهداب كأنها رموش صناعية وقال:

لقد أهملنا صاحبتك .... بحديثنا الذي لا تفهمه، وهذا لا يليق.

- لعلك تريدها أن تكون صاحبتك هي أيضاً؟ وترغب في تحيتها

صباحاً ومساء.

- قال: وقد عرف اسمي حين كانت صاحبتي تستشيرني في بعض المشتريات حين كنا في السوق.

مجدولين هل هذه غيرة، ونحن ما زلنا لم نعرف بعضنا عن قرب؟ وأنت سيدة ناضجة ومحترمة وجميلة أيضا.... وأنا شاب ربما تقولين عني: غر ... أين أنا وأين أنت؟ أين الثري من الثريّا... قلت إنه ذكي، وظهر لي الآن أنه صياد ومراوغ، لم أتبين قصده، حين قال أين الثري من الثريّا... يمدحنى أم يذمني؟، من هو المقصود بالمعنى الأول والثاني: أنا أم هو؟

قلت:

- أنا لا أغير من أحد ... لكن أريد أن يكون ظيفي مرتاح البال من كل شيء لا تشغله مشاغل أخرى، قد تفسد عليه سهرة أتوقع أن تكون مبهجة.

قال:

- أنا حاضر وكما تريدين ... سأكلمها بالتليفون أعتذر لها بسبب من الأسباب، وأعرف منها تاريخ عودتها لأزورها وأحييها.

- قلت لكن أنه: مراوغ ختّال، شديد الذكاء والحيلة، لا يجد فرصة إلا وأشعل في نار الغيرة... قلت له:

- أنت لا تكلمها ولا تعتذر لها،ولا تحييها، ولا تذكرها مرة أخرى على لسانك... وبان على الغضب واضحاً جليّاً وقطبت جبينى .

قال مبتسما:

- هذا لا يليق بك... الغضب يفسد جمال المرأة ويعطيها عمرًا أكبر من عمرها... عودي مجدولين، كما كنت جميلة رائقة، وأعدك لن أكلمها، ولا أعتذر لها، ولا أحييها... الأمر أمرك، وأعتذر لك إذا سببت لك إزعاجاً.

طرحت وجهي وابتسمت فرحاً، وهجمت عليه أقبله في الشارع... نسيت نفسي، أنني في بلاد الجنوب، أدركت غلطتي حين ظهر عليه الارتباك فأخذ يلتفت إلى الناس، ويتحاش هجومي الشرس... شعرت بموقفه المحرج فتوقفت عما كنت فيه من شعور غامر بالفرح، حين نزل عن رغبتي، وأنحاز إليّ دون صاحبته الفرنسية- في الحقيقة "اعترتنى رعونة وطيش مفاجئ كأنني فتاة في عمره... غطت على صاحبتي فأخذتني من يدي تنبهنى وهي تشير إلى نظرات الناس الفضولية وقد استمعت إلى تصفيرة حادة من فتى قريب، كان يبيع عقود الورد، يتبعها بكلمة بلغته لم أفهم معناها لكنها قطعاً كانت كلمة استهجان لما كنت أفعله مع الشاب، الذي حاول أن يلفق موقفاً ما يبدد به سوء ضن الفضوليين، فسار بنا في شارع جانبي مبتعدا عن المكان الذي كنا فيه، وهو يغالب شعوره بالحرج، ثم ينفجر ضاحكا قائلاً لي:

- أنت لست في همبرق، يا مجدولين... هنا الناس يستهجنون هذا الفعل، ويعتبرونه خارجا عن الآداب العامة، وأنت تجهلين هذا

ومعك حق... لا تفعلي هذا مرة أخرى في الشارع... هيا بنا نتوارى عن الناس، ولك في السهرة وما بعدها نصيب في ما ترغبين. قالت: صاحبتي الدنمركية، وقد شعرت بموقف الشاب الذي أحرجته أمام الناس. لا تواخذها على هذا السلوك الذي هو غير معتاد عندكم، فهي لا تحسب هذا فعلا مشينا في مجتمعكم فصاحبتي تصرفت كأنها في شارع من شوارع همبرق.

قلت:

- لا بأس من ناحيتها ولها عذرها، هي نسيت نفسها أين تكون وقد استدركنا الموقف، فتحولنا بسرعة، والآن لنذهب إلى الفندق، خاطبني وهو يضحك ويمسك بيدي، يدفعني للسير في طريق الفندق. ذهبنا إلى الفندق سيرا على الأقدام، فالمسافة غير بعيدة، وما زال أمامنا متسع من الوقت قبل موعد طعام العشاء. دخلنا إلى البهو الكبير، فانتحينا ركنا منه جيء لنا بالمشروبات بعدها أخذنا مقاعدنا في صالة الطعام، ومنها ذهبنا إلى مكان السهرة في المسرح الصيفي، على شاطئ البحر (البلاج) هناك بدأت الموسيقا التحضيرية على آلة البيانو... كان العازف شيخا إيطاليا، متعاقدا على أحياء السهرات في الفندق والفنادق المجاورة، يتناوب بينها في برنامج معين بعد فترة اعتلى المسرح جوق كامل للعزف على مختلف الآلات، ثم بدأت الموسيقا تدعونا إلى الرقص... رقصة بعد أخرى.

في إحدى الليالي، كنت وإيّاه في غرفتي، عقب السهرة في المسرح الصيفي خارج الفندق... عنَّ لي أن أشاكسه، طرحت عليه سؤلا أنكر فيه سيرة الرجال عموما، أو بعضهم على وجه التحديد.

قلت له:

- أنتم الرجال كالكلاب ... فطن إلى قصدي... رد بسرعة خاطر:

- لكن نمارس تلك العادة مع النساء.

- المرأة لا تعدد الرجال، ولا تستبدلهم كما تستبدل فساتينها.

- لأن المجتمع يتسامح مع الرجال... وينكر ذلك على النساء.

- ومن قال لك أن المجتمع منصف؟ ... وأنتم الرجال من جهة أخرى تبذرون المال على النساء، وهذه نقيصة ثانية.

- لأن المرأة تحب الهدية.

- المرأة الشريفة تقبل الهدية، وترفض المال ثمنا لها كالمؤمس.

- المؤمسات لابد منهن للعابرين.

قلت له:

- أريد أن أسالك سؤالا آخر على أن تجيبني بصراحة وصدق.

- إذا لم يكن في سؤالك تعجيز.

- أريد أن أعرف منك... كيف هي المرأة الناضجة من الفتاة الصغيرة؟

- النساء ثلاثة أصناف: شابة، وناضجة، ومسنّة.

- كيف هن؟!

- الفتاة الشابة لها ميزاتها التي ليس عند غيرها ممن ذكرت... والناضجة لها خبراتها الواسعة في فن الحب.. والمسنة رومانسية وكريمة وقنوعة، وكلهن نساء على اختلاف أمزجة الرجال.

- قلت: وقد شعرت أنه أنصفني، أو جاملني لا أدري: أنت قلت الحق. أضفت: كيف أنا بصراحة مطلقة.

- أنت فيك الميزات الثلاثة، ومسحنى بنظرة من عينيه الواسعتين وابتسم، وضل ينتظر ردة فعلي.

خفضت نظري في حالة رضاء وزهو... كان حاذقاً لبقاً حاد الذكاء، يتخلص من المواقف المحرجة بالبداهة وسرعة الخاطر... قلت في خاطري ربما أحرجته فلم يكن له بدّاً من ذلك القول، أو هو يكافئني على ما قدمت له من فضل... في الحقيقة كنت قد أغدقت عليه كثيراً لم يكن طماعاً في يوم من الأيام، ولا مبتزّاً، ولا مستغلا كنت أصرف عليه وعلى نفسي بسخاء دون أن يطلب مني ذلك أو يضطرني إليه.

ذات ليلة مقمرة كنت وإياه نجلس في (التراس)، الملحق بالغرفة نتنسم هواء الربيع العليل، وقد لاحظت عليه ، يريد أن يصرح لي بشيء لكنه يكابر كما قدّرت.

قلت:

- أراك مهموما قليلاً كما يبدو لي، إن لم أكن واهمة... ألا خبّرتني

عما في نفسك أو على الأصح ما يحزنك؟

قال:

- هذا صحيح.... هناك شيء يؤرقني... هي حاجة لا أعتقد أنك بقادرة عليها، أو بالأحرى هي ليست في بلادك حتى تقضيها لي.

- قل ما هي حاجتك يا حبيبي ... ربما تكون سهلة ميسورة، وفي قدرتي أن أقضيها لك حتى لو لم تكن في بلادي أنت تعرف أنني لا أقصر في حاجة تهمك.

- قال: أن حاجتى في فرنسا، لذلك قلت لك إنها ليس في مقدورك.

قلت له: يا حبيبي من قال لك إنني غير قادرة على تذليل الصعاب في سبيلك حتى لو كانت في فرنسا أو في غيرها... أنا لي أصدقاء ومعارف وحتى أقارب يعيشون في فرنسا، والمصالح بيننا متبادلة، هم في أغلب المدن الكبرى، وخاصة في باريس، وطولوز ومرسيليا وليون، وغيرها... قل لي ما هي حاجتك، واترك لي كل شيء.

- حاجتي تتمثل في انتقالي إلى إحدى تلك المدن التي ذكرتها أو غيرها، وبصورة شرعية، لغرض الالتحاق بإحدى الجامعات حتى أنهي أطروقه الدكتوراه في: تخصّص التاريخ الفرنسي الحديث، وأنا عندما تكون في حوزتي أوراق رسمية بالإقامة في فرنسا مستعدا للعمل في أية مهنة من أجل معيشتي، على أن أدرس في وقت الفراغ من العمل،

هذه خدمة لو أجد من يقدمها لي سأضل ممتناً له طول العمر؟ إنها أمنية لو تحققت لي لكنت أسعد الناس.

- قلت: ستكون أسعد الناس، وسأعمل على أن تتحقق لك هذه الأمنية أنت شاب طموح تطلب المعالي، وأنت جدير بها.

قال فرحاً:

- كيف أنا غير مصدق... إنه حلم.

- حلم سيتحقق إنشاء الله... وعليك أن تصدق... فليس في الدنيا شيء مستحيل إذا توفر العزم والهمة، وأنت ذو همة وهمة عالية وطموحك لا تحده حدود... طموحك ممدوح، وسأبذل جهدي لا ساعدك..... كن مطمئناً. ساعتها رأيت في وجه الشاب علامات الفرح واضحة جلية، كما لم أرها فيه من قبل.... شعرت في نفس الوقت ببوارق الأمل التي داعبت خاطره، حين غمره الفرح، وأخذ يردد: سوف لن أنسى لك هذا الجميل ما حييت... وشكرا شكرا كثيرا، وجازاك الله خيرًا، ويكفيني مشاركتك الوجدانية لي... واهتمامك بشأن مستقبلي الذي أصبو إليه طمأنته على أن أبذل كل الجهد في سبيل تحقيق هدفه السامي، الذي لاحظت أنه منتهى آماله.

قال:

ألا يكلفك هذا عنتا ومشقّة؟ وربما سفرا واتصالات، وهذا له مصاريفه، وتعبا ما؟

- وكيف تكون الصداقة والصحبة والأيام السعيدة التي قضيناها معاً؟! إن لم تكن فيها مؤازرة وتكاتفاً بيننا وحتى تضحيات، والأمر ميسورا بالنسبة لي، ولا يكلف شيئا يذكر.

- كيف أريد أن أعرف؟ ليطمئن قلبي، قالها وهو يرنو إلّي بفرح.

- قلت لك من قبل: لي معارفي وأقربائي وكذلك أصدقاء في فرنسا، وسأدبر الإقامة والأوراق المطلوبة عن طريقهم، وأيضاً القبول في إحدى الجامعات... ولا تشغل نفسك بهذا. ولك أن تعتبر نفسك من الدارسين هناك، وفي التخصص الذي ترغبه، كن على يقين، كما أنا أيضاً على يقين من أنك ستحصل على الشهادات العليا التي تليق بطموحك.

قال: أعدك بأنني سأكون من الدارسين الجادين، ولن أخيب ضنك في أضاف لن أنسي لك هذا الجميل... متى تزفين لي هذه البشرى السعيدة... أنت طبعا عائدة إلى بلادك بعد أسبوع، وستكون لك مشاغلك الخاصة، والدراسة كما تعلمين على الأبواب في أوربا.

قلت له:

هذا ما أفكر فيه وعلّي أن أجرى بعض الاتصالات من هنا، وقبل أن أغادر آملة أن أكون قد نجحت في مهمتي... ثم تذكرت، أو وسوس لي الشيطان يحرك غيرتي من صاحبته الفرنسية، التي كان ينوي الذهاب إليها لتحيتها، وكنت قد تحايلت عليه أو على الأصح طلبت منه- كنت أنانية في طلبي- عدم الذهاب إليها، ولا يكلمها حتى لمجرد الاعتذار، التفت إليه فجأة.

قلت:

- هل تحدثت مع صاحبتك الفرنسية من قبل في هذا الشأن؟

- فعلت أكثر من مرة، وعدتني .. لكن لم تفلح، ولم تثمر وعودها، وأخيراً عرفت أنها غير مهتمة بالموضوع، أو هي بعيدة كل البعد عن هذا المجال، ومعرفتها محدودة، في العلم والثقافة.... هي مجرد امرأة بسيطة تقوم بأعمال حرة، تشغلها عن كل شي، ولا تفكر في غيرها أو تهتم بأمر آخر.

- في ماذا تعمل؟

- قالت: إنها تملك مطعماً شعبيّاً يقدم الوجبات السريعة في أحد الأحياء.

- لكنها قادرة على الأقل أن تستخرج لك أوراق الإقامة، لتتمكن من الدراسة، أو حتى العمل في فرنسا.

- لما تكلمت معها في هذا الموضوع اشترطت على شرطا.

- ماذا اشترطت؟

- طلبت أن يكون ذلك مقابل الزواج بها.

- ولماذا لا تتزوجها؟

- لأن في شرطها نوعاً من الإكراه والابتزاز .... نحن هنا في الجنوب تأبي نفوسنا: مثل تلك المساومات الرخيصة.

- أو ربما لأنها مسنّة .... كم عمرها؟

- أعتقد أنها: تكبرك بسنوات، أخف على عمرها الذي يعرفه حق المعرفة.

قلت:

- المسألة ليست مسألة عمر.... التوافق والانسجام هو كل شيء في الموضوع.

- قال: قلت الصواب... وأرى أن العشرة الطيبة تخلق هذا التوافق والانسجام، والمسألة ليست مسألة أعمار كما قلت... ربما شعر بحساسية موقفي فأراد أن يطرد هاجسا راود خاطرى- وأنا فعلا طاف بخاطري هذا التفكير.

مازلنا في جلستنا تلك في ذلك التراس، والقمر بدأ يتوسط السماء، النجوم ساطعة على مسافات بعيدة من القمر في مدارات قدرها العلم بمئات السنين الضوئية، ونسمات الجو عليلة باردة... الشراب يدور بيننا، نتبادل السجائر في انسجام تام.

عدت مرة أخرى إلى صاحبته، وكأنها قضية تشغل بالي، ويلح على خاطري أن أحركها بين الحين والآخر، قلت:

- كيف أقنعتها أن تكف عن طلب الزواج منك، نظير ذلك الشرط الذي تراه هي غير معيب.

- قلت من قبل نحن لا نساوم على كرامتنا، وفي عرفنا الرجل هو الذي يطلب المرأة وليس العكس... المرأة عندنا لها مكانتها وكرامتها،

هي شيء ثمين، ومقدس لها كل اعتبار وتقدير واحترام، المرأة غالية، لا تنزل عن مكانتها، وقدرها محفوظ، وعرضها مصان.

- إنكم تقدرون المرأة حق قدرها، تجلونها، وتحفظون لها قدرها واحترامها، هي عندكم مبجلة ومحتفى بها، وكرامتها محفوظة، إلا أنه: يعاب عليكم مصادرتكم لحريتها.

- من قال بهذا؟ المرأة عندنا مصانة الكرامة والحرية، والدين عندنا رسم حدودًا، كما للرجل أيضاً حدوده، فرض لها الإرث، وأوصى بها خيرا، وفرض البر بها على الأبناء والطاعة، إلا في معصية الله، هي حرّة في مالها ونفسها عدا ما لا يرضاه الشرع، هي حرة بما تحمل الكلمة من معنى، ليس حرية التفسخ والانحلال، والتصرف إشباعا لأهوائها ورغباتها.... الدين وضع لها ضوابط ومنهاجا تسير بموجبه في الحياة، هي عندنا ربة البيت، وحاضنة الأسرة، ومدرسة الأبناء الأولى.

- قرأت إنها لا تسافر بمفردها، ولا تخرج من البيت، وليس لها حرية أن تلبس ما تشاء، أو تفعل ما تشاء.

- بالنسبة للباس مشروطا في الدين بشكل ووضعية خاصة، هي: تلبس الحرير والذهب، وتتزين لزوجها، لا تعرض نفسها على الغرباء في تبرج سافر، أما أن تفعل ما تشاء فهذا مضبوط بالعفة والخلق الكريم، أما عن السفر فهي تسافر رفقة زوجها أو ابنها أو أخيها وأي محرم آخر.. والمرأة عندنا تشارك في الجهاد وتدفع العدو عن الوطن حين

يتعرض للخطر، والمرأة الآن تتقلد الوظائف العامة: قاضية ومحامية، وتمتهن الطب والهندسة، معلمة وأستاذة في الجامعات.

- لم تكن في ثقافتي هذه المعلومات يظهر أنه ليس كل ما يقرأ هو الصدق، فإذا كانت المرأة عندكم كما تقول، فهي أحسن حالاً مما عندنا في الغرب.

- هي أحسن حالا لاشك، خاصة في الحرية الاجتماعية، المرأة عندكم في الغرب لها هامش كبير من الحرية الشخصية، تبيح لها أن تفعل ما تشاء، وهذا أعتقد هو من أسباب الانفصال بين الأزواج، وبالتالي: التفسخ والانحلال، حتى أصبحت العلاقات الجنسية عندكم في حكم المباح، وأن المرأة لا تتورع أن: تعاشر آخر: جاراً لها، أو صديقاً وزوجها يعلم ذلك، وبالمثل هو يفعل نفس الفعل مع أخريات.

- نعم، وهذا فرق كبير بيننا وبينكم... أنتم محافظون على التقاليد.

- نحن محافظون على الدين أولا، وعلى الأخلاق والقيم، وأعتقد أن هذا منهاج سوى في الحياة.

- أنت تفحمنى دائما... فكرك سليم نير، وتحليلك للأشياء واقعيًّا وصائبا ومنطقيّاً، رغم صغر سنك.

- السن ليست دائماً معيارا لفهم الأمور المتعلقة بالحياة، ولا التدبر، ودراسة الواقع وتحليل القضايا والإشكالات التي تصادفنا في الحياة.

قلت:

- هل تريد أن تنام.

قال:

- أريد أن أسهر على ضوء القمر.
- القمر كاد أن يغيب في الأفق الغربي.
- هل الوقت فجراً؟؟
- الساعة تجاوزت الثالثة بعد منتصف الليل.
- إذا فلنذهب إلى النوم، رغم أن النعاس لم يطرق جفني بعد.
- لندخل إلى الداخل، ولا ننام .... الجو أصبح يبرد.

ضلت مجدولين تسرد حكايتها مع ذلك الشاب الجنوبي الذي هو نموذج لكثير من أمثاله... على أن هناك آخرين يغايرونه تماما، في الصفات والتصرفات... حكت للسامعات المتحلقات حولها في انتباه، عن حياتها مع ذلك الشاب طيلة خمسة عشر يوماً وبالتفصيل حتى الخصوصيَّات لم تحتفظ بها لنفسها، بل جادت بها عليهن باستفاضة، ولونتها بخيالها الخصب، وتوسعت فيها أكثر من ذي قبل، حين حكت لهن عن تجاربها مع آخرين بما فيهم مبروك في سنوات ماضية في الجنوب وبلاد أخرى. كن منصتات بكل حواسهن، كأن على رؤوسهن الطير.... حتى كاترين لم تقاطع أو تعلق كعادتها، بل كانت مطرقة يداعبها إحساس داخلي لذيذ... وحين سكتت مجدولين عن السرد، تنهدت تنهيدة ملفتة للانتباه وقالت: تلك أيامنا عشناها بخيرها

ومسراتها، ومن عاش أيامه عليه أن يفسح المجال لغيره، فالحياة أجيال تعقبها أجيال.

قالت ميري:

نعم جيل يذهب ويعقبه جيل، وتبقى الذكريات السعيدة وها نحن نعيش مع الذكريات، على اختلافها بيننا.

قالت مارقاريتا:

والأليمة، ألا تذكرينها؟! إن مرارتها تبقى دائماً على طرف اللسان.

كاترين تسأل وتعلق:

- هذه الحكاية الطريفة والمسلية التي استمعناها منك الليلة يا مجدولين مع الشاب غطت على ما آل إليه حاله من بعد. لقد وعدته بتذليل الصعوبات في سبيل تحقيق طموحة ورغبته في الدراسة.

قالت مجدولين:

- ذللت له كل الصعاب، وأنجزت كل شيء، كان لي صديق فرنسي أستاذ كبير، يتنقل بين الجامعات الغربية، يلقي المحاضرات كأستاذ زائر لغزارة علمه وشهرته الواسعة في القانون الدولي، اتصلت به، وهو لا يرفض لي طلبا، أوجد له قبولا للدراسة في فرنسا، وفي أرقى وأشهر جامعاتها: في السربون، ومن جهة أخرى، طلبت من قريبة لي تعيش في باريس، وهي سيدة كبيرة بالسن، ولها بيت متسع في حيّ راق... طلبت منها أن يسكن عندها الشاب، يوانسها، ويقضي لها بعض

حاجاتها، هي لم تعد قادرة على الخروج إلى التسوق، ومن جهتي قررت له مصروفًا شهريا حتى لا يضطر للعمل، ويتفرغ للدراسة، لكنه رفض المال، وقبل بالسكن مع قريبتي، نظير أن يقوم بخدمة البيت، بدلا من عاملة نظافة تأتي إليها يومين في الأسبوع.

قالت ميري:

- لا شك أنه شاب مثالي... هذه العفة، وهذا الطموح إنه شيء نادر!!!

قالت كاترين مخاطبة مجدولين:

- وتركته يفلت من حضنك ... أحيانا تكوني غبية رغم حذقك ولباقتك، وقدرتك العجيبة على اصطياد الرجال.

- تركته للعلم... احتضن الكتب والمراجع، نال أرقى الشهادات تحصل على درجة الدكتوراه بامتياز، وذهب يحاضر في الجامعات الأفريقية، وأصبح أستاذًا معروفًا، يكافأ بالمرتبات المجزية وأخبرني: إنه متزوج.

- من جنوبية مثلهّ؟!

- من جنوب الجنوب.

- ماذا تقولين؟

- من أفريقيا السوداء.

- تزوج من سوداء؟!

- لكنها لطيفة وأستاذة في الجامعة مثله ... تعرف عليها في باريس حين كانا زميلين في السربون، وفي نفس التخصص، لقد بعث لي بصورتها، وقال إنه ينتظر مولوده الأول.

- ألا تغيرين منها؟!

- لا أغير من امرأة لا أعرفها، ثم هي من عمره، وصنو له في الثقافة والعلم، وبعيدة عني، ومتزوج بها رسميّاً، أما أنا فكنت عابرة في حياته ولمدة خمسة عشر يوماً.

- ولماذا غرت في السابق من الفرنسية صاحبته قبلك؟

- لأنها كانت في عمري، وكنا نحن الاثنتين متعديات على عمره.

قالت ميرى:

- هذه حقيقة.. الأمور ذا لم تكن طبيعية، وفي سياقها تصبح نشازا، وعاش من عرف قدره.

قالت مجدولين:

- هو مثال نادر.. لقد عرفت غيره من كانوا فى سنه كانوا: اتكاليين كسالى، ليس لهم طموحات ولا همة ولا كرامة، يطاردون العجائز الأوربيات فى المنتجعات السياحية والفنادق، من أجل أن يضفروا بسهرة معهن، وبعض السجائر وكأس من الشراب، ولا شيء عدا ذلك.. وحينها تعود الطيور المهاجرة هجرة مؤقتة: أولئك العجائز العاجزات إلى بلدانهم، يضلون خاملون فى المقاهى على قارعة الطريق،

يعيدون مغامراتهم مع نساء غربت شمسهن وأصبحن فى طرف العمر، قادمات على العالم الآخر.

قالت ميرى:

- ويتحدثون عن متعهم الرخيصة مع الهالكات، يودعون فوجا ويستقبلون فوجا آخر. وقد استمرؤوا تلك الحياة الوادعة الفارغة التى لا معنى لها.

قالت كاترين:

وبعضهم طماعون يلجأون إلى ابتزاز أمثالنا فى خسّة ونذالة وبطرق ملتوية، وحيل وخداع وتزوير كما أخبرت صاحبة لى عاشت تجربة قاسية ومرعبة ودنيئة مع واحد من هؤلاء.

مجدولين تقول:

- أيه لو خبرتكن عن قصة سيدة سوسرية مع شاب سافل منحط، عديم الخلق، وفاقد للمروءة، كلّه حقارة ورذالة وقلّه إنسانية، إنها قصة دراماتيكية.. مأساة فريدة من نوعها، فيها عبرة وعضة لمن تريد أن تذهب إلى هناك.. درس يجب أن تتعلّم منه، من ليست لها تجربة مع بعض من هؤلاء، ولا أقول كلّهم، وأنت يامرقاريتا: موجهة الكلام إلى مرقاريتا التى قالت إنها ستسافر إلى الجنوب - أنت عليك أن تأخذى حذرك، وأن تستمعى جيدا إلى قصة السويسرية التى سأخبركن خبرها فى يوم آخر، ذكرونى بها إذا غفلت.

(7)

فى مدن وقرى وأرياف السواحل على الضفة الجنوبية للبحر المتوسط تجمعت أعداد من المعدمين، تسربت خلال سنوات، عازمة على الانتقال إلى الشمال عندما تسنح الفرص، ضلّت تعمل فى مهن مختلفة للحصول على مال يمكنها من حجز مقعد فى أحد قوارب الموت، وأي مقعد هو؟! حيزا من جوف القارب تتلاصق فيه الأجساد، وقوفا أو جلوساً القرفصاء: رجال ونساء وأطفال: إنه العوز والحاجة والفاقة الشديدة تتمثّل فى ذلك المشهد البشرى الكئيب، لقد أخبرهم معاون المجرم الكبير مهرّب البشر تحت جنح الظلام، أن الرحلة لا تعدو ان تكون لمدة يوم وليلة، بعدها يكونوا قد وصلوا إلى أرض الأحلام، حيث النعيم المقيم، والحياة الهانئة، والعيش الرغد، وهم مساكين ليس لهم معرفة بالجغرافيا، فإيطاليا يقرّبونها لهم، وجزيرة صقلية المنفذ المقصود؟، أو لمبروزا لا تبعد الاّ عشرات الكيلو مترات عن موقع الإقلاع.

كانت مجموعة صغيرة تنوى الهجرة الغير الشرعية، تواجدت بالصدفة فى مزرعة أحد السكان، كان يستخدمهم فى ري المزروعات كعمالة رخيصة، وبأجر زهيدة لمدة عام ونصف العام: اثنان إخوة أشقاء تؤم هما: حسن وحسين من شمال النيجر، وعثمان من مالى، وثلاثة آخرين من تشاد هم أبناء عمومة.

ضلّت هذه المجموعة لمدة عام ونصف تكدح فى تلك المزرعة، وتترقب الساعة التى ترحل فيها عبر البحر، تعد الأيام وتحسب المدخرات، وتبحث عن الذى يسهّل لهم الأمر.. حتى جاء يوما أحد

أعوان صاحب قارب للتهريب، يجهّز لحمولة بشرية تنطلق قريبا فى اتجاه جزيرة لمبروزا، أقرب الجزر الإيطالية للساحل الجنوبى.. تفاوض معهم على الرحيل وبشروط صاحب المركب التى هي عبارة عن دفع نصف المبلغ بقيمة ألف دولار لكل شخص مقدماً وقبل الانطلاق، ودفع ألف دولار آخر حين يشحنهم على ظهرها، وأن يتم انتقالهم إلى استراحة صغيرة قرب الشاطىء للتجمع مع آخرين، وفى سرّية تامة خوفا من مراقبة السلطات المحلية، وأن فى الاستراحة الأكل والشرب على حساب المهرّب صاحب المركب، وألاّ يخرجوا إلى أى مكان حتى تبحر بهم القارب، كان الاتفاق على الشروط المشروطة من طرف واحد، وكانت اتّفاقات أخرى عقدها معاونو المهرب مع مجموعات أخرى فى أماكن متفرقة، ومن جنسيات مختلفة، ضلّت هي بدورها تنتظر فرصة الرحيل من سنوات.. حين اكتمل العدد المطلوب.. عدد أكبر من حمولة المركب بضعفين وبعدما قبض المجرم المهرب - كلب البحر - كما ينعته المنافسون له نصف المبلغ الباقى على كل شخص يريد الهجرة، وقد تجمع له من تلك الصفقة أكثر من أربعمائة ألف دولار، فالمركب فى قانونه الذى سنه بنفسه، لابد أن تشحن بمائتى إنسان لتكون العملية ذات جدوى، وبحسبة يحسبها: لابد أن تغطى الأموال التى يجمعها كمقدمة ثمن المركب، ويقبض هو المؤخر الذى سيدفع قبل أن تطأ قدم أي مهاجر المركب، وهذا هو فايض الربح، والمركب عادة ما يكون متهاكلا، لا تجمع الواحة إلاّ مسامير صدئية، ويدفعه محرك نصف عمر،

ودون احتياطى للوقود، فاذا حاد عن أقصر طريق يسلكه سينفد الوقود حتما ويهلك من على ظهره، والمركب ليس بالضرورة أن يكون مركبا تقليديًّا من الخشب، الذى تقل فيه نسبة الخطر، وإنما أكثر الأحيان يكون مركبا من مطاط مملوء بالهواء فإذا صادفته نتوء من حجر ذهب فى خبر كان من كان على ظهره طعاما للحيتان والأسماك.

بدأ أعوان المهرب المجرم يجمّعون المجموعات المتواجدة فى أماكن عديدة، لتكون فى مكان واحد كى يسهل نقلهم إلى المرافىء السرية، التى يستخدمونها على طول الشاطىء، يغيرون الأماكن وأوقات الانطلاق منها فى كل شحنة، خوفا من العيون التى تراقبهم لتبطل عملهم السري المحضور.. هناك: أحياء شعبية تغض الطرف عنهم - المهربون - أو تطواطأ معهم، نظير مبالغ مالية تدفع للنافذين من رجالاتها، تتستّر عليهم، وتتعاون معهم، تكترى لهم بيوتا يستخدمونها استراحات لمدة يوم أو يومين، تتكامل فيها الشحنة، ومنها تنقل إلى المرافئ السرية تحت جنح الظلام، هذه الاستراحات: عبارة عن غرف واسعة باردة فى أيّام الشتاء خالية من الأثاث، إلاّ من بعض (الحسر) وقطع دارسه من فرش متسخ، وأغلب (لامبات) الإضاءة فى هذه الغرف محترقة، أو منزوعة عمدا، إلاّ واحدة أو اثنتان يتبيّن عليها ذلك التجمع الكبير خطواته نحو المراحيض، وحتى النوافذ لا تفتح إلاّ فى الليل، ليتجدّد الهواء، الذى سرعان ما يفسد بفعل الاستنشاق والروائح الأخرى، الطعام فى هذه الاستراحات: سيىء: أرغفة من الخبز يطوّحها عمال من بعيد

فوق الرؤوس فتتلقفها الأيدى المتزاحمة فى الهواء، والشراب من خزان صديء، ولا شيء غير ذلك.. هذا عن الإعاشة، داخل الاستراحة، أثناء فترة الانتظار، قبل ركوب البحر، أما عن نقل المجموعات من البشر التى دفعت نصف مدخراتها كعربون مقدما، والباقى سيذهب إلى جيب المهرب صاحب المركب قبل أن يضع الراكب قدمه فى المركب.. عملية النقل هذه إلى الاستراحات حدّث عنها ولا حرج، ففيها عذابات وإهانات لا تليق بالآدمين: جرارات زراعية مركبة عليها خزانات - تمويهية - ظاهرها للمياه، وباطنها محشرا للبشر، هي بعلو مترين من قاعها إلى سقفها، ينزل إليها الراكب بواسطة سلم حديدى مركّبا من الداخل تحت فتحة الخزان العلويّة، تحشر فى هذه الخزّانات جماعات من البشر حتى تضيق بها: رجال مع نساء وأطفال، يتخطّفون الأكسجين من خياشيم بعضهم البعض، وهكذا بين عصرة وعصرة، حتى تدفع بهم تلك الجرارات إلى الاستراحات التى سبق وصفها.. هنا يتنفّس الجميع الصعداء بعد ذلك العذاب، والاستراحات بما وصفت أهون من هول الخزانات التى لولا ثقوب فى أغطيتها العلوية لاختنق من فيها لانعدام الأكسجين وفساده إن وجد قليل منه، بعد عذابات الخزانات، وسوء المعاملة، والتضييق فى الاستراحات يأتى العذاب الأكبر: النفسى والجسدى أثناء ركوب البحر إن نجحت المراكب فى الوصول - التى تسمى مراكب الموت - إلى الضفة الأخرى، أو هلكت فى البحر، وفى أحسن الحالات، تعود من حيث أتت، بعضها بكامل ركّابها، فى حالة

ضبطها من قبل رجال خفر السواحل المكلفين بالهجرة غير شرعية.. أما فى حالات أخرى، تكون قد فقدت نصف حمولتها من البشر عندما تتوه فى عرض البحر، فتضرب على غير هدى.. تصارع الأمواج حتى تصل الشاطىء فى الجنوب مرّة أخرى، وهي تضن إنها عبرت إلى الشمال.

هذا وصف موجز لحال الركاب والمراكب أثناء عملية التهريب السريّة - الهجرة غير شرعية - حال لا يصدقه عقل: رعب وقسوة، ابتزاز وقهر، خوف وذعر، جوع وظمأ، غطرسة وجبروت، ظلم وعدوان، عذاب نفسى وجسدى ورهبة، يأس وأمل، شقاء ومعاناة، تعب وإرهاق، يصيب الأجساد إلى حد الإنهاك، وأحيانا يكون الموت المحقق فترى الأجساد فى البحر وليمة للأسماك.

وهذه إحدى مراكب الموت نتابعها خطوة بخطوة، كما وصف أحد الناجين منها.

قال الرجل:

بعد أن تحطّمت المركب فى عرض البحر.. نتيجة اصطدامها بصخرة تحت الماء، وهي فى طريقها نحو جزيرة لمبدوزا. كانت القارب من مطاط مليئَّة بالهواء.. اعتلاها جمع من البشر: نساء ورجال وبعض الأطفال، فى هجرة غير شرعية، نحو إيطاليا.. خمسة أيام بلياليها والمركب تتقاذفها الأمواج، تعلو وتهبط.. ضلت طريقها أكثر من مرة، كانت ذات مرّة حين لمح أحد الركاب نورا عن بعد فأشار إلى الربّان، على أن ذلك النور

بما يكون فى جزيرة لمبروزا: وجهة المركب المقصودة.. أتجه الربان صوب ذلك النور.. اقترب منه، والحال مازال عتمة.. حين انقشع الظلام تبين أن الموقع عبارة عن حفّار ينقب عن النفط فى البحر.. معنى هذا ، أن هؤلاء الهاربون من الجحيم إلى النعيم كما فى اعتقادهم، لم يجتازوا الجرف القارى لإحدى دول الشاطىء على الضفة الجنوبية، للبحر المتوسط، يذكر الناس أن بعض ربابنة هذه المراكب (الحرّاقة) كما يسمّيها الوسط العامل فى مهنة الحرام والخراب هذه - تهريب البشر بطرق غير شرعية - هم ليسوا ربابنة معتمدون، بل أن بعضهم لم ير البحر إلاّ يوم أن ركبه، فالمجرمون العتاة من أصحاب المراكب، ومن يعاونهم إلا يكلفوا أنفسهم إلاّ أن يقوموا بتدريب من يجازف بقيادة المركب نظير إلاّ يدفع أجرة ركوبه، لذلك يعمدون إلى تدريبهم لمدة قصيرة.. فقط كيف يقوم الواحد منهم بتشغيل المحرك، وكيف يزوّده بالوقود، وبهذا الأسلوب المجرم، والحيلة الماكرة يخرج المجرمون من جميع تبعات العملية إذا كانت خاسرة أو متعرضة للخطر، فهم دائماً داخلون فى الربح، خارجون من الخسارة حتى البوصلة التى يزوّدنهم بها تكون من النوع المقلّد، قابلة للأعطال فى كل حين.. عدّل الربان المزوّر اتجاه المركب حيثما اتفق، وضن انّه الوجهة الصحيحة، أخذ يسير فى اتجاه الشمال، بعد ان أشار عليه أجد الركاب بان يجعل الشمس وهى تطلع فى الأفق الشرقى على يمينه، فذلك هو خط السير الصحيح.. وكان اليوم الأول بعد ليلة الابحار من نقطة سرية على اليابسة فى البر الجنوبى، جاء الليل ثم تبعه

النهار، وهكذا ضلّت المركب فى البحر خمسة أيام بلياليها دون ان تظهر لها بارقة أمل فى الوصول إلى إحدى الجزر الإيطالية.

فى أعقاب اليوم الخامس، وبعد العصر بدأت صقلية بجبالها ومبانيها تظهر فى الأفق، قال أحد الركاب الفطنين، وكان قد درس جغرافيا أوربا الطبيعية حين كان فى المدرسة الثانوية،

قال الشاب الفطن:

- تلك أعتقد هي صقلية.

قال الربان:

- من أدراك نحن نقصد لمبروزا.. ولعلها هي.

- لمبدوزا جزيرة صغيرة مقطوعة.. وكنا قد وصلنا إليها منذ يومين، لو أننا اتجهنا نحو الشمال الغربى.. حين كنا قرب منطقة التنقيب.

- وكيف عرفت أن هذا الشاطىء هو شاطىء صقلية وليس أرض أخرى قال: الربان.

- هي ذات جبال مرتفعة تنتشر على سفوحها المبانى المكتظة ولها امتداد نحو الشرق، لا ينقطع حتى مضيق مسّينا مرورا بسركوزا، وهذا الشكل الجغرافى الذى نراه من بعيد لها لابد أن تكون هي صقلية.

قال الربان المزيف:

- لتكن من تكون.. نحن سلامتنا كبيرة، حين وجدنا اليابسة بعد عناء خمسة أيام تائهين فى البحر.

- وسنكون لا محالة فى قبضة الشرطة سوى هنا أوهناك قال الشاب.

- شر أهون من شر: أن نجد الأرض والبشر.

- حتى لو دخلنا السجن؟

- أفضل من أن يبتلعنا البحر، ويسلّمنا إلى الحوت.

هبّت عاصفة على بعد عشرة كيلو مترات من شواطىء صقلية، عاصفة هوجاء يرعد فيها الرعد، ويبرق البرق، والريح كانت سرعتها عالية كأنها إعصار.. اضطربت المركب وطوح بها الموج ذات اليمين وذات الشمال - أختل توازنها، ارتفعت ثم مالت ثم انخفضت واعتدلت، هاج الركاب وعلا الصياح، فقد الربان أعصابه، حاول أن يسيطر على الموقف، انفلت منه زمام الأمر، أخذ يصيح بصوت عالى: عاونونى.

قال راكب:

- بماذا نعاونك؟!

- بالهدوء.

- وهل يهدأ أطفال ونسوة، وحتى الرجال فى هذا الموقف وهم يرون الموت رأى العين؟!

- وماذا فى مقدورى أن أفعل لكم؟ .. إنه القدر.. تضرعوا بالصبر.

- وماذا لنا غيره؟ ليس لنا إلاّ أن نقول: يرعانا الله.. «إن بعد العسر يسرا».

قال آخر وهو فى أشد حالات الخوف:

- ونعم بالله.

عن النساء وأطفالهن والرجال حدّث ما شئت، والكارثة أصبحت وشيكة الوقوع.. وجوه مصفرّه، وعيون جاحضة، وقلوب تكاد تنخلع من الصدور، وأطراف ترتجف.. الكل ينظر إلى الكل فى هلع، ويستنجد فى صمت، ولا أحد قادر أن يفعل شيئًا لأحد.

لحظات وحلّت الكارثة، فقد الربان أعصابه تماما، دخل فى هستيريا أخذ يصيح بأعلى صوته، يهذى بكلام لا رابط بينه، وليس له علاقة بالموقف الذى هو فيه، كان يتكلّم بلغة بلاده المحلية الأفريقية التى لا يفهمها إلاّ بعض أفراد على المركب من مواطنيه، ذكر اسم امرأة يظهر أن له بها علاقة: أمّه أو زوجته أو أخرى، صرخ صرخة فزع نطق باسم غير معروف، تحرّر المركب من سيطرته، أخذ يرقص - الربان - رقصة فلوركورية من بلاده.. اصطدم المركب بصخرة تحت الماء أحدثت ثقبا فى جسمه المطاط بدأ الهواء يتسرّب على مهل، والجسم المطاطي يضمر، ازداد هياج الناس، تدافعوا وكلّما انحازوا أكثر ناحية الثقب ازاداد إفراغ الهواء، حتى أصبح المركب عبارة عن قربة مثقوبة يعلوها الموج، الكارثة الآن محققة، والموت ماثل للعيان، العيون زائغة، وشبح الموت يهدّد الجميع، والرجاء فقط فى رحمة الله.

كانت حوّامة فى السماء على بعد كيلو مترات من المركب المنكوب،

من الحوّامات التى تراقب الشواطىء من أجل حمايتها من الهجرات السرية ومهربى الممنوعات التى تقصد الجزيرة.

أصبح ذلك الجسم المطاطى المثقوب كأنه حسيرا مطروحاً فوق الماء.. تناثر من كان فوقه يصارع الأمواج العالية، يتشبث بالحياة، فجأة تهدأ العاصفة ويسكن الموج، ضل من يعرف السباحة يحاول النجاة، أما غيرهم فقد كانوا بين غارق وشارق يبتلع فى جوفه الماء، ثم لا يلبث أن يبتلعه بدوره الماء.

كان آدم رجل قادم من أرتيريا يصحب زوجته باكيلا وابنه ذى الثلاث سنوات، من ضمن ركاب تلك الرحلة السرية المشؤومة التى ذهبت بآمال أكثر الركاب، كان الرجل قد تعلم السباحة فى شبابه، أخذ بدفع الموج بذراعيه، ويطلب من زوجته أن تمسك بجزء من جسمه، والمسكينة شارقة غارقة وفى حضنها ابنها الصغير.

كانت الحوامة قد طلبت قوارب الإنقاذ السريعة ودلتهم على مكان الكارثة التى حلّت بالبشر.. أسرعت القوارب فى اتجاه المكان الموصوف.. فى الوقت التى وصلت فيه قوارب النجاة كان أغلب الناس قد غرق.. أفلت من كابيلا ابنها الصغير، تبعته غريزيا لتحميه من الغرق.. مسكت به وآدم يدفع الماء لينقذها وابنها، على بعد أمتار منه ابتلعها البحر وابنها فى حضنها.. صرخ آدم صرخة فزع مدوّية لوعة وحزنا، ضل ينتحب ودموعه تختلط بمياه البحر.. ناور قارب سريع

للإنقاذ بجانبه، انتشله وهو فى الرمق الأخير، كان على ظهر القارب مجموعة من المحظوظين، تم إنقاذهم فى اللحظات الأخيرة، بادرت قوارب الإنقاذ بالتقاط الأحياء قبل غيرهم، ودفعت بهم إلى سفينة إنقاذ كبيرة، كانت فى مكان الحادث كما أمرتها السلطات المختصة، عادت القوارب السريعة، تجمع الأموات الذين طفت جثثهم فوق الماء، غرق كثير من ركاب مركب التهريب المنكوب، وأستلمهم الموت، وكانت الإحصائية.. كما أفاد أحد الركاب الناجيين، الذى استفاق من هول الصدمة بعد وقت: قال:

إن على ظهر المركب قرابة مائتى راكب.. أحصوا الناجين فكان عددهم خمسة وعشرين رجلا، وثلاث نساء، وكانت الجثث المنتشلة سبعة وثمانين، والباقى سجّل فى عداد المفقودين، فكان عددهم على وجه التقريب تسعين مفقودا.

هذه هي حصيلة إحدى الكوارث التى تتكرّر كثيرا فى كل موسم للهجرة نحو الشمال، آلاف البشر يبتلعهم البحر كل سنة.. فقد جاء فى إحصائية، قامت بها إحدى المنظمات الحقوقية للإنسان فى إيطاليا، موت ألفين وسبعمائة من المهاجرين خلال شهر واحد.. إنها مأساة. أو جزء من المأساة الكبرى: الهجرة والهجرة المعاكسة.

(8)

الحسن والحسين الأخوان الشقيقان التوءم، اللذان جاءا من شمال تشاد بنية الهجرة إلى الشمال، كما يهاجر الآخرون من سكان الدول الأفريقية جنوب الصحراء.. هذان الأخوان فرقهما القدر، حين عزما على ركوب البحر نحو الشمال، كان الحسن قد خرج خلسة من الاستراحة التى تجمع فيها المهاجرون انتظارا لوقت الإبحار، خرج يبحث عن سجائر فى محل قريب.. أثناء تغيّبه القصير، جاء الجرار الزراعى الذى يجر وراءه الخزان المموّه لينقل من فى الاستراحة إلى المرفأ السرى الذى تنطلق منه المركب تحمل شحنتها البشرية إلى مصيرها الذى لا يعلمه إلاّ الله: إقامة واستقرار فى أحد البلاد الأوربية، أو فى بطن الحوت.

ركب الحسين مع من ركب، وتخلّف الحسن عن السفر، ضل يعض أصابع الندم على ضياع الفرصة التى كانت بين يديه.. بكى على فراق أخيه، الذى عاش وإياه عمرا تجاوز الثلاثين عاما، وعلى أمل كان يراوده فى الهجرة، ضيعتها عليه خمس عشرة دقيقة، تأخرها فى البحث عن علبة سجائر، ولا يدرى أن العمر ما زالت فيه أيام أو أعوام، فأخوه الذى سافر فى المركب، كان ضمن المفقودين، لم يعثروا عليه حيّا ولا ميتا، وربما لو سافر معه لشاركه نفس المصير، أو شاهده وهو يغرق، فتتمزق نفسه ألما وحسرة، فيبكيه بدمع الدم، ولا يملك له حولا ولا قوة.

ضل الحسن موزعا بين التفكير فى أخيه الذى سافر وتركه، وبين نفسه، وماذا تخبىء له الأيام.. هل يكتب له القدر: اللقاء بأخيه فى يوم من الأيام.. وفى رأي البلاد؟ وهل تمنحهما الحياة فرصة اللقاء مرّة أخرى؟ وهواجس أخرى صارت تلازمه ليل نهار.

تقرر انطلاق الرحلة القادمة بعد عشرة أيام، وبدأ تجميع الراغبين فى الهجرة.. جلبتهم الجرارات الزراعية إلى الاستراحة بنفس الطريقة.. تلك الجرارات القذرة التى هى عبارة عن سجن مصغر، أو قل زنزانة ضيقة يحشر فيها البشر. والتى أسوأ ما فيها المعاملة وقلة الطعام.

تحت ستار الليل ضلت تلك الجرارات تنقل البشر حتى تكامل العدد المطلوب: ثلاثمائة رأس من الآدمين فى هذه المرّة، كانت المركب التى ستنقل هذه الشحنة البشرية، من الخشب، وليس من مطاط مضغوط بالهواء كسابقتها، لذلك رفّع السعر إلى ثلاثة آلاف دولار للشخص الواحد كأجرة ركوب، باعتبار المركب أكثر سلامة وراحة، وهي أبعد ما تكون عن الراحة والسلامة.. إنها مركب قديمة متهالكة انتهى عمرها الافتراضى من سنوات.

دفع الحسن ثلاثة آلاف دولار كما دفع كل واحد من الثلاثمائة الذين جمعهم المقاول نفس المبلغ، أما المهرب الكبير فقد دفع بهم جميعا إلى الخطر والمصير المجهول.

هذا المجرم الكبير والخطير، يعمل فى كل الممنوعات، ابتدءً من جلب المخدرات بطرق شتى، وترويجها فى البلاد، إلى التجارة فى السلاح الخفيف: (مسدّسات) واستبدال العملة خارج القنوات الرسمية، وانتهاء بالأعمال السوداء: تهريب البشر فى هجرات غير شرعية، فى قوارب مطّاطية، وأخرى خشبية لم تعد صالحة للاستعمال.. قوارب من المطاط، خالية من كل المرافق الصحية والمستلزمات البشرية الأخرى،

ولا تأمين ولا أمان، يدفعون بها فى البحر معبأة بالآدمين.

لا شك أن شركات تملك مصانع لهذا الغرض، وإلاّ كيف تكون هذه القوارب وبمواصفات تحمل أعدادا كبيرة من البشر تشق بها البحار على مدى مسافات طويلة تحسب بمئات الكيلو مترات.. هل هناك مثلا قوارب من هذا النوع لغير هذا الغرض؟.. كلنا يعرف أن القوارب المطاطية فى الغالب تكون قوارب صغيرة للنزهات البحرية على الشاطىء وقريبا من مرافىء المدن، ولا تسع أكثر من ثلاثة إلى عشرة أشخاص ليس إلاّ.

أما هذه ذات الحمولة الكبيرة، فهي تصنع بواسطة مصانع تملكها شركات خارج القانون، ولحساب المجرمين المهربين للبشر، وهي بذلك تكون شريكة فى الجريمة.. إن المافيا العالمية.. تتعدد أشكالها وتتنوع وسائلها وآلياتها فى خدمة الجريمة، وللتآمر، وتدمير القيم والأخلاق، وتضرب بالمبادئ الإنسانية عرض الحائط، فلا يهمها إلاّ الربح، وتحقيق الغايات والوصول إلى الاهداف.

والمافيا، هي: المافيا، سواء كانت منظّمة فى جماعات، ولها خيوطها، وامتداداتها وفروعها عبر العالم، بمعنى لها صفة العالمية، تتعامل أحيانا مع رؤساء الدول والحكومات، بواسطة الاستخبارات وغيرها من وسائل التواصل والاتصالات، أو على مستوى الأفراد كما هو الحال بالنسبة لمهربى المخدرات والسلاح والبشر.

عودة إلى حسن الذى كان فى الشحنة البشرية، التى ستنقلها مركب من خشب كما سلف الذكر.

المركب كانت قديمة ومتهالكة، وخارج الخدمة منذ سنوات، بعد أن تركها صاحبها الأول الذى كان صيادا للسمك، فلّما تقاعد من الخدمة، باعها لأحد المهربين فدبّر هذا المجرم تدبيرا شيطانيا.. أجرى عليها نوعا من الإصلاحات التى لم تكلّفه الاّ قليلا من المال.. حسب حسبة جهنّمية، قررّ أن يشحن فيها ثلاثمئة من البشر، وأن يدفع كل واحد منهم ثلاثة آلاف دولار.. المبلغ يسيل له اللعاب.

هو لم يدفع لصاحبها أكثر من خمسين ألف دولار، تم إصلاحها بعشرة، الإعاشة ومصروفات نقل الشحنة من أماكن تواجدهم، ودائماً بواسطة خزّانات المياه المموهة إلى الاستراحة، قدرها بعشرة آلاف أخرى، طرح سبعين ألفا من تسعمائة ألف، وجد الصفقة تغرى إلى حد كبير، صفقة العمر كما حدّثته نفسه، وهو لا يعلم كيف تكون نهاية العمر.. حدّثه الشيطان: لتذهب المركب ومن فيها إلى الجحيم.. هو ليس فى حاجة إلى أن تعود المركب، وصلت إلى البر على الساحل الآخر أو استقر بها المقام فى قاع البحر بمن فيها.. مجرم مات فيه الضمير وانتزعت من قلبه الرحمة.. أعمته المادة عن كل خلق كريم، وهو أصلا عديم الأخلاق.. سيطر عليه الشيطان، زين له جمع المال الحرام، يكنزه لتكوى به جبهته، وجنبه يوم الدين.. مال لا يأكل منه الاّ بمقدار ما تسع بطنه وفى أحوال كثيرة لا يأكل كل ما تشتهى نفسه، فهؤلاء أصحاب

النفوس القلقة، والأمزجة المضطربة فى أغلب الأوقات، عادة ما يكونون مصابين: بداء السكرى، وارتفاع ضغط الدم، وخفقان القلب، وأمراض الاثنى عشر، والنقرس وغيرها من الأمراض.. لذائد الطعام محرومون منها، وراحة البال لا ينعمون بها، نومهم غير منتظم، مرعبون خائفون دائما، يقضتهم بين الهواجس والأفكار السوداء، والتآمر، وتدبير الحيل والخداع.. يتّقون منافسيهم، بالمكر والمؤمرات، ونومهم قليل متقطّع تؤرقهم الكوابيس المفزعة، تعاملهم بالرشوة مع من لهم عندهم مصالح، يتحالفون مع الشيطان فى سبيل الوصول إلى الغايات، وهى دنيئة حقيرة قذرة، يتعرضون فى مرات كثيرة إلى خسارات مادية ومعنوية، وإن كانت الأخيرة لا تهمهم كثيرا، وسرعان ما تغطّى عليها صفقة رابحة من حرام.

كان حسن المسكين الذى فقد أخاه فى شحنة تهريب سابقة، كان المفروض أن يكون هو ضمنها لكن القدر أبقاه.

كان حسن على ظهر المركب التى هي من خشب، والمزهود فيها من طرف صاحبها الذى قبض من ورائها أضعافا مضاعفة من ثمنها وسلمها للبحر.

تحرّكت المركب بحمولتها البشرية مقلعة من مرفأ سري غير معروف لأفراد خفر السواحل، ومخبريهم السّريين، لأنه ليس بالمرفأ المتعارف عليه: تقترب منه المراكب حتى تصل إلى اليابسة فيصعد إليها

الركاب، وإنما الركاب هم الذين يقتربون من المراكب، حيث تبقى على ظهر الماء على بعد مئات الأمتار، فيخوض الركاب الماء راجلين مشمّرين ملابسهم إلى ما فوق الركب يسوقهم أدلاّء إلى المركب، ثم تقلع على عجل، خوفا من اكتشاف أمرها، فتحبط العملية ويساق الركاب المساكين إلى المعتقلات.. هكذا تبدأ عملية إبحار هؤلاء التعساء بالمعاناة، وما ينتظرهم من الهول أفضع وأشد، فى عرض البحر، على مدى ثلاثة أيام بلياليها، هذا إذا لم تضل المركب طريقها، يتعرّضون فى هذه المدة للجوع والعطش ودوار البحر، والعواصف التى قد تحطم مركبهم وتنثرهم فى الماء يصارعون الأمواج، إن كانت لهم إمكانية الصراع، فأغلب هؤلاء المساكين لا يعرفون السباحة من قبل، وما لهم من وسيلة للنجاة إذا ما حدث مكروه إلاّ صدريات توزّع على بعضهم، ويحرم منها البعض، يستخدمونها كأطواق للنجاة عند الطوارىء، وما من نجاة لهم إذا توسطوا البحر وابتعدوا عن السواحل، وحدثت الكارثة لاقدّر الله.

وضع صعب، وحال مزرى، وخطر متوقّع فى كل لحظة، يعانيه هؤلاء ويشعرون به، لكنها المغامرة الغير مأمونة العواقب، يدخل فيها كل مهاجر هجرة غير شرعية، احتمال النجاح فيها والفشل واردة عند كل منهم، ومحسوبة فى حسابه، وكل واحد قد دفع من مدّخراته وشقاءه، لمدة ليست بالقصيرة: سنتان أو ثلاثة فى كدح مستمر من أجل أن يجمع مالا نظير أن يجاور آخرين التصاقا فى مركب يعبر بهم البحر.. ساعتها يكون كل قد أحرق مراكبه فلا مفرّ من المضىء إلى الأمام، وليس له إلاّ

أن يواجه البحر نصراً وهزيمة وللبحر حكم ومزاج، وكذلك مواجهة حراسات الحدود ولها سلطة وقانون.

هكذا هو حال هؤلاء المهاجرين، بين الرجاء والأمل، والخيبة والنجاح، قلوبهم متعلقة بالشمال، وأرجلهم تدفعهم نحوه، أرواحهم عند أهاليهم تشدّهم إلى أوطانهم، والقدر يرسم لهم الطريق والمصير.

توسط المركب البحر، تخلّى عنه محرّكه.. ضل ساكنا فى مكانه، لا يتقدّم نحو الشمال، ولا هو بقادر على العودة إلى الجنوب، أمامه: شرطة وقبض ومعتقل، وخلفه مثل ذلك، الهلاك يتربّص بمن فيه، فى عرض البحر، لا جهاز لاسلكى يعمل، ولا محرّك يتحرّك.

هكذا ضل المركب تهزّه حركة المياه يمنة ويسرة، لا من مغيث، وليس هناك من وسيلة لطلب الإغاثة، والركاب بين الجوع والعطش، يرجون رحمة الله.. حتى مرت بالقرب منهم سفينة تجارية، رأبها أمرهم فاقتربت منهم أكثر، حينها لاحت إشارات الاستغاثة، الركاب التعساء يلوّحون بملابسهم التى نزعوها من على ظهورهم، وهم بين رجاء ويأس، والموت والحياة.

أمر ربّان السفينة التجارية أحد مساعديه بإنزال قارب للنجاة، ويذهب إلى المركب المتوقفة كى يستطلع الأمر، عاد الرجل وأخبر الربّان: بحال المركب، وإنها عاطلة وعلى ظهرها أعداد كبيرة من البشر فى حال الخطر، يهددهم الجوع والعطش، ويرعبهم الخوف، وأن الموت

مدركهم إذا ضلوا على هذه الحال.

أرسل الربّان إشارات استغاثة إلى الشمال، حيث كان الأقرب إلى مكان المركب.. جاءت قوارب الإنقاذ السريعة، فلما وصلت إلى المركب هالها العدد الذى على ظهرها من البشر، وعلمت أن محركها متوقف، ولا يمكن لها أن تبرح مكأنها، هنا اضطرت ان تطلب من مصلحة الإنقاذ إرسال باخرة كبيرة، من أجل نقل الركاب، وليتم قطر المركب إلى أقرب مرفأ تابع إلى الجهة المسئولة عن استقبال المهاجرين غير الشرعيين.

كانت الوجوه كالحة، والعيون جاحظة، والقوى خائرة، من شدّة الخوف والرعب، والجوع والظمأ، تطلب من يغيثها بكسرة خبز وجرعة ماء: بالإشارة والإيماء وبلغات أفريقية محلية، الاّ من بعضها كانت إنجليزية وفرنسية، كانت النجدات فى هذه الحال، تحسب حساب كل الطوارئ فتستعد لذلك باصطحاب كميات من الطعام والماء فى مخازن السفن وقوارب الإنقاذ، لكن العدد كان كبيرا فى هذه المركب التى نفد منها الأكل والشراب من يومين، لذلك أصاب بعض الركاب كميّات ممّا أحضرته النجدات ولم يضفر البعض الآخر بشىء.

تم قطر المركب بعد أن أفرغت من ركابها إلى الشاطىء وفى ميناء بحرى صغير على مقربة من معتقل كبير، تم إفراغ السفينة المنقذة من البشر الذين كادوا يهلكون فى البحر، بسبب طمع وجشع المهربين المجرمين.

بدأ فرز تلك المجموعة الكبيرة فى مكان الاستقبال على نحو مقنّن:

فئة مصابة بأمراض معدية تحوّل إلى حجز خاص، وفئة تحتاج إلى علاج وإسعافات من أمراض طارئة أصيب بها فى البحر، يكون علاجها فى المستشفيات ومراكز التطبيب.. أما الأصحاء فلهم فرز آخر: الشباب يعزلون فى معتقل معيّن، إلى حين إلحاقهم بمراكز للتدريب على بعض الحرف والمهن المطلوبة، للاستفادة منهم فى البلاد التى تستقبلهم، أو يسربون إلى دول أخرى فى الشمال بموجب تفاهمات واتفاقات سرية بينهم وبين البلد المستقبل، أما كبار السن ففى الغالب يسفّرون إلى بلدانهم الأصلية، فهم قادمون من بلد فى الضفة الجنوبية بطريق غير شرعى، وليس لهم بطاقة إقامة فى ذلك البلد.

هكذا تسوى أوضاع هؤلاء القادمين المهرَّبين عبر البحر فى البلاد التى تستقبلهم.. بين مريض يعالج وشاب يمكن الاستفادة منه، حين يكون حاذقًا لمهنة ما، أو يدّرب عليها فيستغل لخدمة البلاد على مدى سنوات طويلة إلى حين تقاعده عن الخدمة وبين كبار السن الذين لا يستفاد منهم فى شيء فيرحّلون إلى بلدانهم فورا.

أما عن ذلك المجرم المهرب الذى نظم تلك الرحلة السرية إلى الشمال، ومن قبلها عشرات الرحلات، لم يصل منها سالما إلاّ بعضها.. فقد خصم منها البحر حصته وسلّمها إلى السمك. ذلك المجرم الذى كان تاجرا فى كل الممنوعات: من ترويج للمخدرات وتهريب للبشر، إلى التجارة فى السلاح. فقد كانت له خصومات مستحكمة مع منافسين له فى مهنته التى يجرّمها القانون ويحرّمها تحريما قاطعاً، ويجرّم من يتعاطيها

بأشدّ العقوبات، والتى قد تصل إلى الإعدام.. ذلك المجرم كان يترصّده مجرم آخر من منافسيه ليصفى معه حسابه فى صفقة تهريب للمخدّرات بلغت ملايين الدولارات، تم توريدها مشاركة بينهما لكنّه:- المجرم المرصود - استحوذ عليها لصالحه، وزعها كسم يقضى على مئات الشباب إن لم يكونوا بالآلاف، ليحرم الوطن من قدراتهم الخلاقة ويدمّر طاقاتهم الواعدة بالخير والتقدم والازدهار يقضى على حياتهم وهم فى ريعان الشباب.. هذا المجرم الذى مات ضميره، وقسى قلبه وعمت عيناه عن كل ما فيه خير ونفع للعباد والبلاد.. ولم يعد يرى إلاّ المال يجمعه من كل وجه حرام يكنزه فى الخزائن ويجمّده فى البنوك تحسّبا لعازات الزمان فى مستقبل الأيام، وهو فى عوز وحاجة فى حاضره، لا يتمتع بلذّة الطعام والشراب، فهو ممنوع من أنواع كثيرة يراها أمامه، من طعام وشراب، لأن أمراض العصر كلها تعاشره ولا ينفع معها علاج.. هذا المجرم الذى كانت ضحاياه بالمئات رمى بها أعدادا هائلة، قضت نحبها، بسبب طمعه وجشعه، دونما رحمة ولا شفقة.

هذا المجرم كان القدر قد عاقبه فى حياته، وفى آخرته يعلم الله ماذا ينتظره.. كان الرجل مفكك الأسرة، فاقد للروابط الاجتماعية، وحيدا منبوذا فى وسط الجماعة، الاّ من كان عونا له على الجريمة أو شريكا فيها.

كانت أسرته: تتكوّن من امرأة مصابة بالشيخوخة المبكرة والزهايمر، قبل سن الأربعين، ومن بنت جانحة طلّقت بعد شهرين من زواجها، فالتقطتها عجوز أرملة سيئة السمعة ساحت بها فى البلاد تبات

وآياها كل ليلة فى بيت، ظيفة عند شاب أو كهل.. رزق الرجل - المجرم - بعدَ سنوات من العقم: بولد ذكر جاء إلى الدنيا مشوّها، لا يمش على رجليين وإنما يتدحرج على جانبيه امتارا داخل البيت، لا يتكلّم الاّ صياحا كالأنعام، ولا يأكل أو يقضى حاجة إلاّ بمساعدة غيره.

ذات مرة كان هذا المجرم يلتقى مع شريك له فى الإجرام، وفى صفقة تمت بينهما جلبت من الخارج، واستحوذ هو عليها لصالحه دون وجه حق.. ومن أجل التفاهم حول تلك الصفقة، وكيف يمكن تسويتها، بالنظر إلى أخرى قادمة فى الطريق بينهما مناصفة - كانت صفقة تهريب خمور.

- هما لا يتاجران إلاّ فى الممنوعات - كان لكل منهما عصابة تحرصه من بعيد، كان النقاش بينهما والحوار ثم تطور إلى جدال ينذر بحدوث الكارثة.

قال له صاحبه فى الجريمة، وحياتهما كلّها جرائم:

- أنت يا رجل - إن جازت عليك هذه التسمية - كبرت سنك ولم يكبر عقلك.

- كيف ذلك يا صغير العقل؟

- أنت تحسب الناس كلّهم سذجًا وأنت العاقل الوحيد. والذكى الفطن، وحتى القوى الغالب، كما تسوّل لك نفسك الدنيئة.

وهل أنت ليس ممن أحسبهم؟!

- أنا سيدك.. ويدى أطول منك، وعقلى أكبر، وإرادتى تجبرك على ألاّ تأخذ حقى، بل تدفعه مكرها مغلوبا على أمرك.

- ومتى كانت لك إرادة تأخذ بها حقك منى يا حشرة.

- الحشرة ستجبرك مرغما على ما تكره، ولن تكون إلاّ حشرة ضارة، ألا تعلم أن العقرب حشرة ضارة وسمها قاتل.

- تلك هى العقرب ولكنك حشرة من نوع آخر.. أنت ذبابة سأطردها بنشّة من قش.

- والذبابة ليست دئما كما تقول: أنت ويقول الناس هى:

- بلغته المحلية - الذّبانة ما تقتلش لكن أدرّه الكبد، أنا:

ذبّانة قاتلة.. ودون، ما يكون هناك اشتباك بالأيدى ولا سباب بأقذع الأوصاف عدا ذلك الحوار اللاذع، سحب الرجل مسدّسه واطلق رصاصة فى صدر صاحبه شلّت حركته ثم أفرغ الرصاصات الباقيات فى رأسه، ودار على عقبيه فى هدوء تحيط به عصابته التى كانت تعلم بعملية تصفية الحساب مسبقا.

تدارك المقتول نفسه وأراد أن يسحب مسدّسه هو الآخر لكن غريمه عاجله قبل الأوان، فسقط يتخبط فى دمه.

وهكذا هي أموال الحرام، التى يقال عنها فى الأمثال الشعبية: «إذا لم ترها كيف تدخل ستراها حين تخرج»، خرج هو منها صفر اليدين، لا يأكل إلاّ زهيد الطعام، الذى اعتمده له الطبيب، ليناسب أمراضه العديدة التى تنهك جسمه، ولا يجد وقتا ليلبس النظيف والفخم من الثياب، لا ينعم براحة البال ولا بهدوء النفس باله مشغول دائماً

بصفقات الممنوعات أو تهريب البشر عبر البحر، لا يسأل عنهم بعد أن يقبض الثمن، ولا يهمه مصيرهم.

هذا الرجل مثال لما يؤول إليه حال أمثاله من عتاة المجرمين، الذين تمتلئ جيوبهم بالمال الحرام، وأيديهم منغمسة فى الدماء، وصفقاتهم التجارية قذرة على كل المستويات، هم: بشر فى هيئاتهم وصفاتهم الخَلْقية، وليسوا كالبشر فى أخلاقهم، عندهم فايض من نزعات الشر، وليست لهم ذرّة من خير فى قلوبهم، كأنهم خلقوا أعداء للمجتمع، وعقبة كأداء فى طريق ما ينفع الناس، وضد الحياة، هم معاول هدم، وأداوات خراب، وسوس ينخر فى جسد المجتمع.

هذا الذى جاء ذكره فى هذه الصفحات، واحد من كثيرين وضعتهم الأقدار فى طريق العباد ليفسدوا فى الأرض، ويزرعوا الشر، ويشوهوا الحياة، فهم خلْقٌ مشوَّه والعياذ بالله.

(9)

وفى سياقات أخرى من هذه الرواية ستكون جولة أخرى فى موضوع آخر.. مع نماذج أخرى لها فى الإجرام حكايات عجيبة، ومفارقات غريبة، تفوق قدرة الخيال على التصوير.

حكايات عمّا يحدث لأهل الشمال فى هجراتهم العكسية، وهى شرعية دائما - حديث يطول، عجيب وغريب لا يصدقه العقل أحيانا.

فى صفحات سابقة تركنا مجدولين السيدة الألمانية التى زارت الجنوب مرات عديدة ، وتعرضت لتجارب كثيرة، تنوّعت بين النجاح

والفشل، وكان للمآسي فيها نصيب كبير، حدثت لها ولغيرها.

تركناها وقد وعدت جليساتها بأن: تقص عليهن حكاية زميلة لها من سويسرا، حدثت لها قصة عجيبة مع واحد من الجنوب كادت أن، تجن بسببها لو لا ألطاف قدرها الله.

قالت مجدولين تحدّث كاترين، وسيزى ومرقاريتا وأخريات:

- خبّرتنى باولا:- اسم المرأة السويسرية - وهى من القسم الإيطالى السويسرى من مدينة لوقانو وسويسرا كما هو معروف: عبارة عن ثلاثة أقسام أو أجزاء: الألمانى فى الشمالى، والفرنسى فى الغرب والجنوب، والإيطالى فى الشمال والشرق، أرض وشعب يتوزّع بين الأقطار الأوربية الثلاثة، ولغات رسمية ثلاثة إلى جانب اللغة المحلّية، وربما أيضا الشعب السويسرى تتكوّن أصوله من تلك الاقطار الثلاثة، وحتى الأرض السويسرية مستقطعة من كل من فرنسا، وألمانيا، وإيطاليا، فى ترسيمات حدودية قديمة.

فهذه الدولة الصغيرة فى حجم أراضيها بالنسبة لجيرانها، وحتى سكأنها، كانت قبل استقلالها متماهية مع الأقطار الثلاثة المذكورة فى كل جزء من القطر الذى يليه، وهذا شأن آخر، وليس توصيفا للجغرافيا، ولا بحثا فى التاريخ.

وبالعودة إلى قصة باولا، نعلم أنها ولدت فى مدينة لوقانو من أبويين مسيحيين، يتبعان المذهب الكاثوليكى.. انفصلت والدة باولا

عن أبيها، وعمرها لا يتجاوز الثلاث سنوات، تكفّلت بتربيتها جدتها لأمها.. حين بلغت سن الرشد فى الثامنة عشرة من عمرها، غادرت جدتها الدنيا.. خرجت هي من المدرسة قبل أن تكمل تعليمها، والتحقت بخدمة عجوز ثريّة مقعدة.. ذات يوم قررت أن تعود إلى الدراسة، حين وجدت عندها فائضاً فى الوقت.. فالعجوز لها خادمة أخرى تعتنى بحاجتها الخاصة، وهى:

- بوالا ما عليها إلاّ تنظيف الغرف والحمامات.. عادت إلى الدرس وواضبت على العمل كخادمة عند العجوز - تفوقت فى الدراسة، واصلت تعليمها حتى نالت شهادة عالية فى التجارة والمحاسبة، التحقت بوظيفة محترمة فى أحد البنوك.. نجحت نجاحاً باهرا فى عملها أشاد به رؤساؤها، نقلت من فرع البنك فى لوقانو إلى المركز الرئيسى فى مدينة بيرن عاصمة الدولة السويسرية، هناك تزوجت من صاحب وكالة أسفار بحرية، كان يتنقّل بين الموانىء من همبرق إلى مرسيليا، إلى جنوا وكافة المدن ذات الموانىء البحرية، على البحر الأبيض، وبحر البلطيق.. لم تلبث أن طلّقت منه بعد سنتين.. ضلّت باولا تعمل بهمة عالية، وإتقان للعمل المصرفى الدقيق، حتى أصبحت مديرة لأحد الفروع فى جنيف، تحسّنت أحوالها المادية كثيرا.. جمعت ثروة لا بأس بها فأصبحت من الطبقة المتوسّطة التى تعد ثرواتها مبالغ محترمة فى البلاد السويسرية.. اشترت شقة فى جنيف تطل على البحيرة، عاشت بمفردها حتى وصلت إلى سن المعاش.. بدأت تعيش حياتها، ترفه

على نفسها بفضل مدّخراتها.. أخذت تسافر إلى خارج البلاد: مرتين فى كل سنة.. جابت أغلب البلاد الأوربية التى تتقن لغاتها.. فهى قد تعلّمت الإيطالية فى مراحل التعليم الأولى، ثم تعلّمت الفرنسية فى التعليم الجامعى والعالي، ودرست الإنجليزية فى دورات خاصة، فهذه اللغات الثلاث: ضرورية لمن يشتغل فى العمل المصرفى، وإلى جانب هذا هي تتكلم الألمانية واللهجة المحلية السويسرية، كانت باولا مثقفة، وصاحبة خبرات عالية، وتجارب وممارسات عديدة فى الحياة.

- كاترين: ومع هذه الخبرة والتجربة فى الحياة والممارسات العديدة كما قلت، وقعت.

- ويا لها من وقعة سوداء قالت: مجدولين

قالت: ميرى:

- يقولون غلطة الحاذق بعشرة.

قالت مجدولين:

- هذه المسكينة كانت غلطتها بألف وسأقص عليكن خبرها.

كاترين تقول:

- قبل أن تقصىّ علينا القصة، قولى لنا أين وقع لها هذا؟

- عكست الهجرة، أو لنقل السياحة والسفر.

- كيف؟ قالت: مرقاريتا؟

- قلت لكنّ كانت ترحل إلى البلاد الأوربية.

قالت كاترين:

- كما يرحل إليها أهل الجنوب، وهى عكست كما فهمنا فرحلت إلى الجنوب.

- هذا ما حدث بالضبط، أصبحت الهجرة عكسية.

- ولكنها هجرة شرعية!! ما الضير فى ذلك قالتّ: ميرى.

- الضير فيما ترتَّب بعد ذلك، على تلك الهجرة العكسية أو الرحلة من متاعب، وضرر مادى ونفسى لحق باولا المسكينة بل هي مأساة بما تعنى الكلمة من معنى، وليتها ما رحلت.

قالت مرقاريتا التى كانت تنوى السفر إلى الجنوب:

- كيف حدث لها خبِّرينا.

- ميرى: خبِّرينا فكلنا يفكِّر فى الرحلة إلى الجنوب علّنا نأخذ درسا.

قالت مجدولين:

- ليس فى كل بلاد الجنوب يحدث ما حدث لباولا ولا كل الجنوب فيه الخطر، ومنه الضرر.. الضرر والمتاعب يأتيها أفراد من الناس وليس كل الناس، وفى الجنوب كثير من القيم والأخلاق الحميدة.. هناك الترحيب بأهل الشمال، والمحبّة والود، والحضن الدافىء أرضا وبشرا، غير ان للقاعدة شواذا.

كاترين:

- لعل حظ باولا التعيس هو الذى أوقعها فيما تكره كما قلت، تلك الوقعة السوداء، التى لم نعرف منك كيف هي بعد.

- نعم هذا هو على وجه اليقين، وأنا شخصيًّا جرّبت السياحة فى الجنوب أكثر من مرّة، ولم أجد ما يسوءني.

- أنت حذرة فطنة لا تقعى فى المحضور قالت: ميري.

- ربما كان هذا، وربما حسن ظنى جنّبني كل المخاطر والمتاعب.

مارقاريتا

- لكنى سمعت عن الجنوب كل خير من أناس آخرين، وزكَّيْت أنت قول ما سمعت، وأنت وقع لك فيه كل الخير أيضا.

- وها أنت والحاضرات ستسمعين عكس ما سمعت وخبّرتك عنه من قبل.. اسمعى حكاية باولا، ثم فكّرى ألف مرّة قبل أن ترحلي إلى الجنوب، وأقول ليس كل الجنوب مرّة أخرى.

كاترين:

- ماذا حدث لباولا المسكينة بالظبط؟

- ميرى: خبرينا بالله عليك.

اعتدلت مجدولين فى جلستها ثم أخذت تسرد الحكاية من البداية.

قالت:

- سمعت باولا: الأخبار السارّة عن الجنوب، فى إطار الجذب السياحي، من خلال الصحف والإذاعات، وروايات العائدين من الشماليين الذين قاموا بزيارات للجنوب.. أخبار تقدم فى هالة من الدعاية المغرية والجالبة للسوّاح، من أجل التفرج على ما فى الجنوب، من مزارات ومعالم شهيرة فى الآثار التاريخية القديمة، حيث تعاقبت على حكم تلك الأمصار، إمبرطوريات غابرة: أوربية وشرقية: ابتدأ من الفينيقيين إلى الرومان، والوندال والبزنطيين والعثمانيين، ونهاية بالاستعمار الفرنسي، والإيطالى وحتى الإسبانى، فى العصر الحديث، هذا إلى جانب الطبيعة الخلاّبة، من صحارى شاسعة لها خصوصيتها، وشواطىء رملية ساحرة، وبحر نظيف وجميل صالح للسياحة فى كل الأوقات، كذلك جبال مغطاة بالأحراش الثلوج تحتها تشرق الشمس فى جزء من ذلك الجنوب، بحيث تجتمع أوقات السياحة والتزلق على الثلوج، كل هذا فى جنوب البحر المتوسط، وأخبار كثيرة سارة سمعت بها باولا، الأمر الذى جعلها تقرر شد الرحال، إلى تلك الربوع دون إبطاء.

ذهبت إلى أحد بلدان الجنوب، تغريها تلك الدعاية، ويهزها الشوق وحب الاستطلاع إلى اكتشاف عالم جديد لم تتعرّف عليه من قبل.. هاجرت هجرة عكسية إلى الجنوب هجرة لمدة مؤقته، شهرا أو ما دونه، هجرة للسياحة وليست للإقامة الدائمة كما قررّت فى البداية، وليست كما يفعل بعض الشماليين من الأثرياء، والمشاهير من الكتاب والشعراء

والفنانين الذين طاب لهم المقام فبنوا دورا فى بلدان الجنوب وقرروا: لا عودة إلى الشمال.

قالت كاترين:

- هل فى الجنوب ما يغرى إلى هذا الحد؟!، وفى الشمال مغريات كثيرة لهؤلاء المشاهير والأثرياء تشدّهم إلى أوطانهم الأصلية.

- لكن فى الجنوب: الشمس والمناخ المعتدل والشواطىء الجميلة، والبيئة النظيفة، قالت: مجدولين.

قالت ميرى:

- وفى الجنوب عوامل جذب أخرى تغرى بالإقامة فيه كما سمعت.

- نعم فيه خير والكثير من الأشياء الجميلة.. هناك الحميمية بين الناس.. العلاقات الاجتماعية مترابطة، والمحافظة ملحوظة فى الجنوب، ليس هناك تفسّخ، ولا انحلال.. الحياة بسيطة وغير معقدة، المال قليل يكفى للمعاش والحياة ليست غالية التكاليف، كما هو الحال هنا، والضرائب غير مرتفعة.

كاترين: سوف لا نقاطعك بملاحظات جانبية مرّة أخرى،

أكملى لنا قصة باولا.

- نعم قررت باولا السفر إلى الجنوب كما أخبرتنى، رفقة آخرين فى رحلة جماعية، كانت إحدى شركات السفر والسياحة قد حجزت لهم الفندق إقامة وإعاشة، ورحلات داخلية إلى الصحراء، وبعض الواحات

والمعالم الأثرية التى يزخر بها الجنوب، آثار تدلّ على حضارت دارسة وجدت خلال أحقاب قديمة من الزمن.. فى تلك الرحلات الداخلية إلى واحة فى الصحراء، تعرّفت باولا على شاب من عائلة وضيعة فقيرة تعيش على هامش الحياة، ليس بين أفرادها متعلّم واحد، إلاّ هو كان قد تلقى بعض الدروس فى مبادئ القراءة والكتابة، فى مراحل التعليم الأولى، ثم انقطع عن الدراسة، والتحق بمصنع صغير للنجارة، يستعين به صاحب المصنع على عمله كصبيّ مناول، كان المصنع البسيط فى شارع صغير يجمع بين دكاكين الحدادة والنجارة، ومهن أخرى تختص بالصناعات التقليدية.

قضى هذا الشاب طفولته خادما فى ذلك الدكان الصغير للنجارة يسخرّه صاحب الدكان فى خدمات هامشية، وحين بلغ سن المراهقة، أخذ يرافق السوّاح يتحدّث معهم بكلمات جمعها من هنا وهناك، فرنسية، وألمانية، وإيطالية، يخلط بينها أحيانا مستعيناً بالإشارة من يده، ولفتة من رأسه، وأحيانا يغمز بعينه، كان له حضور عجيب، وجاذبية خاصة، تأسر الذين يفرض عليهم مرافقته كدليل لبعض معالم الواحة، أو إلى حوانيت بيع الهدايا والتحف التقليدية، معتديا بذلك على اختصاص الدليل السياحى المعتمد، للمرافق للمجموعات السياحية حين تزور الواحة.

كان الموجز من سيرته الذاتية المتقدمة، قد علمتها منه باولا فيما بعد، حين ارتبطت به وعاشرته عن قرب.

- كاترين: وهل ارتبطت به فعلا وعاشرته؟!

- مجدولين: وكيف حدث لها ما حدث، من سوء مصير، وحكاية غريبة، كما قلت لكنّ؟ إذا لم تعاشره وتعيش معه؟!!

- ميرى: ذكرت الارتباط به.. هل تزوجته فعلا؟!

وذلك هو الجزء المثير فى الحكاية.. فهى قد تزوجته فعلا وعاشت معه أياما رأت فيها الويل، ذاقت مرارة القهر والظلم حتى الثمالة، وكادت أن تفقد عقلها، وأخيرًا نفذت بجلدها، وعادت إلى بلدها ويدها خاوية من شقاء عمرها.

- مارقريتا: كلمّا استمعنا إلى طرف من هذه الحكاية حكاية باولا - ازددنا شوقا لسماعها كاملة.

قالت مجدولين:

(10)

- ستسمعنها كاملة، وبتفاصيلها، ففى هذه الحكاية عبرة لمن يعتبر.. إنها دراما مثيرة، وفيها فصول ترقى إلى التراجديات ولا أخفى عليكنّ حين سمعتها، كاد أن يصيبنى الغثيان،، وكدت أن ألعن الجنوب الذى عرفته مرحبا ودودًا لمن يزوره، شعبا كريما وأرضا طيبة، ولولا أنّني استدركت أن فى كل مكان وزمان. هناك الشواذ، ولكل قاعدة استثناء، ولا أحد يؤخذ بجريرة أحد، وأن فى الشمال كما فى الجنوب أمثال هؤلاء الذين هم كالطفح الذى يظهر على الجلد، لا بد أن نعالجه بالدواء، أو يهمل فيموت.

- كاترين: قلت حقّا.. ألا وصفت لنا كيف كان هذا الشرير؟

- كان شيطانا رجيما، أو لنقل إنسانا كان الوسواس الخناس قريباً منه، تعلّم فى مدرسته، وتتلمذ على يديه، كان أستاذه ومستشاره الأول، ومرجعه الوحيد.

كان كما وصفت باولا: له مواهب فطرية خارقة للعادة، ذكاء حاد، وبديهة حاضرة، وسرعة فهم لما يدور حوله، كانت له قدرة عجيبة على قلب الحقائق، بارع فى الحيلة والمكر والخداع، كان السوء ومن أوصافة الشخصية: كان أكرت الشعر قصير القامة - أقربهم إلى الأرض أقربهم إلى الشيطان - له قدرة فايقة على الإقناع، نشيط الحركة، يستوعب بسرعة ما يسمع من لغات: حتى لغتى المحلية. قالت باولا تحدثت بها معه فى بعض المرات على سبيل الإلمام بها كما طلب منى ذات مرّه وجدته يستذكرها، دون أن ينسى منها كلمة واحدة، كان فى حفظ اللغات عقلا الكترونيًا، لذلك أتقن الفرنسية والألمانية والإيطالية فى أشهر معدودة، حين أصبح يرافق المجموعات السياحية بتصريح من السلطات المحليّة، التى اعتمدته كدليل سياحى يتعامل مع زوّار الواحة من الأجانب الشماليين، ولهذه المواهب التى يتوفّر عليها، كانت له حظوظ عند السائحات النساء.

كانت باولا صيده الثمين، الذى أوقعها مصيرها بين يديه، رأت منه المصائب، بعد أن ارتبطت به وعاشرته، وعرفته عن قرب، واكتشفت أمره لكن بعد فوات الأوان، وهي الآن تعض أصابع الندم على ذلك اليوم الذى عرفته فيه، وجرّها هو بأسلوبه الساحر إلى الهاوية التى

تردّت فيها، وما حاق بها من مصير أسود كما قلت لكنّ من قبل وقصته المرأة طويلة وطويلة جدا وفيها من المصاعب والمتاعب التى عاشتها على يد ذلك المجرم النصّاب ما لا يحتمله بشر.. إنها مأساة وهذا ما يجب أن توصف به.

- ميرى: ألم تنتبه إلى نواياه السيئة بسرعة، وتستدرك أمرها قبل أن تتورط معه؟

- كما أخبرتنى: رأت فيه جانبا لينًا فى البداية، ظنت أنه لن يتبدّل لكنّه لون الحرباء سرعان ما تلوّن بأكثر من لون.. فى البداية أظهر لها وَجها وضيئًا مبهرا ومذهلا، وأبدى نعومة لا تقاوم، هى: نعومة الحية السامة الرقطاء، وبعد أن تمكن منها، أو لنقل حين أغواها، ووقعت فى شراكه، وتيقن من عدم إفلاتها من قبضته، ضل يضيّق عليها الخناق عقدة بعد أخرى.. نفث فيها سحره، خدّرها ثم سلب منها إرادتها، فاصبحت طوع بنانه، تعمل بأمره، ولا تحرك ساكنا إلاّ بمشورته، حتى صارت لا حول لها ولا قوة، وأصبح هو الآمر الناهى، والمسيطر عليها، المتصرّف فى مالها ومصيرها، تنقاد له بلا مقود، وتسير حيث يشير، لا تناقشه فى أمر، ولا تقول شيئا عدا السمع والطاعة.

- كاترين: يا لها من غبيّة، كيف يسيطر عليها هذا الشيطان وبماذا؟ وقد علمنا منك أنها قالت: هو ليس من الرجولة اللافتة، حتى فى مقوماته الشخصية، فهو قصير القامة كما قالت ولم تذكر له صفات أخرى تأسر

المرأة، وتأخذ بلبها، كالجمال الرجولى مثلا، أو بعض الصفات التى تميزه وتعجب المرأة.

- قلت لكن: قالت.. إنه ساحر نفّاثا فى العقد، يفعل بالمرأة ما يشاء، بشكل غير منضور، يخدّرها بنقطة من لسانه يسقطها كما تفعل الحرباء مع فرائسها من العناكب والفراشات والحشرات، يقتلها دون أن تحس بشىء، يطرحها على مائدته ويضل يتلذذ بالطعام.

- ميرى: هذا ليس من البشر.

- مارقريتا: قالت مجدولين: إنه شيطان رجيم.

- مجدولين: نعم هو ذلك الوسواس الخنّاس، كما أخبرت باولا حين ظهر لها بعد ذلك على حقيقته.

- كاترين: الخلاصة ماذا فعل بها هذه المسكينة المغفّلة والغبيّة.

- القصة طويلة، ومحزنة فى نفس الوقت، وفيها درس يجب أن نتعلّمه جميعا حين نلعب مع الرجال، بالطبع ليس كل الرجال وإنما أصناف من الرجال، فالمرأة عليها أن تكون حذرة ومحطاطة من الجنس الآخر فى جميع الأحوال، هو جنس خشن كما يصفونه، لكن فيه من يكون أكثر نعومة من أجود انواع الحرير، حين ينصب الحبائل والشراك للمرأة.

- كاترين: المرأة الغرة والساذجة، هي التى يضحك عليه الرجل أما المرأة بنت حواء بحق، فهى تروّض الرجال وتلعب بعقولهم وعواطفهم.

- مارقريتا: تلعب بعواطفهم.. هذا صحيح.. أما بعقولهم ففيها تعميم.

- ميرى: عندما تلغى المرأة عقل الرجل لا تبقى له إلاّ العاطفة.

كاترين: وتبقى له الرغبة، وهى الطريقة الأسهل لتقوده حيث تشاء وكيفما تشاء

قالت مجدولين:

- تلك هي التى تعرف من أين تؤكل الكتف.

- لكن بعض الرجال، لا تقدر على ترويضهم بسهولة، ويسقطون إلاّ بعد جولات فى الميدان قالت: ميرى.

- مجدولين: فى النهاية يسقطون.

- ليس كلّهم.

- جلّهم

- تعود كاترين قائلة: لكن صاحبتك باولا اسقطها الرجل بالقاضية من البداية.

- لأنها غرّة، وساذجة فى نفس الوقت.

- كاترين: هى غبيّة، وليست المرأة غرّة وقد تجاوزت سن المعاش.

قالت مجدولين:

- هذا صحيح.. هى غبية، وهو ذكي جدا وساحر كما قالت.

- كم من النساء يقعن ضحايا الرجال فيصبحن نادمات

- الأشرار من الرجال، وليس كل الرجال أشرار، إن الرجل تاج تضعه المرأة فوق رأسها إذا كان شهما وصاحب مروءة.

- هذا صنف نادر الوجود، وإن وجد فلا تضفر به إلاّ المحضوضة.

قالت مجدولين:

- أنا كنت محضوضة مع مبروك.. ثم كان الشاب الذى حدثتكم بقصته، ذلك النبيل العفيف: طالب العلم الذى أصبح عالما فى الجامعات.

قالت كاترين:

- وبعدها؟ ألم يخذلك الحظ فى بعض المرّات وأنت الزائرة المدمنة للجنوب وأهل الجنوب؟!

- حدث أن وقعت فى مطبات ومزالق خفيفة.. قوّت ظهرى وأعطتنى مناعة أفادتنى كثيرا بعد ذلك.

قالت ميرى:

- يقولون الضربة التى لا تكسر الظهر تقوّيه.

- كاترين: لكنها ضربة على كل حال، وعلينا تجنّبها.

- ليس هناك من امرأة لم تتعرض لضربات، ولو خفيفة، قالت: مرقاريتا.

قالت ميرى: تستحثّ مجدولين على مواصلة حكاية صاحبتها

باولا.. وكيف كانت ضربة باولا؟

- مجدولين: قاسمة للظهر.. أحاط بها ذلك الشرير، فسلب منها إرادتها أولا..

شلّ عقلها عن التفكير.. انقادت كما أراد لم يكن متعجلا فى إحكام السيطرة عليها.. كان يرتب لذلك بهدوء تام، يدرس خطواته واحدة بعد الأخرى، يرسم الخطط بخبرة كبار المجرمين، خطط إجرامية ينفذّها بجرأة عتاة المجرمين.. أوهمها أنّه يحبّها حبا لا مثيل له، أظهر لها ذلك فى تعامله معها كأنه عاشق متيّم، لازمها ملازمة الضل لصاحبه خاطب فيها العاطفة، دغدغ مشاعرها، أشبع فيها رغبة مكتومة، وحنانا مفقودا، أشعرها بلذة الحياة، وجمال الدنيا، وأن العمر لا يجب التفريط فى لحظة منه، العمر فسحة علينا أن نقدرها ونستفيد منها.

كان فيلسوفا ساحرا، وكانت طيبة إلى حد السذاجة، تقية طاهرة لا تعرف المكر والخداع، بها غفلة، حسنة النوايا، تفترض فى كل الناس كريم الأخلاق، وكان هو عكسها على طول الخط، كانت المسكينة لقمة سائغة له، التهمها ليس على عجل، كانت وليمته التى وضعها على المائدة، وأخذ يتناولها قطعة قطعة.

ألم أقل لكنّ: إنه ساحر شرير، وإن الشيطان نفسه أحيانا يستعين به، كان الشيطان أستاذه، فأصبح التلميذ يذكرّ الأستاذ ببعض المعلومات، ويصحح له الخطط، ويساعده فى حل المعضلات.

قالت كاترين:

- ومن أين لهذه المسكينة أن تفلت من قبضة هذا الشيطان الأكبر؟!

- لم تجد حيلة ولا تدبيرا، هي أصلا لا تعرف الحيل، استسلمت دون مقاومة.

- وفعل بها ما فعل؟

- فعل بها الأفاعيل التى يعجز اللسان عن وصفها.

- إن حكاية هذه المرأة تثير الانتباه والشفقة، ومنها نستخلص الدروس.

- بالله عليك يا كترين.. دعيها تكمل، قالت ميرى.

- مارقريتا: ولنا فى غيرنا عبرة.. إذا ما استفدنا من الدروس.

عادت مجدولين تكمل الحكاية، قالت: عرض عليها فى البداية الزواج، كان يظهر رغبة متلهفة، تودّد إليها واستعطفها، أحاطها بهالة عشقية لا مثيل لها، وهو ممّثل بارع.. نفث فيها من سحر اللسان، الأمر الذى جعلها لا تناقشه فى أمر، فأخذ يحبك المؤامرة.

- كاترين: تزوجته؟!

- تلك كانت الخطوة الأولى

- وبعدها؟

- بدأت تتجمع خيوط المؤامرة.

- هنا بيت القصيد، قالت كاترين.

(11)

- من هنا بدأت، المأساة، دبّر أن تستدعيه لزيارتها فى بلادها حين تعود، أولا ليعرف عنها كل شيء..، وقد عرف عنها الكثير حين كان يعيش وإياها كزوجين، وثانيا ليعقد عليها رسميّا، وبأوراق ثبوتية، ليكون له حق فى الإقامة معها فى بلادها، وهو يفعل هذا كخطوة أولى، لجرها إلى حبائله، والاطمئنان إليه، وليبعد عنه الشبهات، فلا هو كان ينوى الإقامة فى بلادها، ولا الاحتفاظ بها كزوجة، كان طموحه أبعد من ذلك، كان ينوى لها الشر.. يبيّت الاستيلاء على ما تملك: سرقة أموالها ثم يرمى بها فى الطريق كشيء مزهود فيه.

- وكان له ما أراد.. يظهر ذلك من سياق الحكاية، قالت: كاترين.

- هو ما قالته بالظبط.. جرها إلى مخططّه كما رسمه ونفَّذه ببراعة..

استدعته كما اقترح عليها.. عقد زواجها رسمًّيا بإرادتها، كانت هي على حسن نية، وكان يفعل ذلك بخبث، يظهر لها دائما الجانب اللين فيه: الود والحب والبراءة، وهو ليس برىء من المساوى والخبائث.. كان يخاطب فيها العاطفة دائما، يضرب على الوتر الحسّاس عند المرأة.. صدقته لأنه كان يجيد التمثيل، وضعت فيه ثقتها كاملة، أصبح هو المتصرف فى كل شيء، هو وليُّ الأمر والتدبير بالنسبة لها، فاجأها يوما وهما على سرير السعادة.

قال: حبيبتى.. ما رأيك فى تلك المدينة التى على شاطىء البحر

الجميل، يقابلها الجبل من الجهة الأخرى، مغطى بأشجار الصنوبر، ذلك المنظر الساحر.. أتذكرينه؟

- نعم أذكر كل شيء: الجبل، والبحر، وتلك المدينة الهادئة الساحرة بموقعها الفريد.

- وأنا أيضًا أخذت بعقلى تلك البقعة من الأرض العامرة بالمبانى الفخمة، التى ينعم فيها الناس بجمال الطبيعة، سحر البحر والجبل معًا، مدينة صغيرة عصرية هادئية، فيها من أسباب الحضارة ما يغرى بالإقامة فيها مدى الحياة.. صحيح هي مدينة فى الجنوب وقد لا تروق لك لأسباب، لكنها والله: إنها لدرّة نادرة بين المدن إن صحّ التعبير، وإن الحياة فيها تعتبر نعيما مقيما.

قالت:

- وكم تمنيت حين كنا فيها أن تكون لنا دار فى تلك المدينة الجميلة التى يأخذ موقعها: بين الجبل والبحر بالألباب، كذلك، هواؤها الطيب النقى.. إنها والله لجنة على وجه الأرض كما قلت.

- الأمر سهل يمكنك أن تشترى دارا هناك، أو أرضًا مسموحًا فيها بالبناء، وتنشئي دارا كما يروق لك ونعيش: أنا وأنت هناك بعضا من شهور السنة، ونأتى هنا متى شئنا.

- وهل فى الإمكان ذلك؟.. هل مسموح بأن نمتلّك نحن الأجانب عقارا هناك؟!

- يمكن ذلك وبسهولة.. الأجانب مسموح لهم بتملك العقارات سواء للسكن أو للاستثمار.

- إذًا علينا أن ندرس مثل هذا المشروع: دارا للسكن ومشروعا للاستثمار.

- ولا تتصورى: أن مشروعا متوسطا للاستثمار، ودارا للسكن يكلف الكثير.

- أنا لا أعرف هذا حتما، لأننى أجهل أسعار الأرض هناك، ولا تكاليف البناء، ولا المشروع الذى تكون جدواه الاقتصادية مربحة، هذا أمر عليك أن تبحث فيه أنت وتستشير أصحاب الاختصاص.

- لا عليك فى هذا كلّه، هذا ما سَأقوم به إن شاء الله إذا اقتنعت بالفكرة.. فقط أريدك أن تكوني مطمئنة، وأن تثقى فيّ، وكل ما أشير به عليك هو فى مصلحتك يا حبيبتى، وأن يكون على يديّ كل الخير لك.

- وهل ما زلت تشك فى ثقتى فيك.. أنا يا حبيبى ومالى كلّه لك، أنت دنيتى وسعادتى، وعمرى كلّه، وأملى فيك، أنت روحى إن لم تكن تعرف هذا من قبل؛ فها أنا أصرح لك به.

- لا أشك فيما تقولينه مطلقا.. لكن لا بد لى: أن أستشيرك فى مثل هذه المسائل، وخاصة فيما يتعلق: بالماديات، فأنا أتحسّس منها، لأنها: تفتح باباً للشبهات، ليس منك هذا واثق منه، لكن ربما من المعارف والأصحاب، وكلّنا له أصحاب ومعارف.

- ألم تسمع منّى: ان ثقتى فيك ليس لها حدود؟ وأنا ومالى بين يديك.

- سمعت هذا وأقسم أنك صادقة، لكن مرّة أخرى أريدك مطمئنة، وأن ما أفكر فيه سأنفّذه، ولصالحك أولا وأخيرا.

- قل فى صالحنا.. ألسنا واحدا.. أنا وأنت يا حبيبى لا يفرقنا شيء مدى العمر.

- هذا يقينى.. أنت لى وأنا لك وحدك.

جاشت عواطفها حين سمعت هذا القول المعسول، وهي غافلة عن نوايا صاحبها.. قامت من مجلسها قبالته وهجمت عليه تقبّله ثم تدفن رأسها فى صدره.

تيقّن أن ضربته كانت ضربة معلّم خبير، وأن منطقة العواطف حين تفتحها فى المرأة تكون قد فزت بكل شيء.. التصق بها ودسّا رأسه أكثر فى صدرها.. تحسّسها جسدا ومشاعرا دخلت فى دوّامة التخدير، مثل دور أنثى العنكبوت حين تبدأ فى التهام الذكر.. كانا يجلسان فى الصالون، نقلها إلى مكان أكثر رومانسية، غزاها الغزوة الكبرى، استفاقت من غشيتها اللذيذة، وقّعت على بياض عن كل شيء.. استراحت فنامت. أما هو فقد ضل يقضًا يحسب الحسابات، الصفقة رابحة لا شك، سال لعابه، ضل إلى وقت متأخر من الليل، كيف تكون الخطط وكيف يكون التنفيذ.. السرعة عامل مهم فى مثل هذه الحالات، الآن الحديد ساخنًا،

فقط عليه أن يطرقه ليشكّل ما يريد.

استيقضت هي متأخرا عن ذى قبل، تفقّدته، ما زال نائما لأنه هجع قرب الفجر، بسب الأحلام التى راودته فى اليقضة، اعدت طعام الإفطار.. انتظرته ساعة من زمان، بعدها قام استقبلته كعادتها بوجه باش، أعدّت له الحمّام.. جاء فجلس قبالتها على مائدة الإفطار قال لها:

- كنت رائعة .. البارحة.

- أنت الأروع.. أنا أذكر: أنّنى كنت فى كامل وعيي حين انتقلنا من مكان إلى مكان.. بعدها غمرنى الطوفان غشيتنى سعادة لا توصف، بعدها نمت على أحلام سعيدة حتى الصباح.

- وكيف أنت الآن؟

- أسعد إنسانة فى الدنيا.. أنت يا حبيبى حظي السعيد الذى بعثت به الىّ السماء.

- وأنا مثلك لا أملك إلاّ أن أشكر القدر الذى وضعك فى طريقى، أنت أيضا هديتى من السماء.

- نحن الاثنين شاكرين، ومن شكر زيد له.

- هو ما تقولين، وفى قادم الأيام ستكون سعادتنا أكثر.

أراد أن يخرج من موضوع الحوار، فسألها ما هي مهامك هذا الصباح؟

قالت:

- ستذهب إلى البنك لتستخرج مستندا برصيدها حتى تاريخ ذلك اليوم، ثم تقصد مكتبا للعقارات تستفسر عن الأسعار الحالية فى السوق.

- أما أنا فسأذهب إلى ذلك المقهى الذى جلسنا فيه يوم الأحد معًا، على ضفّة البحيرة.. تعجبنى كثيرا تلك البحيرة الجميلة بنافورتها التى ترتفع عاليا تنثر الرذاذ حتى يكاد يصل إلى السحب العابرة، خاصة فى هذا الفصل:- الخريف لا شك أنها درّة جنيف، ومعلم من معالمها الشهيرة.

نعم هكذا هي البحيرة، وأهل جنيف سعداء بها، بحيرة تتوسط مدينة جميلة تحيط بها الجبال من كل جانب.. إن هذه المدينة الشهيرة فى العالم، ما من أحد إلاّ ويتوق إلى زيارتها.. إنها تقع فى سهل منخفض تحيط بها جبال عالية تتوج قممها الثلوج طوال فصلي الشتاء والربيع: هي مصدر مياه البحيرة حين تذوب مع بداية فصل الصيف، لذلك كانت تلك البحيرة التى تغطى رقعة كبيرة من مساحة المدينة، متوسطة بين الأحياء، وتفضى إليها الشوارع والأزقة، يسلكها السكان إلى ضفاف البحيرة من كل الجهات.. كانت متنفّسا للمدينة ومنتزها جميلا، تنتشر فيه المقاهى والمشارب والمطاعم، قريبًا منها الأسواق، ومقار الشركات، والبنوك، والفنادق، والمرافق العامة، وغيرها من مكاتب الخدمات، وجنيف مدينة نظيفة، هادئة، منظمة، متميزة، لها ألقها الخاص، وزائرها يحترم فيها هذه الخصوصيات، ترحب به وتحتضنه بدفئها وحميتها، ورقى أهلها وحضارتهم، والسكان فى هذه المدينة يتكلمون الفرنسية لغة الفخامة والحضارة، مذهبهم الحياد، ومدينتهم مفتوحة للجميع،

لهذا كانت مدينة المال والأعمال، والمنظمات على اختلافها لها فيها فروع ومكاتب، ولعلّ أشهر تلك المنظمات: منظمة العمل الدولية، ومنظمة حقوق الإنسان، أما منظمة الأمم المتحدة فلها فيها مكاتب لكل نشاط تقوم به فى أرجاء العالم.

والشركات العملاقة العابرة للقارات لها فروع ومكاتب فى جنيف، وجنيف خزينة العالم المالية. كما يقول عنها أساتذة التجارة والاقتصاد.

جلس زوج باولا فى أحد المقاهى الفخمة على ضفة البحيرة قريبا من شقة باولا فى عمارة فخمة فى الطابق الرابع.. أخذ يرتشف من فنجان قهوة أمامه، بعدها سحب سيجارة من علبة وضعها فوق الطاولة.. أشعل السيجارة، وضع الولاعة فوق العلبة.. سحب نفسا طويلا، نفث الدخان تابعه بنظره، حيث امتزج بالهواء. الرطب مشكلا خيطا لا يختفى بسرعة.. بدأ عقله ينشط أخذ يستعرض الأفكار التى ترد واحدة بعد الأخرى، أفكار كلّها شريّة، لا تخرج عمّا ينضح به داخله من تدبير سيء: خداع ومكر، حيل ونصب للشراك، تدبير شخص منعدم الضمير، الإيقاع بالغير، السرقة والاستيلاء على ما ليس فيه حق، كان يريد العمل بكل الوسائل للوصول إلى الغايات، كان يبرّر كل وسيلة لتصب فى مصلحته هو لا غير.. يسأل نفسه لماذا الغير بما فيهم باولا: يملك العقارات والأرصدة فى البنوك، والمتاع المنقول وغير المنقول؟!

كثيرون هم، هؤلاء الذين منهم باولا؟ لماذا وهو صفر اليدين؟

فى الأمثال عندنا، يقول لنفسه: «اللى ما يعطيكشى فكله» بسأل في سرّه، ما هي فلسفة هذا المثل؟ الظاهر من تفسير هذا النص هو: من يملك الأشياء بما فيها الأموال، ولا يعطى لغيره، على غيره أن يفتك منه حاجته عنوة، أو يأتي بأية وسيلة أخرى؛ الحيلة أو السطو وحتى السرقة، يقول له عقله إن هذا التفسير ليس بمستقيم ولا هو من المنطق في شيء، وإنما التفسير الصحيح هكذا يكون؛ أن معنى آلافتكاك: ليس بالقوة أو أية وسيلة غير مشروعة، إنما آلافتكاك: يكون بالجهد المبذول والمنافسة الشريفة في معترك الحياة للحصول على النصيب المقدر من المال الحلال... غير أن قرينه وملهمه ومرجعيته: الشيطان يكون قريباً منه، يقول له: لا ليس كل الأمور خاضعة للمنطق والحق... وهل من المنطق والعدل: أن يكون لباولا مثلا رصيدا كبيرا في البنك، ولها شقة فخمة على ضفاف البحيرة في جنيف، أغلى بقاع العالم، وأنت ليس لك حتى شاة عجفاء أمام كوخكم الحقير على هامش تلك الواحة المزروعة في مهمة بعيد داخل الصحراء ثم قارن حياتك السابقة وأنت يسخّرك ذلك النجار البخيل، صاحب الحانوت القذر، في أعمال وضيعة، ويستغل جهدك مضاعفا نظير دراهم قليلة، وأنت بذلك مجبر على تلك الصخرة من أجل الحاجة والعوز، الذي عليه أسرتك المعدمة... قارن بين حياتك وحياة باولا هذه التي تملك ما تملك، وهي في بحبوحة من العيش، هنا وأين ما ذهبت سائحة في بلاد الدنيا، أو لم ترها تصرف الأموال بغير حساب، عندما كنت معها في أحد فنادق تلك المدينة الجميلة بين الجبل

والبحر؟ وكيف خبَّرتك عن سياحاتها في بلاد أخرى في كل أرجاء العالم، وهي لا تفعل شيئا باعتبارها محالة على المعاش، وتقبض كل شهر مبلغا من المال، لو كان لك وفي يدك لاشتريت به الدار والأرض والأنعام، فتصبح غنيا يشار لك بالبنان بين المتساكنين في حيكم من الأكواخ في تلك الواحة، وأنت يا رجل أمامك فرصة ذهبية عليك أن تستغلها وبسرعة قبل فوات الأوان، من أدراك أن باولا، هذه التي قالت لك أنت حبيبي وتاج راسي وأنا ومالي ملك يديك، من أدراك أنها لم تكن مزاجيّة وغدا ترمى بك مرة أخرى إلى سراديب الفقر لتعضّك الحاجة من جديد، ولا تجد مفرا ولا ملجأ تلجأ إليه، عد إلى رشدك يا رجل وتدبرّ أمرك قبل أن تجتازك الفرصة وتندم. وهو يستمع باطنا إلى هذه الوصايا الثمينة، والتوجيه الرشيد من الشيطان الرجيم، تكونت عنده قناعة شرّية، قررّ ألا يحيد عنها أبدا، بدأ يرسم، ولتكن ضحيته هذه المرّة أوّل تجربة في الإجرام: باولا... باولا التي جاءت به على حسابها وذللّت له كل الصعاب في الحصول على الإقامة فى أجمل بلاد الدنيا، وأغدقت عليه كل الخير، سلمت له نفسها وماها رهن إشارته.

هي التي تكون أول ضحاياه، ليس هناك غيرها في المنظور الآن على الأقل، وربما تبدأ بها التجربة، ثم بعد ذلك ينتظر ما ستلده الأيام. هو مازال يطارده شبح الماضي.. ماضيه التعيس حين نشأ في وضع مزري، أسرة وضيعة، فقيرة لا وراءها ولا قدامها شيء عدا العوز والحاجة والخصاصة، وقساوة الطبيعة متحالفات في ذلك الصقع المهمل من

الأرض: بقعة كئيبة تجاور واحة محدودة الموارد إلا من شجيرات نخل تجود عليها السماء أحيانا بمطر شحيح يسقط على التلال المجاورة فتسيل المياه فتغذيها وتنعشها إلى موسم قادم، واحة نائية في صحراء واسعة قاحلة تصل إليها أفواج السوّاح في موسم السياحة الشتوية، مدّة لا تتجاوز الشهرين ينقطع عنها ما يجود به السواح من دراهم معدودة، يشتروا بها بعض الهدايا من المصنوعات التقليدية. كان يسكن كوخا من القش مع عائلة أفرادها سبعة أب وأم، وثلاث بنات وولد يصغره، يلازمهم الفقر المدقع منذ بدأ يدرك الأشياء والعالم من حوله، إلى أن التحق بخدمة ذلك النجار، طافت هذه الذكريات بخاطره وهو جالس في المقهى يترقّب باولا، التي ذهبت تستخرج مستندا برصيدها في البنك وواعدته اللحاق به بعد ساعة على الأكثر.

ها هي جاءت قبل الموعد، فرحة مستبشرة، ينطق وجهها بالسعادة والسرور.. تسحب كرسيا وتجلس قبالته تقول:

جئت قبل الموعد، وأجّلت المرور على مكاتب السمسرة في العقارات إلى وقت آخر، لأبشرك يا حبيبي: بأن رصيدي في البنك وجدت فيه فائضا: هو الفوائد التي تحسب على الودائع بفائدة فكانت مبلغا محترما... أنت يا حبيبي... وجهك خير علي وبركة.

كان ينظر إليها وهي تخبره برصيدها وأرباحها، فرحها ظاهر على وجهها، وذهنها خال من كل احتراز وتحفّظ، تجاه صاحبها الذي كان

يستمع إليها باهتمام وانتباه شديدين ولعابه يسيل... هي تطرح أمامه كل أوراقها بصدق وحسن نية... قلبها لا يخالطه الشك وسريرتها نقية طاهرة، تريده أن يشاركها فرحها.

أخذت فنجانا من القهوة على عجل، بعدما ألقت بكل أسرارها المالية أمامه، واستأذنته في أن تلحق بمكاتب العقارات قبل أن تقفل أبوابها... قالت له: سنلتقي في البيت.

ضل بعدها في المقهى قرابة ساعة وقتا قدّره ستستغرقه هي في المرور على مكاتب العقارات، كانت له جولة أخرى في هذه الساعة مع الأفكار الجهنمية التي ينوي تنفيذها حتى لو كانت مع باولا زوجته وحبيبته حين يخاطبها بنية غير صادقة، وكذبا ونفاقا.. قرر أن يبدأ جرائمه مع باولا وبعدها ربما شملت آخرين غيرها من الجنسين.. هكذا هو كان خلق لفعل الشر ولأن الشيطان أستاذه ومعلّمه، فهو لا يحيد عن مناهجه، يطبقها كيفما يشير عليه، بتفاصيلها، وبكل الجزيئات. عاد إلى البيت: بيت باولا، ولأنه يتعاطى الخمر قصد رأسا بارا صغيرا ملحقا بالمطبخ أخذ منه ما يروق له من شراب وأحضر وعاء به أنواع من المكسرات، وجاء بمنفضة للسجائر، وجلس في الصالون الضخم يشرب ويدخن ويفكر في المؤامرة طبعا... ستكون التجربة الأولى مع باولا الطيبة الساذجة التي تثق فيه، وقد ألقت له بقيادها، إنها الضحية الغافلة، والفريسة السهلة، لا تكلفّه عناء جهد، ولا طول تفكير.. لقد ألقى لها بالطعم حين حدثها ببراءة ظاهرة يخفي ورائها مكرا محكما، ونوايا سيئة، وفعلا دنيئا، ذلك

الحديث حول الدار التي ستسشريها في تلك المدينة الجميلة في الجنوب، وعن المشروع الاستثماري الذي ستبعثه هناك. قال في نفسه! لنبدأ بالدار هي الأسهل والأقرب لتحقيق المآرب، وليس لها دراسات جدوى، وحسابات دقيقة، ومتابعة رقابية من جهات الاختصاص، الأمر الذي يضيق فيه مجال السرقة والتزوير وإخفاء المستندات أو استبدالها، و التواطؤ مع المقاول ومحلات بيع المواد وغيرها.

ذهب به الخاطر بعيدا.. اجتاز الحدود، والخواطر تقطع المسافات بسرعة فائقة: أسرع من سرعة الضوء في لحظة واحدة، وضعه الخاطر في ذلك المربع الذي عاش فيه ردحا من الزمان: طفولته البائسة كلها وهو فتى يافع، في حانوت النجار، عادت به الذكريات الأليمة إلى حياة البؤس والشقاء في ذلك الكوخ الحقير، تذكّر كيف كان ينام مع الأبوين وثلاث بنات والأخ الصغير في حيِّز لا يتعدى الأمتار القليلة المربعة، لباسهم أسمال بالية، وفراشهم حصير من ديس، وطعامهم وجبة واحدة تتوسط الصباح والمساء، فلا إفطار في الصباح ولا طعام في العشاء، لا نور في ذلك الكوخ، ولا الأكواخ المجاورة ولا ماء نظيف للشرب. إنارتهم ضوء الشمس في النهار، والليل ستار العيوب، الماء من آبار سطحية بعيدة عن المكان تسّاقط فيها الخنافس والحشرات وأوراق الشجر التي تذروها الرياح.. تفكر كيف كانوا يقضون الحاجة البشرية: الذكور في النهار حيث يبتعدون عن الحي يتدارون بالأحراش، والإناث عند حلول الظلام في منخفض قريب من الحي.. وهكذا عوّدوا أنفسهم

ودبّروا، فالتدبير وليد الحاجة.

قارن بين ذلك الوضع الذي لا يليق بالآدميين وبين ما وجده في بيت باولا، في شقتها المطلة على البحيرة في جنيف بين بيت الحمّام عندها، ومكان قضاء حاجتهم البشرية في خلاء لا يستره ساتر بين الفوتيل، الفخم الذي يجلس عليه الآن، والحصير البالي الذي يفترشه والده داخل الكوخ أو خارجه، وأولاده وزوجته يتحلقون حوله على التراب، بين الملحفة التي تستتر بها أمه نفسها دون ماتحتها شيء من لباس، وفساتين باولا غالية الثمن وأغلبها من حرير، أمه التي لم تضع في رجلها نعالا طول حياتها، وباولا التي تستبدل أحذية من كل شكل ولون في الصباح والمساء تملأ بها خزانة خاصة، قارن وقارن كثيرا بين أشياء موجودة هنا فى بيت باولا، ومفقودة هناك في كوخهم وأكواخ متساكنيهم، ولا وجه للمقارنة. أنكر هذا الواقع، لماذا هذا التناقض الصارخ؟ ألا يكون من العدل التمرد على هذا الوضع؟ كيف لا تكون المساواة؟!

أليس هنا بشر، وهناك بشر؟! امتلأ حقدا وضغينة أنكر هذا الوضع الغير سليم، قرر أن يتمرد عليه، وازداد إصرار على أن يغير على الأقل واقعه هو، ولو بطرق غير مشروعة، وضد النظام والقانون والحق أوحى له الشيطان: أن العدل غير موجود في الأرض، وعلى كل من يجد في نفسه القوة أو الحيلة لانتزاع نصيبه من الدنيل فليفعل، والقوة ليست القوة في العضلات والشجاعة وغيرها، القوة في الحيلة والمكر والخداع، وأن استطعت أن تسرق، أسرق وإن تدلّس وتزوّر افعل، ولا

ضير في ذلك، هكذا كان وحي الشيطان إلى تلميذه حين حلّ بساحته بعدما شرب نصف الزجاجة التي أحضرها معه من البار الصغير وكان من خمر معتق ممتاز.

دخلت باولا بسعادة غامرة وفرح أكبر، قالت على الفور: حبيبي كم أنا سعيدة، ومحظوظة اليوم!! العقارات في ارتفاع مستمر، وشقتي هذه كما قيل لي فى مكتب العقارات أصبح ثمنها أضعافا مضاعفة بسعر اليوم عما اشتريتها به قبل عشر سنوات وربما بعد عام يزيد سعرها عما عليه اليوم... أنت وجهك خير عليّ، ومقدمك فأل حسن.

-إذًا يمكننا الآن يا حبيبتي أن نفكر في المشروع الذي تحدثنا فيه بالأمس.

- نعم يا حبيبي من الآن علينا أن نبدأ التنفيذ فورا نبني الدار ونبعث المشروع الاستثماري.

- لابد أن نفكر بروية، وندرس الموضوع بتأن، وخطوة خطوة ولا نستعجل في مثل هذه الأمور.

- هذا شأنك أنت... وما تطلبه مني حاضرا، وحالا يكون بين يديك.

- وأنا عليّ التدبير وسيكون محكما، وسترين بنفسك كل شيء على ما يرام.

- هذا ظني فيك، وأنا واثقة من نجاحك بفضل تدبيرك السليم.

- رأيت إذا لم ترِ مانعا أن أعود أنا إلى الجنوب، إلى تلك المدينة

بالذات، لأبحث عن قطعة أرض نقيم عليها الدار أولا، ثم بعد ذلك نفكر في المشروع.

- كما ترى.... غدا سأحجز لك تذكرة السفر ذهابا وعودة على أول طائرة ولمدة أسبوع، أنا يا حبيبي لا أريد أن تغيب عني كثيرا.

- وأنا قلبي هنا معك، ولو أنجزت مهمتي في يوم واحد لكنت هنا حالا.

- أنا في انتظارك على أحر من الجمر، وفي شوق دائم.

- جهزي أنت كل شيء في غيابي، وحين أعود سوف لن نبقى وقتا طويلا، ثم نسافر إلى هناك لإتمام عقد شراء الأرض والاتفاق مع المقاول، ونبدأ في ترتيب كل الأشياء: الإقامة بالنسبة لك وغيرها من إجراءات رسمية عند المصالح المختصة.

-عد سريعا وستجدني جاهزة، وكل شيء على أحسن وجه.

سافر الرجل الوديع البريء ظاهرا الذي يتلفع بثوب الطهر والعفة والنزاهة، في تقدير باولا النقية الطيبة، وهو في الواقع ذئب شرس في ثوب حمل وديع، وثعلب مكار مراوغ، بل هو حية رقطاء ذات سم قاتل، ناعمة الملمس لكن في أنيابها الموت، أوصلته بسيارتها إلى المطار، ودعته بالأحضان والدموع وهي تلح عليه ألا يغيب كثيرا.. أنتحت به جانبا ودست في حقيبة يده رزمة من ورق البنكنوت ذات قيمة كبيرة، وطلبت منه إن احتاج إلى مبلغ آخر عليه أن يخطرها وستحوله له حالا بالبريد السريع.

-قال لا أعتقد أنني احتاج إلى المال في هذه المرحلة، وإنما سنكون في حاجة إليه حين نشتري الأرض أو ندفع فيها عربونا مقدما، حتى تأتي أنت وتدفعي بقية الثمن.

-تحسبا لكل الاحتمالات اطلب ما تشاء بالهاتف وسيصلك المطلوب.

-أراك بخير يا حبيبتي - هذا هو النداء الأخير لإقلاع الطائرة.

-رافقتك السلامة، ولا تنسى أن تهاتفنى بمجرد أن تضع رجلك على الأرض.

-وهل توصينني بهذا؟ لو أجد كيف اتصل بك وأنا في الجو لفعلت.

عادت باولا إلى البيت، وهي تحلم بالدار في تلك المدينة الجميلة التي ستعيش فيها مع حبيبها، كما كانت تعتقد فيه حبيبا وفيا مخلصا، وأنه حظ نزل من السماء: شاب في مقتبل العمر حلم كل فتاة صغيرة، هادئ الطبع، وديعا، خجولا، يلوذ بالصمت، ويحسن معاملة المرأة، يحترمها ويقدرها، غير ثرثار ولا كثير الكلام، وحدينات أخرى حدثت بها نفسها سرا، ولأنها من الأسرار تبسمت، وجدت نفسها في حكم اليقظة، وهي تعيد في خيالها مشاهد عاشتها ليلة البارحة، وهو يودعها- كما قال لها- ويأخذ زادا لمدة أسبوع بعيدا عنها، ساعتها ازداد يقينها رسوخا: بأن الرجل يحبها ولا يصبر على فراقها، ولا محالة هو عائد بسرعة يدفعه الشوق.. خاطبت نفسها بصوت مسموعا كأنها تُسمع

أحدا بجانبها: "حبيبي سيعود قريبا" كانت تقود السيارة انتبهت فجأة عند إشارة المرور، توقفت وهي تعاتب نفسها: كيف كانت تحلم في اليقظة، ثم واصلت السير.

وصل هو إلى الجانب الآخر من البحر بعد رحلة دامت ساعة ونصفًا فقط من محطة الإقلاع في جنيف، قصد صالة إجراءات دخول القادمين، تحسس الرزمة من الأوراق المالية التي كان قد حولها من حقيبة يده إلى جيبه، تحسبا لفتح الحقيبة من طرف موظف الجمارك، فهو لأنه بيّت النية لا يريد أن يصرح بدولار واحد عندما يعود، ومن تلك اللحظة قرر سرقة أموال باولا، وتلك الرزمة قطرة الغيث الأولى.

أخذ فندقا متوسط السعر في وسط المدينة، غرفة بسرير واحد ولمدة أسبوع وبثمن منخفض.. في صباح اليوم التالي، ذهب إلى سمسار من معارفه كانت له معه معاملات سابقة فيها غش وتحايل حين عرّفه على مشتري أجنبي يبحث عن عقار، ودفع له عمولة، هي أول قيمة مالية يتلقاها في حياته حين قدم إلى تلك المدينة، بعد أجره الزهيد الذي كان يدفعه له النجار، رحب به السمسار، قدم له سيجارة وطلب له قهوة من مقهى قريب، وهو يأمل- السمسار- أن يكون صاحبه قد تعرف على زبون يطلب عقارا، يحصل من ورائه على عمولة يتقاسمها وإياه.

قال السمسار:

- أنت من ورائك دائما الخير.... ماذا عندك؟

قال

عندي كل الخير... هذه المرّة سيكون خيرا كثيرا قريبا، وأن نتفق على كل شيء، ويضل السر بيننا لا يعلم به أحد.

أنت تأمر أمرا... هات ما عندك، وسرك محفوظا.

انتبه جيدا.. إنه السر.

نعم... السر الذي إذا جاوز الاثنين فشا.

نور الله عقلك.... السر لا يتجاوز الاثنين.

اثنان هما صاحب السر وحافظه.

هذا ما أردت تأكيده.

هات ما عندك من خير .. يا صاحب الخير.

اصغ إليّ جيدا.

كلّي آذان صاغية.

عندي زبونة- سيدة سويسرية لي بها علاقة ترغب في شراء دار هنا في هذه المدينة بالذات.

طلبها عندي.. أقصد طلبك- نسب له الطلب كي يتبين نواياه- وكن مطمئنا إلى كل شيء العمولة وغيرها.

على أن تكون دارا جميلة، وفي موقع متميز.

موجودة، وعليك أن تعاينها من الآن.

السيدة غير موجودة الآن.. لكن لا بأس إن عاينتها أنا.

فطن السمسار إلى أن الرجل مفوض من قبل السيدة، وربما هو الذي بيده كل الأمر.

قال:

حالا- ماذا إذا شئت وأنا متأكد أنها تعجبك.. وهي في السنتر.

أنا أفضل أن تكون في سفح الجبل المقابل للشاطئ.

تأكد السمسار أن الأمر بيد صاحبه، وما المرأة إلا صيدا ثمينا، اصطاده هذا الشاب مثله مثل آخرين من الشباب الذين يعقدون صفقات مع عجائز، وافدات من الشمال يتبادلون معهن منافع شتى كل وما يريد.

قال السمسار:

وما رأيك لو اشتريت لصاحبتك هذه أرضا فضاء تبني عليها دارا كما تشاء، وتبقى فضلة تجعلها حديقة واسعة؟

أنا أعرف هؤلاء الأجانب رجالا ونساء يفضلون أن تكون لهم حدائق منسقة جميلة- ملحقة بدورهم.

وهذا رأي صواب على ألا تكون غالية الثمن.

ولتكن غالية... عليها وليس عليك- أحسبها كما تريد وادفع ما تريد.

أنا معك في هذه الفكرة- فطن إلى ما يرمي إليه السمسار، من

إيحاءات- ثم إن الدار الجاهزة غالبا ما تكون معروفة القيمة.

وهناك أمر آخر ربما يكون غائبا عليك.

ما هو؟

عندما تشتري أرضا، وتشيد عليها دارا أيا كانت مساحتها، فأنت ستشتري مواد البناء على اختلافها، وتتفق مع المقاول، وأعمال أخرى كتسوية الأرض، وأعمال الكهرباء، والمياه، وتنسيق الحديقة، وملحقات أخرى كثيرة، وفي هذا كله أبواب للربح بالنسبة لك، في سرّه -السرقة- ثم إن قيامك بهذه الأعمال وتحت إشرافك تضمن عدم الغش- وهو يعرف أنه غشاش كبير- وتضمن سلامة المبنى.

نعم ما أشرت به... هذا أوفر وأسلم.

أنا لا أشير عليك إلا بما فيه فائدتك، في خاطره- قصدي النهب-

قال:

وما هي شروطك أنت؟ أنا لا أتحدث عن العمولة المقنَّنة في مثل هذه الخدمات التي تقوم بها مكاتب سمسرة العقارات... هذه ليست غائبة عني... لكن أعني النسبة التي تطلبها لتغض الطرف عن كل تبديل وتغيير، في ثمن الأرض، وفواتير البناء وكل المصروفات المترتبة على هذه العملية.

تبديل وتغيير؟ قل تدليس وتزوير... بل سرقة في وضح النهار نحن الاثنان فيها شريكان.

سميها كما يبدو لك- المهم نتفق.

ولماذا لا نتفق؟ نحن متفقان على طول الخط، مادمنا قد اتفقنا على أن يبقى السر بيننا لا يعلمه أحد.

وهذا ما تعاهدنا عليه، والمؤمن إذا عاهد أوفى كما يقولون.

المؤمن هذا صحيح.. لكن هل ترانا: أنا وأنت، من الذين يوفون بالعهد.

هي كلمة تقال، وأنا قلتها، وليس بالضرورة أن نطبق ما تدعو إليه.

يا ابني ما نقوم به أنا وأنت... خيانة للأمانة، وسرقة وتزوير. وغدر لكن كما قلت ليس بالضرورة أن نطبق كل شيء على وجه سليم، والنفس أمارة بالسوء، وأنا وأنت في السوء سواء.

هذا درس في الوعظ والإرشاد... زدنا يا شيخ عثمان.

من التوجيه والإرشاد- كان اسم السمسار عثمان- نحن في صفقة نأمل من ورائها أنا وأنت نفعا؟ أم نحن في منبر للحث على مكارم الأخلاق؟!

كما تقول نحن في صفقة، وصفقة رابحة لنتفق على شروطها الآن.

في الأمثال: المشروط أوله وآخرته سلامة.

- عليك نور.. تعرف يا مصباح.. أن في هذه الأمثال حكم ثمينة.

- لو كنا نعمل بها

- سنعمل بها أنا وأنت من الآن.

- ما هي شروطك؟

- شروطي تتوقف على المبلغ المضاف فوق الثمن الأصلي... نسبة نتفق عليها.

- وكم هي النسبة؟ لابد أن تكون قد حددتها في عقلك.

- أربعون في المائة.

- أنت مهف كبير يا شيخ عثمان.

- أنا لم أوصّفك بعد ربما بعد أن نعلم كم تريد أن تلهف أنت؟

من هذه المرأة التي ساقها قدرها إليك، سأصفك بوصف يليق بك.

- كم ترى أنت؟ كم تكون النسبة المضافة؟!

كلما زادت زادت عمولتي.

نحن لم نتفق بعد على نسبة عمولتك.

قلت لك أربعون في المائة.

لا هذا كثير -وغير معقول- أنت تريد أن تأكل الدنيا.

قل لي، كم تنوي أن تضيف على السعر الأصلي؟

مائة في المائة.

كما تشاء... وتستكثر علي أربعين في المائة؟

سيكون المبلغ كبيرا، وبالتالي ستكون نسبة مجزية، أنا أعطيك عشرين في المائة.

نتفق على ثلاثين في المائة، نسبة مناسبة لي ولك.

خمسة وعشرون فقط، أو دعني أبحث عن غيرك.

اتفقنا.

لم يكن عثمان السمسار بالرجل السهل أو صاحب الغفلة الذي يؤخذ على غرّة، وليس هو بأمين ولا عادل ولا منصف ولا صاحب مروءة، أنه متعود على مثل هذه الصفقات المشبوهة، ولا يترك نصيبه من الغنيمة، عندما تقع بين يده، ودائما يساوم ويفاوض.. يقبض ثمن المشاركة في التزوير والكسب غير المشروع، يفتك نصيبه افتكاكا. إذا وجد من يغمطه حقه، كما يبرر: إنه حق له، وهو يعرف أن ذلك باطل، وليس فيما يأخذ حقا، هو إذا لمس في من يتعامل معه في الصفقات المشبوهة، محاولة للتملص منه أو الهروب والمماطلة في دفع مستحقاته كما يسميها، وهو يعرف أنها، سرقات بسبب الطمع والجشع، وابتزاز صريح في بعض الحالات، فإذا لمس منهم ذلك لوّح لهم بعلاقاته مع الجهات الشرعية والسلطة المحلية المكلفين بمراقبة الأجانب والمحافظة على سلامتهم وسلامة أموالهم وممتلكاتهم.. يلوح بهذه الورقة من طرف خفي، فلا يملك الطمّاعون المتهربون من دفع النسبة التي يتفق معهم بشأنها، الانصياع لأمره ويدفعون صاغرين.

والشيخ عثمان كما يناديه معارفه والمتعاملون معه: مهف كبير وقد نعته مصباح بهذا النعت حين كان يتفاوض معه بخصوص شراء قطعة

الأرض التي سيبني عليها دارا للسيدة باولا السويسرية، وعثمان هذا يرد دائماً وعلى سبيل المزاح أو التفاخر أمام معارفه، قائلا: انا سيد لمهاف).

اشترى مصباح قطعة الأرض التي أشار بها عليه عثمان المهف، كان مصباح يحلو له أن ينادي عثمان بهذا الاسم: يا شيخ لمهاف، ولا يجد عثمان غضاضة في ذلك، ما دام مصباح في طوع عثمان، وينهب مما ينهب.

كان ثمن شراء قطعة الأرض مائة، يدفعها مصباح حين تحوّله باولا المال، ومصباح متفق مع عثمان على أن يكون الثمن المصرح به لباولا مائتين، وعثمان متفق مع صاحب الأرض الأصلي بثمن قدره ثمانون فقط، كان هذا الاتفاق من وراء ظهر مصباح، وبحسبة تكون العملية كلفت باولا مائتين: منها ثمانون ثمن الأرض الحقيقي والباقي عشرون لهفها عثمان المهف دون علم مصباح ... تبقى لمصباح مائة دفع منها مصباح خمسة وعشرين نسبة العمولة المتفق عليها مع عثمان، وما تبقى من نصيب مصباح: حسبة وقسمة تمت قبل أن تسجل الأرض ولم تحول باولا الأموال بعد، كمن يبيع ويشتري السمك وهو في البحر، وفي الأمثال: «الحوت في البحر والقدور فوق النار».

قال مصباح مخاطبا عثمان:

مستعيراً مثلاً شعبيا: «وين إبات الساري أبات المصبح» ومعناه: ما حصلت عليه أنا تحصلت أنت على مثله أو قريب منه

لا يا ولدي من لا تغالط أنت لهفت خمسة وسبعين، وأنا خمسة

وأربعين فقط.

- أنت لهفتهم: باردات ... دون تعب.

وكيف هو تعبك أنت؟ ماذا فعلت؟

- أنا من له علاقة مع السيدة السويسرية، ... رافقتها عندما كانت هنا في سياحة، وسافرت معها إلى سويسرا وأنا الذي أشرت عليها ببناء الدار هنا.

- كنت الرابح في جميع الأحـوال... هنا كانت تصرف عليك وعليها، وهناك كذلك، وهي من حجز لك تذاكر السفر... هل في هذا تعب؟

- أنا زوجها.

- في هذه عندك حق... أنت زوجها... أنت من باع شبابه لكن الثمن مجزي على كل حال.

- أنت تستهزئ بي، وتحتقرني.

- أليس هذا هو الحق؟!... لا عليك غيرك كثيرون هذا ديدنهم.

- وماذا تسمى أنت ما تقوم به؟ من ابتزاز، وأكل مال الناس دون حق؟

- قلت لك: اسمى أنا سيد لمهاف، يعنى النهابون.

- أشهد أنك أكبر مهف رأيته في حياتي.

- وقاسمته الغنيمة أليس كذلك؟!

- أنا مضطر أن أفعل هذا إن لم يكن معك مع غيرك.

- وأنا سمسار وكلنا: أمهاف.

- أنت سيدهم كما اعترفت بعظمة لسانك.

- أنا الشيخ عثمان المهف كما سميتني، وكلكم محتاجون إلى من في مهنتي.

- نعم نحن محتاجون إلى من يكتم أسرارنا.

- هنا السر - لابد أن تبحث عمن يكتم السر، ولهذا ثمن.

- ولهذا أنا دفعت لك خمسة وعشرين نقدًا وعداً. هذا إذا لم تهف من ورائي مبلغا آخر، وهو أمر لا أستبعده.

يعلم الله ... وأنت ألا تنوي: أن تلهف المزيد من تلك السيدة التي أوقعها حظها النحس في طريقك؟!

دفع مصباح مبلغا قليلا من تلك الرزمة النقدية التي دستها باولا في حقيبة يده، كعربون إلى أن يكمل المبلغ المتبقي من الثمن في أجل مدته شهر كما اتفق مع صاحب الأرض وبحضور عثمان المهف، الذي اشترط أن يكون كل شيء بمعرفته، إلى أن يقبض ما اتفقا عليه من عمولة.

قبل أن يعود مصباح هاتف باولا، يخبرها بإنجاز المهمة، وطلب منها أن يتأخر أياما قليلة لا تتعدى الأسبوع من أجل إتمام الإجراءات الرسمية لدى مصالح البلدية، بعدها سوف يعود حالاً... أضاف بصوت يشبه الهمس: أنا في شوق إليك... أحسب هذه الأيام التي

سأبقاها هنا اليوم بشهر يا حبيبتي، انتظريني حالا قادم إليك على جناح اللهفة والشوق.

ردت وهي تشرق بدمعها في شبه بكاء، لا تكاد تتبين كلماتها: أنا يا حبيبي أعد الأيام بالساعات، بل بالدقائق واللحظات، في انتظار طلتك البهية، ومقدمك السعيد... يومها سيكون لي عيد. عيدى الكبير بفرح الكبير وحبي... دمت لي يا حبيبي. وعد ما أمكنك أن تعجل العودة... حبيبتك في الانتظار.

سأعود ... سأعود حالا، تصبحين على خير.

(12)

ما زال أمامه للعودة في الموعد الذي ضربه لزوجته كما يسميها أحيانا، دون أن تكون له قناعة بذلك... رغم أنه تزوج بها فعلا حسب الأوراق الرسمية التي استخرج بموجبها الإقامة في سويسرا... مازال أمامه أسبوعاً كاملاً... فكر في السفر إلى الواحة، وتحديداً إلى حيّ الأكواخ المصنوعة من القش قريباً من الواحة، حيث عاش طفولته وجزءا من مراهقته الأولى، ليزور عائلته: أمه وأباه وأخواته وأخاه، يتفقد أحوالهم، وربما نفحهم بشيء من النقود التي مازالت تملأ جيبه، فهو لم يدفع منها كعربون إلا مبلغاً بسيطاً واحتفظ بالباقي لشأن وغرض آخر.

كان له علاقة من بعيد مع بنت النجار، الذي كان يعمل في حانوته يسخّره في كل الأعمال يستغل جهده بأجرة زهيدة، لا تسد حاجته، ولا تفي حاجة أهله.

كانت بنت النجار تبادله النظرات من بعيد، وتشير إليه بما يعنى أنها ستكون زوجته في المستقبل، كان يجاريها فيما تعنيه، ويعتذر لها عن ضيق ذات اليد، وهي تعلم حاله.

يبعث إليها برسالة من بعيد بالإشارة أيضا معناها: ربما تبدل الحال... ساعتها يكون لنا شأن آخر... وأنت منى القلب.

الآن تبدل الحال، جيبه منتفخ بالمال، وملابسه ليست تلك الأسمال البالية التي تعرفها بنت النجار... حتى صيفاته وملامحه الجسدية طرأ عليها التغيير، لم يعد ذلك الفتى المراهق الهزيل الذي لم يقو عوده بعد، وبتلك السحنة التي لفحتها الشمس، وتراكم عليها الغبار، الذي ثبته العرق على البشرة المسمّرة ولا يزيله ماء، إلا بعد أسبوعين أو أكثر، حين يستحم مع أقاربه في بعض السواقي التي تروى النخيل والمزروعات من آبار سطحية يستخرج ماؤها بواسطة الدواب.

التقى مصباح بمن ناوشته على بعد بغرام صامت منذ كان في مراهقته الأولى، وهي في سنه أو تصغره بعام ... التقى بها بعد خمس سنوات قضاها في السرمحة، يطارد العجائز من النساء والرجال، القادمين من الشمال في سياحات متكررة. يقضي لهم بعض حاجاتهم، ويفرض عليهم نفسه كدليل سياحي متطوع، يحصل منهم على بعض النفحات.

الآن تغير حاله عن ذي قبل، حين كان في الواحة... جاء يلبس لبساً

إفرنجيا كاملاً، وفي جيبه مال، وفي قلبه حب وأمل للضفر ببنت النجار، التي حركت فيه مشاعر الميل إلى الجنس الآخر منذ زمن، وجاءت هي إليه بطريقة سرية سربتها إليه أخته الكبيرة، التي عقدت معها صداقة بعد ما هجر هو الواحة، نحو المدن على الساحل، وغاب تلك المدّة... وقف مع بنت النجار خارج الكوخ يتناجيان، بكلمات قليلة مرتبكة، حيث تركت لهما أخته فرصة لوقت قصير، متذرعة بانشغالها ببعض الأمور، لكنها وقتت اللقاء، وهي تغادرهما بقولها: خمس دقائق... وخرجت تداري نفسها عنهما بالكوخ، وتغطيهما بالمراقبة.

تحركت في قلبه تلك الجذوة الخامدة منذ خمس سنوات، نظر إليها في شوق وهيام، دون أن يلمسها، ونظرت إليه في ارتباك شديد... لم تتكلم هي، وتلعثم لسانه حين قال لها: أنا أحبك يا صالحة... أضاف، وأمنيتي في الحياة أن تكونى لي.

- قالت: في شبه همس... وأنا كذلك.

- وأنا لم أفكر في أخرى غيرك.

- وأنا رفضت كل من تقدم لي.

- عاهديني على أن تبقي لي... وسأعمل قريباً على الاقتران بك. هات يدك ليكون العهد بيننا.

مدت له يدها: خائفة مرتعشة، وداخلها يرقص فرحاً. قالت: هذا عهد لك وأنت حلمي، وليس لي من أحلام سواك.

أخذ يدها قبل ظاهرها... قال وأنت الحلم الذي راودني منذ سنوات، ولا يزال هو الحلم الذي يسكن قلب... لم يحرر يدها ظلت تنظر إليه، وفي داخلها مشاعر وأحاسيس لذيذة. حين لمحت أخته قادمة، سحبت يدها، قالت: العهد بيننا ولا تغيب عني كثيراً- أنت حياتي، وبلاك العدم.

جاءت أخته بعد أن منحتهما خمس دقائق إضافية: عاشا في خلوة لأول مرة، عشر دقائق حسباها دقيقة واحدة.

قالت أخته:

- ميعاد الحبيب قصير.

رد: مهما طال ... لماذا أنت بخيلة إلى هذا الخد، يا نجمة- اسم أخته- خمس دقائق ويظهر أنك أنقصت منها.

- بل زدتها خمسا أخرى تكرماً مني، وخوفا من الرقيب جئت، ولو تركت لكما وقتا أطول لما كفاكما.... أنا اعلم هذا.

- وهل يطفئ الوقت: الشوق مهما طال؟!

نعم الشوق لا يطفئه إلا الوصل، وأحيانا يزيده اشتعالاً.

- هيا يا صالحة قبل أن يفتقدك أبوك، فهذه ساعة عودته من عمله تحركت صالحة في خطوات متثاقلة، تتبع نجمة أخت مصباح التي كانت عرابة ذلك الموعد القصير، غير مصدقة أنها التقت بمصباح، وبادلته حديثاً، وعاهدها وعاهدته، كانت تعيد المشهد وكأنها في حلم، وليس

في حقيقة، وعليها شاهد هي نجمة أخت مصباح.

نجمة تخاطب صالحة: ماذا قال لك وماذا قلت له؟

- لا قلت ولا قال.

- من يصدقك؟!

- تكلمنا في صمت: "عيوننا تقضي الحوائج بيننا ونحن سكوت والهوى يتكلم".

- لم أسمع من قبل برجل وامـرأة في قلبيهما لوعة الحب ولا يفصحان.

- قلت لك تكلم الهوى.

- ماذا قال؟

- قال: الذي يقوله اللسان، وقالته العيون فأفصحت.

- عجيب أمر كما ... ولا كلمة؟!

- كانت لمسة بادلت بيننا المشاعر اللذيذة، ثم كانت كلمة واحدة: عهدا بيني وبينه.

- عما كان العهد؟

- على الوفاء ... عهد على ألا يكون لغيري، وأنا له وحده.

- كل شيء بينكما موجز مختصر.

- ما قالته العيون، وما نقلته بيننا المشاعر يملأ الصفحات.

- هنيئا لك به، وهنيئا له.

- وأتمنى لك حظّاً سعيد مع منصور.

- كانت صالحة حبيبة مصباح تعلم بقصة حب كبير تعيشها نجمة أخت مصباح مع جار لها.

ومن أخبرك أنت الخبر؟ سألت نجمة.

أختك الصغيرة أخبرتني... ورأيتكما مرة تتناجيان فوق البئر، وكان المشهد لا ينم إلا على صدق ما أخبرتني به أختك.. أتنكرين هذا؟!

حدث حق ما قلت: عما كان بيني وبين منصور، أنه الحب يا صالحة، أجمل ما في الدنيا، وهذا ما دعاني أن أهيئ لك فرصة اللقاء بمصباح، وأنا أعرف حنين المحبين.

وأنا لن أنسي لك هذا الجميل، وأرجوك أن تمنحينا وقتا أطول إن سمحت الفرصة مرة أخرى.

وعد مني: لن آلو جهدا في أن أهيئ لكما فرصة أخرى إذا لم يعد مصباح سريعاً إل حيث كان.

عادت صالحة قبل أن يعود أبوها، إلى ذلك المأوي الذي يسميه بيتاً: غرفة واحدة بناها من طين، بين أكواخ ذلك الحي الفقير، غرفة بجوارها كوخ صغير من القش، تستخدمه زوجته أم صالحة. فضاءاً للطبخ، كانت الغرفة بها شباك واحد قريب من السقف، وهي دون باب هكذا أرادها، أو أرادتها قلة ذات اليد، ولعله يطبق المثل القائل:

"دار النجار بلا باب".

ضلّت صالحة جالسة في ركن من الغرفة الطينية تعيد المشهد وكأنها في حلم: مصباح الذي شعرت بميلها الغريزي الأنثوى نحوه، حين كان صبياً عاملاً عند أبيها في حانوت النجارة منذ خمس سنوات، هو اليوم بذاته، يقف معها، وتعيش معه مشهدا غرامياً لمدة عشرة دقائق جاد الزمان بها، يعد يأس وطول غياب، يلمس يدها، يناجيها وتناجيه في صمت، العيون تتكلم والقلوب تخفق، والفرح يغمرهما، والسعادة ترفرف من حولهما، تظللهما بحلم جميل، ثم يكون العهد على الوفاء واللقاء القريب.

كانت أمها في ذلك الكوخ: المطبخ، تعد أرغفة من الخبز يسمونها: (كسرة) هي طعام الغذاء، تقدم بطبيخ يسموه (شكشوكة): خليط من بيض وبصل، وحبات طماطم طازجة، وقليل من الزيت، وشيء من البهارات، طعام يفضله النجار والد صالحة على أي طعام يوم الأحد، حيث لا يعمل بعد الظهر، ولا يخرج من البيت: الغرفة الطينية التي بابها قطعة من قماش، تسدل في الليل وترفع مربوطة في السقف أثناء النهار.

نادت الأم صالحة أكثر من مرة فلم تسمعها لأنها كانت مستغرقة في حلمها اللذيذ، فلما علا صوت الأم، انتبهت من أحلام يقصتها، فى سرعت نحوها تستفسر منها ماذا تريد.

قالت الأم:

- بح صوتي وأنت لم تسمعيني ... أين كنت؟

- في الدار: الغرفة.

- وأين هي الدار أفي آخر الحي؟!

- ماذا تريدين مني يا أمي؟ هل أساعدك في شيء؟

- جهزي لأبيك فراشه، والأرجيلة سيأتي عما قريب.

- حاضر يا أمي... كانت تطير كالفراشة من الفرح والسعادة الغامرة، الأمر الذي لفت نظر الأم، نظرت إليها في استفسار صامت... قالت في نفسها: ربما جد جديد... إنه حال متغير عن ذي قبل، عجيب أمر العذارى.

(13)

عاد مصباح من الواحة إلى الساحل على عجل، دون أن تدبر له نجمة لقاء آخر مع صالحة، كي يتزود بشحنة عاطفية يعيش على ذكراها، وليودعها بسلام حار.

ضل في المدينة الساحلية بقية المدة التي أخبر باولا أنه في انتظار إكمال المهمة، رتب كل شيء يتعلق بالأرض وأحكم الخطة التي دبرها مع عثمان المهف: السمسار، بعدها أخبر باولا: أنه قادم وحدد لها الموعد والرحلة.

كانت باولا قبل ساعتين في المطار تنتظر قدومه، يهزها الشوق، ويغمرها الفرح، في طريقهما إلى البيت كانت تحدثه بفرح وفخر عن نصيب من المال أتى إليها مما ترك قريب لها انتقل إلى العالم الآخر، ولم

يكن له أولاد، فتقاسمت ثروته مع آخرين أقارب... سال لعابه أكثر وهو يستمع إلى هذا الخبر السار.... ألقى الشيطان في أذنه، وسوسة مفادها: ها هي الفرص تأتيك واحدة تلو الأخرى لتأخذ نصيبا من الدنيا، أجعل لهذا المال المضاف في رصيد باولا مخرجا تخرجه به من ذمتها .... وسع مشاريعك التي تدبرها بالحيل الماكرة والخداع والتزوير لتحصل على كل شيء من باولا، لأنك أعطيتها من شبابك كل شيء... مثل عليها دور العاشق المتيم، والزوج المخلص، والناصح الأمين، الذي يروم مصلحتها ويعمل على استثمار أموالها في مشاريع مربحة من أجل مستقبلها، احرس على ألا تشك في أنك طامع فيها، لاطفها وسرى عليها وحسسها بأنك لها وحدها، بما تملك من نفاق، امدحها حتى وأنت تعرف: أن ليس فيها ما يمدح، لكن النفاق بفرض عليك ذلك، أو قل مصلحتك هي التي تتطلب ذلك... نعم امدحها بما ليس فيها، فالمرأة كما يقال: تسمن من أذنها، ضاحكها وأنت لك قدرة عجيبة على إضحاك الآخرين، واعلم أن الرجل يربح المرأة التي يضحكها.... أنت تتقن لغات كثيرة ولا شك أنك ملم بألوان المزاح، والطرائف، والنوادر، والنكات ولو كانت فاضحة، عارية أسلوبا ومعنى المرأة تحب ذلك، استخدم هذا السلاح مع المرأة، وحتى الذي يقول عنه الناس أنه غير مباح، يجوز بين الاثنين وفي الصبوات، حاصرها من كل جانب بما يبهجها ويجعلها تحب الحياة. أنت لك فائض من الحيل دللها، ألا تعلم الحكمة الشعبية التي تقول: (المرأة دللها بالخص واضربها بالعصا) بهذا

تكون قد ملكتها وملكت مالها ... هذه فرصتك أيها التلميذ النجيب: أستاذك الشيطان.

في الطريق قالت له:

- لن نذهب الآن إلى البيت. لقد حجزت طاولة في مطعم فاخر أفتتح بعد سفرك، يؤمه كبار القوم وأصحاب المال، احتفالا بمقدمك يا حبيبي، بعدها نذهب إلى البيت ولن نخرج أبداً في هذا اليوم وحتى الصباح.

أثني على قولها بقوله: وحتى الصباح، ثم ابتسم في وجهها بمعنى. بعد أن تناولت وإياه طعام الغذاء في ذلك المطعم الفخم الذي تحجز فيه الوجبات مسبقا، ذهبا إلى البيت... أخذ قسطاً من الراحة والنوم الثقيل بعد تلك الوجبة الثقيلة، قبيل المغرب بقليل، استيقظ مصباح على حركة باولا وهي تزيح الستارة عن تلك النافذة الزجاجية بعرض حائط الصالون والمطلة على البحيرة، وقد ظهرت الأضواء من حولها تنعكس على صفحة الماء، نهض مصباح من مرقده، وقد سبقته باولا إلى الحمام، تبعها وحين فرغ وإياها من دش منعش، جلسا على كرسيين قبالة بعضهما بينهما طاولة صغيرة بمحاذاة تلك النافذة العريضة وكان الشراب ثالثهما، بعد برهة حل الظلام، تلألأت أنوار الشوارع والميادين في المدينة كلها ترسم منظرا بديعا مع البحيرة يأخذ بالألباب.

قال مصباح يخاطب باولا بالإيطالية: (براديزو) يعنى الجنة.

أجابته:

سي، أي: نعم دار الكأس دورته الثالثة بينهما تعمد هو المباعدة بين الكأس والأخرى... توافقت هي معه... هو ليس بشراب، وفي تلك الفترة كان يتحفظ بخصوص الشراب... هو يعلم أن الشراب ثرثاراً، والثرثار يستخف بالإحكام، ويرفع الستر عن الأسرار، يؤمن بالكتمان ولولا كتمانه للسر لما نجح له تدبير ولا خطة، نظر عبر النافذة ملياً قال:

أن الطبيعة انتقت موقع هذه المدينة. هذا منظر بديع خلاب: (كارت بوستال) أي أنها: تماثل تلك المناظر التي يلتقتها المصورون بعناية وحسن اختيار، وتباع في محلات الهدايا يشتريها السواح والزوار ليبعثوا بها إلى المعارف والأصدقاء، وعلى خلفيتها تحيات وتعليقات. كان يوجه كلامه إلى باولا. وهي تستمع إليه بانتباه قالت:

نعم... هي جنيف كما وصفت... لولا مناخها أحيانا يفسد عليها هذا الألق الجميل، فالمطر أحيانا يهطل بغزارة يتناوب مع الضباب ساعة بساعة، وفي الشتاء تغطى قمم هذه الجبال القريبة: الثلوج البيضاء، تبعث في جو المدينة البرد، لكنها تشكل منظرا آخر ساحراً.

ضل في مكانهما وقتا طويلا، كانت الكأس تدور بينهما، وأنواع من المكسّرات وحلويات راقية، وشكولاته سويسرية فاخرة موضوعة في أطباق فوق الطاولة الصغيرة.

ليس بهما حاجة إلى النوم لقد أخذا منه نصيبا بعد الظهيرة ولا حاجة إلى طعام بعد تلك الوجبة في ذلك المطعم الفاخر.

طال السهر تخللته أحاديث أغلبها حول الدار المزمع إنشاؤها في المدينة الجميلة التي كانت محط إعجاب باولا وحول بحث المشروع الاستثماري الذي لم يستقر الرأي بعد على ماهيته وكيف يدار وما يتعلق به من ناحية التمويل والإشراف وما إلى ذلك من أمور.

قارب نصف الليل أن ينقضي، قال مصباح:

باولا... أما زلت في حاجة إلى السهر؟

أنا في حاجة إليك.

لم يرد، سبقها إلى غرفة النوم- تعرف أنه يجب أن ينزع ملابسه الرسمية بنفسه- ارتدى بيجامة حريرية كانت قد اشترتها له قبل يوم، وضعتها على حافة السرير قرب الوسادة، بعد دقائق دخلت الغرفة - سألته: هل تفضل أن تأخذ دشا قبل النوم؟

- حالا.

- الحمام حاضر.

- وأدوات الحلاقة؟ سأل من أجل أن يتأكد.

- حاضرة هي الأخرى، ومعها عطر جديد اشتريته أمس مع البيجامة.

- أنت لا تنسى شيئاً؟ أنت رائعة يا باولا... أنت سيدة للحياة.

ضحكت ثم قالت:

- وأنت سيد الموقف الآن.

- سأكون بعد قليل، كما تريدين.

- عندما تخرج، سأدخل.

إذا كان حمامك كالعادة ستجديني في نوم عميق.

لا تخش ذلك ... سيكون دشّاً خفيفاً.

دخل إلى غرفة النوم، نزع البيجامة، تعطر وتستر باللحاف، جاءت هي ترتدي روب الحمام دون غيره من لباس، كان هو مختبياً إلاّ من عينين ترقبان قدومها، رأت باولا البيجامة مطوحة فوق كرسي قريب من السرير، صاحت تحتج في دلال، لماذا فعلت هذا، كنت أريد أن أدشن البيجامة، أريد نزعها بنفسي، فوّت على رغبة في نفسي.

بسيطة سأرتديها من جديد.

سارعت إلى البيجامة تلتقطها من فوق الكرسي، وجدت السترة فقط، قالت:

أين السروال؟!

مختبي معي.

راجعة حالاً. ثم خرجت من الغرفة، بعد أن رمته بالسترة، ضل جامدا، تدور في رأسه: وصايا أستاذه الذي قال له: أستخدم فائض فحولتك مع المرأة... أقتلها، هي تريد أن تقتلها لتحييها، بعدها اطلب منها ما تريد، أستاذه الشيطان يستدرجه من جرم إلى جرم، يحثه على

فعل الحرام ليوقعه في حرام أكبر، نعم هو يخطط لمؤامرة كبرى، تمكنه من استلاء على ما تملك باولا، وما يكون معها الليلة بداية خطوات التنفيذ، هو شرير في ذاته يغلب الشر في طبعه على ما فيه من نوازع للخير.

جاءت بعد أن تزيّنت، والمرأة تقضي في زينتها نصف وقتها، وبالتالي نصف عمرها الذي تعيشه، عندما تحسب الأعمار بالأوقات.

جاءت متألقة في كل شيء من حرير جديد تلبسه، وعطر تعطرت به وقلادة تضعها في الرقبة من الماس تعرف أنها ستنزعها بعد قليل وعلى مهل، جاءت بأصباغ وألوان على الوجنتين، وفي الشفاه، ضلال على العيون، والشعر أيضاً تلون وتغيرت تسريحته.

قال:

في شهقة نصفها إعجاب وإنكار، ونصفها تمثيل ونفاق، سنحت له فرصة للتمثيل (اللعب بالعواطف)... هكذا هي تعليمات قرينه الشيطان- قال: من أنت؟!

أنا باولا مالك أنكرتني إلا يعجبك هذا يا حبيبي؟

هذا أذهلني... روعة ومدعاة للإعجاب... أنت ملكة يا باولا دون تاج مرصع بالجواهر.. أنت تاجك هذا الجمال الآسر الذي يأخذ بالقلوب، أنت تحفة. أنت لعبتي الليلة، ونهض ينزع من عليها الستر، إلا من القلادة التي لم يعرف كيف يفك مفتاحها، فأخذت هي تتخلص منها على مهل، ثم تقدمت تنزع ما عليه من نصف البيجامة أو تدشنها كما أرادت.

كانت غزوة كبرى في تلك الليلة، استمر فيها النزال إلى قرب الفجر... قتلها فأحياها، ثم قتلها... قالت: بصريح العبارة وهي شبه مخدرة وفي قمة نشوة، الإمتاع- قتلتني- استراح قليلا ثم أخذ ينظر إليها مطوحة على ثلثي السرير، ميتة إلا من عروق تنبض بالحياة، كانت يداها ممدودتان بشكل أفقي وساقاها مضمومتان تلقائيّاً، شعرها ثائر يغطي نصف وجهها، فتحت عينين ناعستين بعد ربع ساعة صامتة لا تتكلم وهي ليس في كامل وعيها: كررت تلك الكلمة: قتلتني.

نظر إليها مبتسما، وقال: أوصاني صاحبى أن أفعل هذا.

من صاحبك هذا الذي يحرض على القتل؟ إن القتل جريمة يعاقب عليها القانون... إلا في هذه الحالة.

نعم صدقت... ها أنت قتلت ثم أحييت، واعترفت أن هذا ليس بجريمة.

نعم إنه قتل لذيذ... اقتلني دائماً وسأغفر لك.

ستجعليني مجرما، يستصغر جرم القتل... يستسهله، فيدمن حتى يصبح من عتاة المجرمين... أترضين لي هذا؟

إذا كانت جرائم كجريمتك هذه، التي مازلت تحت تأثيرها فإني أرضاها على طول الخط، كم هي مدمرة هذه الجرائم ورائعة ولذيذة!!!

- وهل الدمار محبوب إلى هذا الحد؟!

- الدمار في مثل هذا الحال: خراب جميل.

- أنت قلت عن هذا الدمار قتل.

- نعم هو قتل تعقبه الحياة.

- وقلت عنه: جريمة.

- جريمة قتل، تحبها المرأة وتطلب المزيد.

- قال: في سره آه لو تعلمي، بأمر الجريمة التي أخطط لها- خاطبها قائلا: أتبقين هكذا إلى الصباح؟ تحتلين ثلثي السرير ودونها لحاف!!

- دعنى أتخلّص من خدرى اللذيذ- أن هذا يحتاج إلى وقت.

كانت الجريمة قوية عنيفة، ومدمّرة كما قلت لك.

- ستبردين، وقد تركت النافذة مشرعة.

- اقفلها ودثّرنى.

كان الصباح فكانت باولا، فى أحسن حالاتها النفسية، كانت حيوية نشطة، فرحة مستبشرة، ترفرف عليها السعادة تبعث فيها روحا منطلقة للحياة.

كانت تنتقل بين المطبخ والتراس المطل على منظر البحيرة البهيج، تنقل أطباق طعام الإفطار مع أبريق للشاى وآخر للقهوة ثم وعاء يحوى لبنا تضعه أمام مصباح الذى كان يجلس فى التراس كعادته، ينظر إلى منظر البحيرة ومن بعيد تظهر جبال عالية تغطى قممها الثلوج.. باولا تترنّم بأغنية شعبية فرنسية الكلمات، وحين تنتهى من تحضير الطعام، تأتى بمنفضة للسجائر وعلبة مع ولاّعة تضعهما جانبا، وتصب الشاي ثم

تخلطه بالحليب وتدعو مصباح لتناول طعام الإفطار، مشدوه ومعجب بذلك المنظر الذى شارك فيه الإنسان المبدع مع الطبيعة لخلق هذا المحيط الساحر، المشكّل من مبانى ذات تنسيق ونظام غاية فى الروعة والإبداع، مع طبيعة خلاّبة، قوامها هاتيك البحيرة، وتلك التلال المحيطة بها من بعيد، والدارات الفخمة التى تناثرت على السفوح، تظهر بياضاتها وسقوفها الحمراء من خلال الأشجار.

تناولت باولا ومصباح طعام الإفطار فى وقت متأخر عن ذى قبل، فليلة البارحة كانت استثنائية، فيها قاتل ومقتول، ونضال دون سيوف إلى قرب الفجر.

أشعل لها سيجارة وله أخرى.. نظر إليها متفحّصًا وجهها، تبسّم ثم قال:

- أنت اليوم وردة ازداد تفتحها بعد غيث.

- كان مطرٌ روّى الأرض فتألقت الوردة، أجابته وأساريرها تطفح بالفرح.

- نَعم المطر الذى يسقى الأرض. فتمنح الحياة.

- وبلا غيث تصبح الأرض مواتًا.

- بالماء كل شىء حي.

- نعم إن الماء من أسباب الحياة، به تخضرُّ الأرض أما الجدب فيجعلها يباس.

- أنا لا أغلبك جدالا.

- لكنك تغلبنى فى ميادين أخرى عملية.

- ربما يكون هذا صحيحا.

- أنا جرّبت.

- وكيف كانت التجربة؟

- غلبة - قتل - تدمير لذيذ، وخراب جميل كما قلت لك منذ حين.

عشرة أيام قضاها مصباح فى جولات سياحية داخلية بسيارتها الفارهة، انطلاقا من جنيف: فى القسم الفرنسى كما يطلق على الإقليم الغربى الجنوبى من سويسرا إلى بيرن العاصمة فى الوسط، ثم لوقانو مسقط رأس باولا فى الشرق من القسم الإيطالى وعلى الأصح الإقليم السويسرى المتكلّم باللغة الإيطالية، ومنها إلى زيورخ وبازل فى الشمال القسم الألمانى.. كانت جولة ترفيهية قالت عنها باولا: إنها هدية تقدمها لمصباح وفاء ومحبّة، يتفرّج فيها على مكوّنات البلاد السويسرية فى الأقسام الثلاثة.

حجزت باولا جناحا فى فندق فخم من ذات الخمس نجوم لمدة ثلاث ليالى فى كل من المدن: لوقانو، بازل، زيورخ، ثم بيرن. كانت ليالى العمر بالنسبة لها.. عمر هارب منها تجدّده بالترفيه الباذخ، تغطّيه بشباب مصباح أمام الحاسدات لها من سنها، اللاتى ينعتنها بالتصابىء والانحلال، فهي كما يبدو لهن تطارد الشباب وتدفع لهم.. تغريهم

ببهرجة اللباس، والتسريحات للشعر والمكياج الذى لا يليق بها.. هي تحاول أن تبدو شابة بمقومات كلّها عارية، وهو ما لا يليق بعمرها الذى تجاوز الستين، لكنّها لا تعبأ بهنّ، وتعد ما يقلنه عنها من قبيل الحسد، فهي كما ترى فى نفسها مازالت تتمتّع بحيوية ونشاطاً ملحوظاً، تقتنى أحسن اللباس، وترتاد المقاهى والمطاعم الفاخرة، وتصاحب الشباب، وهذا مصباح دليل على ما تتمتّع به من حضوة عند الرجال، وأنه ما زال مرغوب فيها، ومازالت محط الأنظار، ومطلوبة للحب والجاذبية الأنثوية لم تفارقها بعد.

يرد على خاطرها أحيانا: أن ما ينعتنها به من تصرفات خارجة عن المألوف بالنسبة لامرأة فى سنها قد يكون صوابا ولكنّها تكابر وتخلق لنفسها الأعذار، فهي كما يحدّثها عقلها: أصغر من المتقوّلات عمرا وأكثر شبابا وجمالا، وأنها تتعهّد جسمها دائما بالماساج والحمّامات البخاريّة، والرياضة فى النوادى الخاصة، وحتى ملابسها أقرب إلى ملابس الشّابات، ومن بيوت الأزياء الراقية، وليس هي مثلهنّ: يلبسن ما فى خزائنهنّ معلّقًا منذ سنوات ويستعملن:- اغلبهنّ - عكاكيز كرجلٍ ثالثة، تعين على صعود العقبات، والنزول فى المنحدرات، كانت تضرب عرض الحائط بانتقاد العجائز المتقاعدات مثلها، وتفعل ما تشاء، تعيش حياتها، كما تقول: فالحياة تبدأ بعد سن المعاش كانت تلك الأيام العشرة التى قضتها باولا: رفيقة وعشيقة لمصباح كما تحدثها نفسها بالصفة الثانية - عشيقة - كانت أسعد أيامها كما صرّحت له، تنتقل

وإياه فى سيارتها - من أحدث الموديلات - من مدينة إلى مدينة أخرى، ومن جناح إلى جناح فى فنادق مشهورة: كالهلتون، والانتركونتتال، والهولدى إن والشرتون وغيرها، وحقيبة يدها مصرف منقول، عامر بعملات أربع دول من الفرنك السويسرى إلى الليرة الإيطالية، والمارك الألمانى والفرنك الفرنسى الجديد، كان وقتها لم تتوحد العملة الأوربية فى (الأورو) - كانت تصرف النقود ببذخ يصل إلى حد السفه، هي تعيش أحلى أيامها وأسعدها، وربما آخرها، كان مصباح يود لو تقتصد أو تتوسّط فى الإنفاق، ولا تبذّر هذا التبذير الذى تستنزف فيه النقود، كأنها تريد أن تتخلّص منها، فالنفحات التى تتركها لمن يقدم لها القهوة مثلا أكثر من ثمنها أضعافًا مضاعفة، ومن يقف بجانب سيارتها، ينال نصيبا من المال، كذلك موظفي الاستقبال، وعاملات الغرف، ورئيسة القاطع الذى يتصدره جناحها، وعاملة البدالة، وحتى عمال الحديقة عندما تلمحهم عن بعد تناديهم وتظهر لهم كرمها.

مصباح فى داخل نفسه يمقتها على هذا التبذير، الذى هو ليس فى صالحه فى النهاية كما كان يخطط ويدبّر.. إنها تبالغ فى الإنفاق خاصة فى وجوه لا لزوم لها، وهي لا تملك إلاّ أن تطيعه لو أراد أن يمنعها، لكنه أحجم عن ذلك، وصرف النظر عن الموضوع.

قال فى نفسه دعها تفعل ما تشاء فى أيامها الباقيات، ولعلّها تلك الأيام العشرة لا غير، فهي تدبّر أمرًا وهو يدبّر أمرا آخر، تظهر له ما هي عليه من نعمة وثراء، تحتفى به وتكرمه مكافأة له على ما أغدق عليها

من فحولة وصحبة، وإن كانت الصفة الأخيرة هي الأصح بالنسبة له.. صحبة فيها مآرب يبيّتها ويخفيها إلى أن تواتيه الفرصة التى لا يجب أن تفلت منه، هو ثعلب مراوغ، لا يستقيم له سبيل، وذئب شرس. يتحدى حين يهاجم، لا يتقهقر حتى يتمكّن من فريسته، لابد أن يقتل أو يموت، وهو نمر يتربّص متخفّى حتى تكون الضحية على مرمى منه فيثب الوثبة القاضية.

ضلت هي سادرة فى غيها وإسرافها، وكأنها تطبّق المثل القائل: (اصرف ما فى الجيب يأتيك ما فى الغيب) يرى هو ذلك ولا يتكلّم، أو يبدى ملاحظات، كان قليل الكلام إلاّ ما يرى فيه اقتراحا أو توجيها، للتدبير بشأن مشروع استثمارى يجلب له نفعّا، أو بشان الدار التى تنوى بناءها، أو على الأصح ينوى هو الاستحواذ عليها، لتكون سكنا له ولصاحبته صالحة بنت النجار بعد أن تؤول إليه بطريق الحيلة والتزوير كما دبّر وخطط فعلاقته مع باولا أمر مؤقت، وليست دائمة كما كانت تعتقد.

انقضت تلك الأيام التى اغترفت فيها من متع الحياة ما لم تنعم به فيما مضى من عمرها، كان فى كيسها المال، وفى صحبتها شاب، والمستقبل تؤمنه أرصدتها فى أكثر من بنك، وتملك دارًا على ضفاف البحيرة اشترتها من عشر سنوات بقيمة تضاعفت الآن عشرات المرات.

كانت قد أمّنت مستقبلها فى اعتقادها، فى جيبها المال، وفى يدها زوج، كان يمنيّها الأمانى ويضمر لها الشر، وهي غافلة لا تدرى،

يسوقها قدرها نحو حتفها، مسكينة هي اغترت به، ولم تشك يوما، أن يتخلى عنها، وهو فى حقيقته كوبرا ناعمة الملمس، تغدر بصاحبها، بعضة واحدة قاتلة.

عادا إلى جنيف بعد تلك الفسحة الجميلة، التى سجلتها هى كأجمل أيام عمرها، ورأى هو فيها من النعيم ما لم يحلم به من قبل، كان يشكر ولا ينكر الجميل، على تلك الحفاوة، وذلك التكريم، وكانت تقول له: وهل المرأة فى حاجة ليشكرها زوجها؟ أو يذكر لها جميلا، هي أولا وأخيرا تقدم ذلك الجميل لنفسها.. المرأة لا تحتاج من زوجها إلاّ: الإخلاص والعشرة الطيبة، والحنان والأمانة والوفاء.

نبّهت عقله تلك الكلمات، أخذ يستعرضها فى خاطره: الإخلاص؟ هذا ما لا ينويه، العشرة الطيبة؟ هو لم يجرحها يوما بكلمة، ولم يسئ معاملتها، هذا طبع فيه، خاصة مع المرأة، الحنان؟ منحها حنانا كاذبا كدور مثله لتطمئن إليه، أما الأمانة والإخلاص وقد وخزته هاتان الكلمتان فى الصميم، لكن صاحبه وأستاذه المرجع: قرينهُ الشيطان، سرعان ما وسوس له: دع عنك هذا الهراء.. أي أمانة وأي إخلاص، هذه كلمات جوفاء دائما على لسان المرأة، لا تقف عندها، ستفسد عليك تدبيرك.. أتريد أن تنسف ما خطّطنا له معًا، وتضيّع عليك فرصة العمر؟! ألا تعلم بأنها تملك الأرصدة فى البنوك، والعقار فى أغلى بلاد الدنيا، وهى التى ستغادر الدنيا قريبا؟!.. لمن تترك هذا الإرث الذى يسيل له اللعاب؟ هي ليس لها من يورثها كما قالت لك بعظمة لسانها..

سيؤول كل هذا لمن لا يستحقه، ربما إلى الدولة والدولة غنيّة عنه، أنت الوحيد أحق به من الجميع.. ألم تسمعها كم مرّة قالت لك: أنت حبيبى، وأنت روحى، وأنت كل شيء فى حياتى؟!

إياك أن تقف عند هذه الكلمات: الوفاء والأمانة، الإخلاص، لا تكن أبله.. أنت لك من الفطنة والشيطنة ما أعرف فقط تحتاج إلى تذكير، وها أنا ذكرّتك.. امضى فى مخططك، كن معها كما تطلب حتى تتمكن.. هي طلباتها محدودة لا تكلّفك الاّ أن تتقن دورك فى التمثيل، المرأة تحب المدح.. امدحها حتى بما ليس فيها وما لا يستحق المدح.. أنت لا تخسر شيئا.. تحب الدلال دلّلها بما تحب، وعندك الإمكانيات، بَعْها ما عندك وستشترى ما عندك بما عندها من مال.. هذه آخر نصيحة أقولها لك: دلّلها وأنت تعرف ماذا أعنى.

أيام أخرى فى بيتها فى جنيف لا تتعدى الثلاثة، ضلّت باولا ترتّب إجراءات الرحيل إلى الجنوب: حجز التذاكر، وسحب أموال من الرصيد، وحزم للحقائب وغيرها من متطلبات السفر.

اتجهت باولا ومصباح إلى المطار فى سيارة أجرة، لأن سيارتها الفارهة.. ومن أحدث الموديلات تركتها عند وكالة شحن من أجل تسفيرها هي الأخرى لتلحق بها فيما بعد.

بدأت باولا تحرق مراكبها، واحدة بعد الأخرى، حطّت بهما الطائرة فى مطار إحدى العواصم، فى دولة من دول الجنوب، ومن المطار إلى

الفندق الذى حجزت فيه باولا جناحا تقيم فيه مع مصباح لمدة شهر حتى تفرغ من إتمام إجراءات شراء الأرض والشروع فى بناء الدار.

كان اليوم الموالى ليوم الوصول، هو: يوم الأحد، ضل الزوجان نائمين حتى الضحى.. جيء لهما بالإفطار فى داخل الجناح.

بعد ساعة قالت باولا:

- مصباح.. دعنا نذهب لنعاين الأرض التى سنبنى عليها الدار.

- كنت على وشك أن أطلب منك هذا.. ثم فكّرت ربما تودين مزيدا من الراحة.

- نظرت إليه وتبسّمت.. أضافت:

ياه كم أنا سعيدة.

- وأنا أسعد.. دللّها البارحة، ونافقها اليوم، بدأ يمارس إحدى وصايا الوسواس، قال:

- ستكتمل سعادتك حين نبنى دارنا يا حبيبتى كما تتصورين وتحلمين.

- وأنا يا حبيبى أمنية عمرى: أنه أكون معك بقية العمر

- فى سرّه وهل بقى لك من عمر؟ ستكون أيامنا سعيدة ويحسدنا الحاسدون، قال هو.

- والحاسدات دعهم يموتون جميعا بغيضهم.

على بعد. مسافة نصف كيلو متر وعبر طريق متعرجة تصعد سفح الجبل، كانت الأرض الصفقة التى اشتراها مصباح، ودفع فيها عربونا: مبلغا بسيطا من المال الذى أعطته له باولا حين عاد إلى الجنوب بمفرده فى المرّة الأولى.

وقفت وإيّاه فى ركن من الأرض التى حدّدها لها.. نظرت إلى أسفل طالعتها المدينة الجميلة تربض فى أسفل الجبل، يداعب اقدامها شاطىء البحر برماله الناعمة البيضاء، يتكسّر عليه الموج تسحب منه تلك الرمال: الزبد فيتلاشى ويعاود الموج الكرّة من جديد.. هاالها المنظر البديع: مدينة تظهر مبانيها بيضاء يخالطها لون أزرق فى النوافذ والقباب، ليست بها عمارات شاهقة، ولا أبراج عالية، تتكون جميع دورها من دور واحد أو اثنين

البحر صافى غير بعيد على مدى البصر حتى يغيب فى الأفق البعيد، حقّاً إنها بقعة ذات موقع ساحر، تلك الأرض التى اشتراها مصباح وبالأحرى دفع فيها العربون.

وهي من الاتساع بحيث تكون لها حديقة فسحة تزيدها بهاء وروعة.

قالت باولا:

- الآن علينا أن ننهى إجراءات شراء هذه الأرض، ونبدأ فورا فى

تشييد الدار يا حبيبى..إنها بقعة فريدة من نوعها.

- أنا أجّلت هذا الأمر حتى تعاينين الموقع بنفسك.

- لا تؤجل.. هذا موقع فريد، وفرصة ثمينة حين نحصل على هذه الأرض.

- وأيضا أردت أن أعرض عليك الثمن الذى يطلبه صاحبها ربما تستكثرينه.

- هذه بقعة لا يستكثر فيها أي ثمن.

- إنه يطلب فيها كذا من المال بالعملة المحلية.

- كم يساوى هذا المبلغ بالعملة.. عندنا؟

- ما يقارب المليونين.

- مبلغ زهيد.. هذه هدية.. لا تترك الفرصة تفلت منّا يا حبيبى.

- هل معك المبلغ الذى يكفى لتسديد الثمن؟

- أنا لم أحضر معي الاّ مبلغا يكفى لإقامتنا فى الفندق.. لكنى سأطلب من البنك، تحويل أي مبلغ.

- وهل عندك رقم حساب فى أحد بنوك هذه المدينة؟

- لا، لم يكن عندى من قبل رقم حساب بنكى هنا.. لكن أعتقد أن الأمر سهل.. لنذهب الآن، لنفتح حسابا فى أحد البنوك.

- اليوم هو يوم الأحد والبنوك مقفلة.. لابد من الانتظار إلى يوم الغد.

- ولماذا الانتظار اليس عندك رقم حساب؟

- عندى رقم حسابى الخاص، لكن ما تريدين تحويله هو مالك الخاص، ويجب أن يدخل فى حسابك.

- ومن قال لك إننّى أريد ذلك؟ أنا حسابى هو حسابك ومالى مالك، وهل بين الزوجين إلاّ هذا؟!

- أنت وما تشاءين وما تأمرين به.

- اكتب لى رقم حسابك واسم البنك الآن ودون إبطاء.. هذه الأرض لا تتركها لآخر يفوز بها دوننا.

- عندما نعود إلى الفندق، سأكتب رقم الحساب: حسابى كما قلت.

- نعود حالا إلى الفندق، وسأعطى أمرا إلى بنت صاحبة لى تعمل في البنك لتعمل على تحويل المبلغ ثمن الأرض، وقيمة إضافية بشأن شراء مواد البناء.. أنا سأضل أحلم بهذه الأرض التى سنقيم عليها عشنا الجميل حتى يتحقق الحلم.

- فى ظرف ستة شهور سيكون هذا العش يطلّ على المدينة من فوق.

- إنها لمدينة جميلة، البحر يغسل أقدامها، وهذه الخضرة المتدرجة بيننا وبينها على هذا السفح الذى يكوّن هلالا مفتوحا نحو البحر.. ألا يشبه هذا المنظر بحيرة جنيف عندما تشاهدها من الشمال الشرقى، وتلك الدور التى على السفوح، والبحيرة تحتها كأنها البحر؟!

- لكل سحره الخاص.. هناك قمم الجبال العالية التى تغطيها

الثلوج فى بعض فصول السنة، والسحب العابرة فى فصول أخرى تنقشع مرّة، وتضلّل المدينة مرّة أخرى.. وهنا جو رائق أغلب فصول السنة، وشمس مشرقة إلاّ فى بضعة أيام من فصل الشتاء، وسوى هنا أو هناك يطيب المقام.

- وعلينا أن نعمل بسرعة لنقيم الدار حتى يطيب لنا المقام هنا، وهناك لنا دارنا.

- حالا لمجرد أن تصل النقود.

- أحسبها وصلت ثلاثة أيام على الأكثر.

- هناك أمر آخر، أعتقد أنه بسيط:- هنا يبدأ الفصل الثانى فى المؤامرة - نحن لا نستطيع تسجيل الأرض عقاريًّا الا بعد حصولك على الإقامة.

- ألا يمكن تسجيلها باسم الزوج؟

- ليس هناك من مانع، لكنّها ملكك ويجب أن تسجّل باسمك.

- قلت أكثر من مرة: إن مالى هو مالك، وملكى ملكك.

- هذا صحيح، قلت ذلك.. فقط أريد أن تكوني على علم.

- سنسجلّها باسم زوجى العزيز.. أنا والدار والمال له.

- كما تشاءين

- لنسجلها الآن.

- غدا الاثنين.. يبدأ العمل الرسمى فى مكاتب تسجيل العقارات.

- هذه مسألة حسمنا فيها الأمر، ماذا بعد؟

- نستدعى المهندس المسّاح، أولا لرفع أبعاد الأرض، والاستئناس برأيه فى موقع الدار من الحديقة وحوض السباحة من الناحية الجمالية.

- وبعد ذلك؟

- نأخذ مخطط الرفع: (الطبغرافيا) إلى المهندس المعمارى والإنشائى ليرسم لنا شكل الدار من الخارج والتقسيمات من الداخل وما إليها من ملحقات.

- زوجى كأنهّ محترف مقاولات بناء، ملم بالكبيرة والصغيرة نفد حالا ما تراه مناسبا.

- نعرض المخطط على المقاولين، ونتفاوض معهم بشأن الأسعار وإن كان لى رأى آخر سأعرضه عليك ربما يكون انسب.

- ما هو؟ وإن كان الرأى رأيك أنت أولّا وأخيرا ليس هناك رأى بدونك.

- رأيي أن المقاول، لابد أنه سيضيف قيمة فوق التكلفة، وهي من حقه فهو يعمل ليربح، لكن العملية ليس فيها من جهد كبير

هو لا يعمل شيئا.. فقط يأتى بالعمال والفنيين ويدفع لهم ممّا يأخذ منّا، وأنا اقول..

- ماذا؟

- لنتولى نحن بأنفسنا الإشراف على العمال بمراقبة المهندس فى عملية التنفيذ، ونربح ما كان سيذهب إلى جيب المقاول، هذا من ناحية، من ناحية أخرى نضمن عدم الغش، فأغلب المقاولين يغشون فى المواد والتنفيذ.

- هو الرأى الصواب.. أنا أعرف يا حبيبى أنك لا تفكّر إلا فى مصلحتنا.

- لا تشغلى بالك، وسيتم التنفيذ فى مدة وجيرة، وكما نريد.

- هذا ما أتمناه لننعم بهذه الدار التى أتصورها وأنت معى قصر في وقت أقصر.

- غدا بعد ان يتمّ تسجيل الأرض، سنذهب إلى مخازن بيع مواد البناء لنتعرّف على الأسعار، وكيفية الدفع والنقل، والبحث عن العمال والفنيين، وما يلزم من أشياء لعملية البناء.

- هذا شأنك أما أنا سأبقى فى الفندق لإتمام عملية تحويل المبالغ اللازمة إلى حسابنا - حسابه هو - اطمئن من هذه الناحية.

- إذّا سأذهب أنا بخصوص هذه الأشياء وسأعرض عليك التكلفة كاملة.

- لا تعرض عليّ شيئاً لتكون التكلفة ما تكون، لا تفكّر فى المال عندنا ما يكفى.

كان يوحي إليها دائما بما يطمئنها لتثق فيه أكثر، فتسلّم له رقبتها طائعة، وبمحض إرادتها، فيضربها الضربة القاضية من مكمنها، كانت

غافلة عمّا يحكم لها من تدبير وسوء نية، سادرة فى غيها معه، تغترف من ملذات جسدية فاقدة لها منذ زمن طويل، وهي غير مصدقة أنها تنام كل ليلة فى أحضان شاب فى ريعان الشباب، كان يمثّل عليها دورا فى الخداع والنفاق من أجل أن يغدر بها عمّا قريب.. يجرّدها من مالها، وما تملك ثم يرمى بها فى الطريق، هذا إذا لم يدبِّر لها الموت غيلة.

وصلت الحوالة المالية التى طلبتها، كانت مبلغا كبيرا من المال يكفى لبناء الدار ويزيد.

قالت له:

أخبرتنى صاحبتى أنها حولت المبلغ عليك أن تتأكد إذا ما قيد فى الحساب.

- غدا سأذهب لاستطلاع الأمر، عادة الحوالات تتأخر بضعة أيام، وأحيانا تصل إلى البنك ولا تقيد فى الحساب إلاّ بعد أسبوع أو أكثر، من أجل ان يستفاد من تحريك الحوالات الخاصة بالزبائن لفائدة البنك، حيلة من حيل البنوك عادة.

- ليس كل البنوك، أنا كنت رئيسة فرع لبنك وأعرف هذا، والبنك الذى فيه حسابى من البنوك الكبيرة، يراعى هذه المسألة ويشدّد بشأنها، من أجل طمأنة زبائنه، والعمل على مصلحتهم وسمعته.

- الخلل ليس هناك.. الحيلة تمارس هنا فى بعض البنوك المحلّية وليس كلّها، وأنا أيضا لى صاحب يراقب حسابى لابد أن يعلمنى بكل شىء.

- وإن تأخرت الحوالة ليوم أو يومين، نحن فى حوزتنا ما يكفى لتسديد الإجراءات الضرورية.

كانت باولا مندفعة بقوة العاطفة، وجاذبية الغرام، وحلاوة العشق وهي الفاقدة لهذا كله من قبل.

زواجها الأول كان قصيرا، وعلاقاتها مع الجنس الآخر بعد انفصالها كانت عابرة.. قضت حياتها، أيام الشباب فى النجاح الوظيفى، تنتقل من منصب إلى منصب، فى عملها الذى اجتهدت فيه وأخلصت له، فلم يكن للقلب نصيب يذكر.

أمّا وقد جرّبت الآن هذه الدنيا الزاهية والحياة الممتعة، والعيش اللذيذ، فى أحضان الرجل وحمايته، وأي رجل هو!! شاب تحسدها عليه الشابات، هى التى أفل نجمها أو كاد.. شاب ممتلئًا رجولة أو قل فحولة، نشيطا مطيعا، يتشاور معها فى كل شيء، ويعمل على إسعادها، وتنمية ثروتها - كما يبدو لها - فهذا حظ من السماء، لعلّه كان تعويضا لها عن حرمانها السابق، من الرجل الذى يقدّرها، ويعاشرها المعاشرة الطيبة، ويرعاها ويحتفى بها، ويودها الود الكريم، لهذا كلّه كانت تلبّى كل ما يطلب منها مصباح، وترضيه بشتى الوسائل، ترى فيه الفرصة التى تهيأت لها، وتحسبها من مصادفات القدر السعيدة.

أنهى مصباح تسجيل قطعة الأرض التى ستشيّد عليها الدار والحديقة وحوض السباحة كما اتفق مع باولا، وضمن قيد المبلغ الذى

حوّلته من الخارج فى حسابه، وما عليه الآن الاّ أن يباشر فى تنفيذ مؤامرته الكبرى التى دبّرها بوحي من الشيطان، منذ أن تعرّف على باولا فى وقت سابق حين كان يحترف السرمحة، يطارد العجائز والسوّاح الكبار بالسن المتقاعدين، يفرض عليهم صحبته كدليل متطوّع، يعطوه مرّة ويتغافلوا عليه مرات.

ذات ليلة، بعد أن أرضى باولا بما تريد وكما تريد: هذه طريقته عندما يريد طلبا عزيزا عليه، التفت إليها وهي ما زلت فى غفوة لذيذة، لا تقوى على الحراك.

قال:

- حبيبتى باولا، لى طلب أرجو أن تسمحى به.

قالت وهي تفتح عينيها المغمضنين نصف فتحة:

- اطلب ما تشاء

- أريد أن أستاذنك فى أن أغيب عنك يومين فقط.

استوت جالسة وقالت فى شبه هلع:

- إلى من أنت ذاهب؟!

- لا أحد ذاهب إليه.. أنا ليس لى غيرك ياحبيبتى فى الدنيا، ليس لى من امرأة الاّ انت، ان كان ضنك ذهب إلى بعيد.

- افصح عمّا تريد ياحبيبى.. وأنا أيضا من لى غيرك؟

- أريد أن أذهب فى زيارة خاطفة لأهلى فى الواحة، وأعود حالا، أنا لا أطيق فراقك طويلا.

- هذا يفرحنى ويثلج صدرى.. فى زيارة الأهل مروءة وكرم، هي واجب اجتماعى تحث عليه كل الأعراف والأديان.

- كنت أعرف مسبقا أنك ستشجعينى على هذا.

- خذ ما يكفيك من نقود اشترى لأهلك هدايا: علب شكلاته وملابس وأشياء أخرى، وسلّم لى عليهم.

- شكرا لك، وعليك السلام.. سأقوم غدًا مبكرا لألحق بالحافلة التى ستقلّنى إلى الواحة ومنها سأقطع الطريق راجلا فالمسافة ليست ببعيدة من الواحة إلى الحي الذى تسكنه عائلتى.

- لا تفعل هذا.. خذ سيارتنا ياحبيبى، وتأتى بالسلامة.

- ربما تحتاجينها فى تنقلاتك من الفندق إلى وسط المدينة أو إلى الشاطىء، أنت أولى بها منّى، لا تهتمى بأمرى، أنا متعود على هذا السفر بهذه الطريقة من قبل، لا يضيرنى وأنا الرجل.

- سوف لن أخرج من الفندق سأضل أنتظر عودتك سالما، وإن شعرت برغبة فى الخروج، سأزور صاحبة لى جاءت بالأمس من فرنسا فى فندق قريب، سأذهب إليها سيرا على الأقدام أنت تعرف أننى أحب المشي.

- رياضة مفضلة على كل حال، يبتسم فى خبث ونفاق: احذرى معاكسة الشباب الفضوليين.

- لا تخاف عليّ.. حلت أنت بينى وبينهم.

- وهل لصاحبتك رجل؟

- ربما.. لكن ليس كرجلى فى كل شيء.

- ياه: أحقّاً لى هذه الحضوة كلّها عندك وأنا لا أدرى!!

- تدري وتكابر.. أنت دائما فى عينى أجمل الرجال وأكثرهم مروءة.

- أرجو أن لا أكون مقصرا فى حقك.

- وفَّيت وكفيت.. دمت لى يا حبيبى.

- لك وحدك.. فى سره إلى أن أنهي ما أضمر لك.. وليس لى غيرك.

هو يعرف أن عمرها قصيرا كما هو ناموس الحياة.

أخذ سيارتها وغادر.. سار فى اتجاه الواحة، مئات الكيلو مترات يقطعها فى طريق ضيقة، لا يبقى منه الاّ ربعه حين تكون سيارة شحن فى الاتجاه المعاكس، طريق تكثر فيه الحفر والمطبات بين كل مسافة وأخرى، أوجدتها أمطار شحيحة حين مرت على تلك الجهات فى شبه صحراء ينقطع فيها العمران، فالواحة كانت فى قلب الصحراء، انبعثت بفعل عين فوّارة مُكبرته، تبرد مياهها حين يلامسها الهواء، وتنساب فى أخدود ضيق يبعث شريانا للحياة يفى بحاجة البشر والشجر فى ذلك المكان النائى، واحة صغيرة تظهر معالمها من بعيد: عبارة عن نخلات تخرج شعافها من مهمة صحراوى يحيط بها من كل جانب لانبات فيه.

وصل مصباح بتلك السيارة الضخمة البيضاء اللون، بعد حلول

الظلام، كان قد تعمّد ذلك حتى لا يثير انتباه الأطفال، والشباب فى سنّه العاطلين عن العمل الذين يملؤون الحي، فيتجمعون بحكم الفضول حول تلك السيارة التى لم يدخل الحي مثلها من قبل..تحلّقت حوله الأسرة: الاب والأم، والأخوات والأخ الصغير. فرحين بقدومه مستبشرين خيرا، فقد غاب عنهم مصباح لمدة عام كامل..سلّموا عليه جميعا، فقبلوه وصافحوه باليد.. دخلوا جميعا إلى الكوخ، يأملون فى هدايا وملابس جديدة يحملها لهم، فردا فردا.. جلس قليلا حتى هدأت الكلمات المرحّبة والسلام والسؤال عن الصحة، والغيبة الطويلة، وأن يكون وراءها خيرا إنشاء الله.

- قالت أمه: وكانوا جميعا جالسين حوله على حصير من نبات الحلف: غبت علينا يا كبدى إنشاء خيرا، الجميع يتطلّعون إليه فى شوق، وكان فى عيون أخته الكبيرة نجمة، أخباراً قرأها عن صالحة بنت النجار.

قام من بينهم وتبعته نجمة بعد أن ناداها باسمها لتحمل معه بعض الأشياء من السيارة، تقافز بقية إخوته وتبعوه، وضلت أمه وأبوه فى داخل الكوخ.. كان يود أن ينفرد بنجمة، يسألها عن صالحة وهل مازالت على عهدها لكن الإخوة الآخرين فوّتوا عليه الفرصة، غير أنه تحايل عليهم بأن حمّلهم بما أحضر لهم من هدايا وملابس وأغطية وعلب حلوى وشكلاته التى أوصت بها باولا، فانفضوا من حوله عائدين إلى الكوخ فرحين.. ضلت نجمه معه لأنها قرأت هي أيضا خواطره.

قالت نجمة:

- أعرف أنك ستسألنى عن صالحة.

- فعلا.. أريد أن أعرف هل ما زالت على عهدها لى؟

- مازالت وفيه مخلصة لك، وقد خطبها ثلاثة شبان رفضتهم جميعا.

- دبّري لنا موعدا غدا حين يخرج أبوها إلى حانوته.

- وكيف يكون الموعد فى النهار؟ أمها تراقبها، وأمك أيضا ستراها عندما تأتى، أنا لي رأي آخر.

- ما هو؟ قولى.

- أقترح عليها أن تذهب إلى كوخ للآّهم العجوز المقعدة فهي تتعهدها بين الحين والحين، لها قرابة بها من أهل أبيها، والعجوز للآّهم لا تمانع فى أن تهيء لكما فرصة الحديث، عليك أن تشترى لها بعض الحاجيات من السوق، كهدية تفرح بها وتنال أنت بها أجرا.

- هذا رأى صواب عجّلي ورتّبى كل شيء.. أريد أن التقى بها اليوم، لأننى عائد غدا إلى الساحل.

- لا عليك اذهب أنت إلى السوق، واشترى ما أوصيتك به وأنا سأزورهم فى بيتهم بعد أن يخرج أبوها إلى محلّه.

- لن أنسى لأختى العزيزة هذا الجميل، ثم يغمزها.. ما أخبار منصور؟

- وأين هو منصور؟

- ما به أين ذهب؟

- أحرق مع الحرّاقة، وانقطعت أخباره، ولا نعلم هل وصل إلى حيث يقصد، أو غرق فى البحر، كما نسمع فى الأخبار كل يوم

- كم نصحته من قبل ألاّ يفعل هذا، لكنه كان يصرّ على الحرقة.

- ربنا يسمّعنا عنه خيرا .

- إذا كتب الله له النجاة، ووصل إلى الشمال فإنه سيكون على أحسن حال، أما إذا كانت الأخرى لا قدّر الله فعليه العوض.

- أنا أدعو الله صباح مساء أن نسمع عليه الخير، من يدرى لعلّه وصل ولم تصلنا أخباره. أنت تعرف، هنا ليس هناك من وسيلة اتصال عدا الرسائل، وهذه تأخذ وقتا حتى تصل إلينا ربنا يستر.

- تفاءلى خيرا، تسمعين عليه كل خير.

- ربّى يفرّح قلبك.

- أنا ذاهب إلى السوق، وأنت اذهبى إلى صالحة.

- لا تنس ان تشترى للعجوز بطانية، أو لحافا، ليس عندها ما تتقى به برد الشتاء القادم.. إنها مسكينة تستحق الصدقة.

- ساشترى لها بطانية وملحفة وبخنوق من الصوف.

ذهب كل منهما نحو وجهته: نجمة قصدت بيت صالحة ومصباح

أخذ طريقه إلى السوق، بشّرت نجمة صالحة بقدوم مصباح، وأخبرتها عن الخطّة التى دبرتها لهما للقاء به، فى كوخ للاهم بعد المغرب، وطلبت منها أن تتذرّع بذريعة ما لزيارة العجوز، وأن تقول لأمها إنها ذاهبة مع نجمة ولا تنشغل إذا تأخرت.

تواجدت نجمة وصالحة فى كوخ للاهم قبل مجىء مصباح كما كان الاتفاق بعد وقت قليل قدم مصباح يحمل تلك الأشياء التى اشتراها للعجوز، تظاهر بأنه لا يعلم بضيوف عندها، فأخذ يبدى شيئا من الاعتذار.

قالت له العجوز، وقد استلمت منه ما أحضر لها من حاجات:

- أنت زي وليدى، وضيوفى نجمة وصاحبتها صالحة، الله كثّر من أمثالها، وهي تزورنى كل أسبوع، وأنا أدعو لها أن تسمع على منصور الخبر السعيد.

- نجمة الله أبشّرك، يا خالتى للاهم.. دعواتك مقبولة.

- وهذه صاحبتها صالحة، الله يعطيها ما فى قلبها ويفرّحا قريبا.

- أنست بهما وليس لهما عليك جميلا.. واجبهما زيارتك.

كان اللقاء كما سبق مدبّرا، وكل يظهر أنه غافل عن الآخر

أخذ مصباح صالحة على جانب يتناجيان، وضلت نجمة تشاغل العجوز بالحديث.

- صالحة: ما أكبر عزم الرجال، وصبرهم على أحبائهم.

- يقول الناس: الرجال صبرهم كصبر الجمال.

- فى قولهم حق.. أما النساء فرقيقات المشاعر، وليس لهن صبر على الأحبّاء..

تقول صاحبة القول:

لي عين ما أصبرها على غاليها كيف راقده نوم الهناء وإجيبها»

- قيل لى إن الخطاب تكاثروا بعدى؟

- «العقل جوه ميتين والقلب والع أبواحد والسرج ما يحمل إثنين غير يا ولد كون جاحد»

نعم: السرج ما يحمل إثنين.. والقلب والع بواحد.. ما زال الواحد على عهده.

- وهل أنا بدّلت؟!

- أخبرتنى نجمة أنك رفضت الجميع، وأنك على العهد

- أنا على العهد دائما.. وانت تعرف كلام الناس وضغط الأهل.

- من صبر نال، والفرج أقرب ممّا تتصورين، إن لم يكن بعد أسبوع فلا يتعدى الشهر.

- عجّل يا حبيبى، وأنت تعرف والدي ومزاجه.. حين يلاحقنى الخطاب وأنا أرفضهم، ربما شك فى أمرك معى، ساعتها يفعل ما يفعل، يعاكسنى ويتحدّاك، وهو لا يرتاح إليك، أنت تعرف هذا

- ولماذا لا تضعيه أمام الأمر الواقع.. ارفضى رغبته وحققى رغبتك.

- أنت تعرف العادة والعرف فى الحي، بل فى الواحة كلّها، أمر صعب أن ترفض الفتاة رغبة والدها وتلغى كلمته.

- هذا واقع أعرفه.. عندك حق، لا عليك لى ما يروِّضه.

- كيف قل لى.

- عندما يحين الوقت، ستكون المفاجاة لك أنت أيضا.

- البر خيره: عاجله.

- غدا صباحا قبل أن يخرج للعمل.

- هل تتكلّم جدًّا؟

- لم أعرف الهزل فى شأن يخصنى ولم أفعل فى حياتى إلا الجد وعندما أصمم على فعل أفعله وبإحكام وأن غدا لناظره قريب

- يا حبيبى: هذا ضنى وعشمى فيك.. غدا فرصتى الكبرى حيث تأتى إلينا وتعود غدًا إنشاء الله.

- وعدٌ منى لا أعود خائبا، بل بموافقة أبيك على زواجنا وقريب كما قلت لك اطمئنى فيوم المنى أمام عينيك.

- خذه بلين الكلام، وبالوعود، حتى إن لم يكن فى مقدروك الآن لوّح له بالآمال، أنه يحب المال كما تعرف عنه، ويريد أن يوسّع ورشة النجارة.

- وستضل داركم بلا باب..يضحك وتضحك معه من تلك الخاطرة ويتغير الجو بينهما.

لم يكن الجو ولا المكان مناسبًا لأكثر من تبادل ذلك الحوار، دونما مداعبة بكلمات العشق والغزل، فقط قالت صالحة:

- يا حبيبى متى يجمعنا بيت واحد؟!

- فى وقت قريب كونى على ثقة من قولى هذا.. أنا أشدّ منك لهفة على ذلك اليوم.

نجمة تنبّه مصباح إلى الوقت:

- تأخرنا كثيرا يا مصباح، أمك الآن تترقّب قدومنا: اسقاط تريد أن تسمعه صالحة.

- هيا بنا أنت لم تنبهينى إلى أن الوقت قد طال

- للآّهم العجوز: هى نجمة دائما متعجّلة، كأنها لا تعرف أن ميعاد الحبيب قصير.

- تأخرنا كثيرا يا خالتى للآّهم، سنزورك مرّة أخرى.

- مصباح يخاطب للاهم: إذا احتجت فى شيء يا أمي للاهم خبرى نجمة سأحضر لك ما تحتاجين.

- كثّر خيرك أوليدى، نجمة لا تزورنى كثيرا إن احتجت إلى شيء صالحة هى التى تتفقدنى دائمًا، وأنا ادعو لها بالفرح القريب.

كأنها تريد ان تقول له: أنا أعرف ما بينكما.

- من فمك لباب السماء، وأنا من واجبى أن أزورك دائما.

- للآّهم: ومصباح أوليدى، يفتح الله عليه ويعطيه ما فى باله.

- يرحم والديك، وأنا لن أبخل عليك بالزيارة كلّما جئت من الساحل تصبحى على خير يا أمي للآّهم.

يخرج وتتبعه نجمة، وتشيّعه صالحة بهمزة فى جنبه لا يراها أحد.

يلتفت إليها مبتسمًا ويقول: (السلف مردود).

منذ الصباح الباكر تحرك مصباح بتلك السيارة الفخمة التى لم يدخل الواحة مثلها من قبل، قصد السوق، اشترى قفّة، كما يسمونها فى اللهجة المحلية: عبارة عن أكياس مملوءة بحلويات مشكّلة، ومكسّرات، وبضائع غذائية أخرى، عطور ومنظفات ولوازم نسائية، اشترى ثلاث خراف مذبوحة وأربع علب كبيرة كل علبة تسع عشر (باكوات) من السجائر التى يدخّنها النجار: - عرفه سابقا- واشترى صناديق كاملة من فاكهة منوّعة: تفاح، وموز، وعنب وغيره، اشترى كثيرا من البسكويت والخبز والمكرونة ودقيق السميد: مشتريات كاملة تلزم لإقامة وليمة يدعى لها الجيران.. جاء بهذا كلّه محمّلا فى تلك السيارة إلى دار النجار، وقبل أن يخرج إلى محل عمله، فاجأه مصباح بالحضور الغير متوقع.. وقفت السيارة الفارهة قرب تلك الدار الطينية البائسة التى لا باب لها، كانت أم صالحة تطعم دجاجات وحمام فى فناء الدار، نظرت إلى الشاب باستغراب وإنكار، نادت: بصوت عال

- أعمّار.. دونك ظيف.

سمعها الرجل: عمّار النجار، خرج يستطلع الأمر وبين أصابعه عقب سيجارة كان متعودا أن يأخذها بعد قهوة الصباح، طالعه وجه مصباح - قال مستغربا ومنكرًا:

- منو؟! مصباح!!.. زوز تفضّل.. يتأكد: مصباح والاّ أنا غالط؟

- أنت ما تغلطشى يا عمي.. أنا مصباح، جئت إليك فى حاجة.

- اللّى جيت بيه تمشى بيه: كلمة يقولها البدوى فى شهامة ومروءة يعنيها ويلتزم بها فى أدبيات البدو: عهدًا قاطع.

- يا عمى.. أنا طالب يد صالحة: قال مصباح.

- زاز طلبك، بمعنى: طلبك مستجاب.

اقتربت منهما أم صالحة تتنصّت حوارهما.. عرفت أن مصباح طلب يد صالحة وعمار زوجها وافق بحكم العرف فى الحي والمنطقة كلّها.. أنطلقت حنجرتها بزغرودة مدويّة سمعتها صالحة، كانت مشغولة بإعداد إفطار الصباح لأبيها.. جاءت على عجل، طالعها مصباح وأبوها يقول له:

تفضل زوز يا ولدى.. ادخل الدار.. وليت من العيلة، فهمت من كلمة أبيها: - وليت من العيلة أن الأمر انتهى كما تريد، عاودت أمها زغرودة أخرى، ونظرت إلى بنتها تحثها على أن تستقبل الظيف بما يليق به.

- عمّار النجار ينادى ابنته: أصالحة.

- نعم يا بابا.

- مصباح طلبك.

- كلمتى فى فم بابا

- مبروك يا ولدى قال: عمّار النجار

- الله يبارك لى ولها وكلهم جيمعا، هذا ضنّى فى الرجال أصحاب الكلمة.

- يا ولدى: كلمتنا زي الموت مرّه وحدة، إذا خرجت من الفم: طاح الكاف على ضلّه.. وأنا لما قتلك: اللى جيت بيه تمشى بيه مانيش عارف شى تطلب، واللّى طلبته خذيته، هذا عرفنا.

أخرج مصباح حمولة السيارة (القفة): المشتريات الهدية التى أحضرها، تسابق إليها إخوة صالحة يدخلونها الدار، أما هو فقد أستأذن فى الذهاب عائدا إلى الساحل، بعد أن مدّ برزمة من العملة المحلية إلى عمار النجار، عرفه سابقا، قائلا:

- هذا يا عمى مبلغًا بسيطًا، ربما تحتاجه فى غيابى الذى سوف.. لا يزيد عن أسبوع واحد، وأعود لإتمام الخطبة رسميًّا، وأمام الأشهاد، فهذه عادتنا كما تعرف، وأنت سيد العارفين.

- مبروك عليك يا ولدى، وإنشاء الله بالهناء والسعادة، قال عمار.

تحرّك مصباح بتلك السيارة الفخمة - سيارة باولا - وهو لا يملك نفسه من الفرح، وعيون صالحة وأمّها تشيعه إلى أن توارى فى منعرج الطريق.

قال عمار النجار:

- أمره غريب مصباح هذا؟! بالأمس كان صبيًّا يعمل معى فى الورشة، وأجرته لا تزيد عن فرنكات محدودة واليوم أراه فى هذا الوضع الذى لا يخطر على بالى. يخاطب زوجته.

- لا تستغرب هذا، هو منذ غادر الواحة، وهو يعمل فى الساحل وكما تعلم أن فرص العمل فى الساحل كثيرة وأجرة العمل هناك مجزية

- وكم من واحد ذهب إلى الساحل، وبقى هناك أكثر من عشر سنوات وعاد كما ذهب.. ألم يذهب منصور ابن أختى وضل هناك سنوات طويلة ثم عاد لا يملك شيئًا، وهو اليوم أحرق مع من أحرق ويعلم الله أين هو الآن، فى أرض الشمال، أم فى بطن الحوت.

- كل وحظّه فى الحياة، وأنت تعرف مصباح، فالح ويعرف كيف يغتنم الفرص، ربما واتته فرصة كسب من ورائها هذا النعيم الذى هو فيه.

- ما هو فيه: أكثر ممّا تأتى به فرصة، أو فرص كثيرة للكسب الحلال.

- لا تشك فى الرجل، ولا ترميه بغير علم، ومالنا نحن، أليست نعمته هى نعمة ابنتنا؟ وستعيش معه فى رغد من العيش؟!

- أنا لا أحاسبه، إن كان كسبه مالا حلالا فهينئًا له، وإن كان كسباً حراما، فسوف لن يبقى منه شيء، إن لم يره كيف دخل سيراه كيف يخرج.

- وهل أنت حسيبه؟، حسيبه الله.. دع عنك الشك واترك الرجل فى حاله.

- وحال ابنتنا معه ألا يهمك؟ إذا أطعمها وكساها من مال حرام؟!

- يقينى: ان الرجل وتته فرصة للكسب.. اللهم لا حسد.

- ويقينى: أنه حاد عن الطريق المستقيم، إن لم يكن قد سرق فى الليل أو فى وضح النهار.. لا بد أنه تحصل على مال بغير وجه حق، وإلاّ من أين له بهذه السيارة التى لا يملكها إلاّ القلة من أصحاب المال، وهذا البذخ الذى وصلنا طرف منه؟؟ لم يبق الاّ أياما قليلة فى الواحة، وعاد مصباح إلى الساحل حيث تنتظره باولا، تحسب الأيام بالدقائق، هكذا دبرّ أن يفاجئها قبل الموعد، ليشعرها أنه تعجّل العودة شوقا إليها، ويهمه أمرها أكثر من كل شيء، ويعلم الله أنه يظهر ما لا يبطن.

كانت باولا تجلس مع صاحبتها الفرنسية، فى ركن من حديقة الفندق فى الهواء الطلق، تحتسيان القهوة وإذا بها تراه يدخل من باب الفندق الدوّار، قاصدا الاستقبال، ليتأكد من مفتاح الجناح، إذا كان موجودا، أو هي تكون فى الجناح.. تركت صاحبتها فجأة ولم تسمع منها إلاّ كلمة (بردو) وأسرعت خطاها نحو الاستقبال.

أخذ مصباح المفتاح قبل أن تلحقه، أشار إليها موظف الاستقبال: بأن صاحبها ينتظرها، وفى نفسه شيء منها، كونها متصابئة

- هل سرك قدومى قبل الموعد؟

- طبعا يسرنى جدا، وأنا بعدك لا شيء، أنا بلا حبيبى لا طعم للحياة عندى، ولولا صاحبتى الفرنسية التى حدّثتك عنها، كانت تلازمنى وتبدّد وحدتى، لما عرفت كيف أعيش هذه المدّة التى تغيّبتها..

لا تفارقنى مرة أخرى.. أنت حياتى.. أنت روحي.. الأمل الذى أعيش من أجله، دمت لى يا حبيبى.

- لن يحدث هذا مرة أخرى إلاّ للضرورة.

- وإن كانت هناك من ضرورة، سوف أرافقك، لن أتركك مرّة أخرى تسافر وحدك، أنت حين تفارقنى: يفارقنى الفرح والسرور وتداهمنى الكآبة والوحشة.

- سنشرع فى بناء دارنا ونعيش فيها معًا ولا حاجة لنا للسفر والفراق.

- لا تتأخر، ابدأ غدا إن أمكن.

- كل شيء ممكنًا إذا توفرّ المال.

- ألا يكفينا المال الذى حوّلناه؟ أن لم يكف: عندنا رصيد آخر فى بنك آخر نأمر بتحويله، لا تفكرّ فى المال.

- غدا يبدأ المشروع، ولن يأخذ منّا بناء الدار إلاّ ستة شهور.

- وحين تكتمل الدار، تكتمل سعادتنا وفرحنا الكبير.

- بعدها سنفكرّ فى بعث مشروع استثمارى يدر علينا ربح وفير.

- كل ما تريده افعله.. يا حبيبى أنت حظي من السماء.

- ورجلك الذى هيأته لك الأقدار: جملة تحتمل معنيين.

- نعم أنت رجلى الذى أسعدنى فى حياتى، قبلك كانت الحياة جافة لا طعم لها.

- سترين على يديَّ كل الخير، كان يقول ما لا يضمر، بل كان يدبّر لها الغدر والوقيعة، كان يريد الاستيلاء على مالها الذى أصبح جلّه فى حسابه الخاص، كان يخطّط إلى أبعد من ذلك، كان هدفه شقتها الفاخرة فى جنيف، أما حساباتها فى البنوك فهو ضمنها، وكذلك الدار التى شرع فى بنائها.

كانت ليلتها معه حافلة، بعد تلك الأمانى السراب التى منّاها بها، وقد دفع لها فى تلك الليلة العربون على مضض منه.

لقد ملّها وأصبح يشمئز منها، لكنه، مضطر أن يلقى لها بالطعم

بين حين وحين لتزداد اقترابا من الشراك.. أسعدها حتى الفجر، وفى الصباح تركها نائمة، وخرج يسعى فى شأن الدار، أو على الأصح: للسرقة، وابتزازها وهى غافلة تثق فيه ولا تشك.

كانت له قدرة عجيبة للالتفاف على من يتعامل معهم، يوسّع الأمال والوعود الكاذبة، يريهم الربح المحقق، والكسب المضمون، ويحصل على ما يريد بسهولة ويسر، يصطاد الطماعين يجعلهم يجرون وراء سراب، يحقّق لهم الهدف، وتناهم الخسارة، ثم لا يعدم الوسيلة لإيجاد المبرّرات والأعذار الواهية للإفلات.

قصد أحد المقاولين الذين يعملون فى مهنة البناء بغير أمانة وبنوايا سيئة وأيادى غير نظيفة: يغشون ويزوّرون الفواتير، يتواطؤون مع العملاء، لمساعدتهم على السرقة.

وهؤلاء الغشاشين والمدلسين أدبياتهم التى يتعاملون بها فى السوق،

منها: حسبة التكلفة الفعلية على أساس تسليم مفتاح ثم يرفعون التكّلفة إلى الضعف، أو حسب ما يطلب الزبون صاحب المصلحة على أن ينالهم حصة من تلك السرقة: نسبة يشترطونها.

اتَّفق مصباح مع مقاول غشاش، على أن يضيف على تكلفة الدار ثمانين فى المائة يحرّر له بها فاتورة نهائية، وان يدفع له عمولة على السرقة والتزوير، وكما فى المثل: «سرّاق من تحت سرّاق» هذا فقط فيما يخص اليد العاملة، أما مواد البناء فالشرط بينهما أن يتم شراؤها بمعرفة مصباح لا دخْل للمقاول فيها.

كان ينوى السرقة فى هذه المواد أيضا بتزوير فواتيرها.

أحضر المقاول الغشاش الآلات والعمّال.. آلات قديمة متهالكة، وعمّال غير مدربين، يجمعهم من السوق حيثما اتفق، ولا بأس أن أخطأوا فى التنفيذ، أو نسبة المقادير، حين تركيبها أو خلطها، فالعملية من أولها، مغشوشة ومسروقة، ومزوّرة، وكما قال المقاول: ربي فى ربى، بمعنى أكلها حرام فى حرام.

أما المواد التى اشتراها مصباح فكانت كلها من الدرجة الثالثة.

وليست حتى من الثانية، وأثمانها مضاعفة فى الفواتير المزورة بالطبع: طبع مصباح الذى لا يحيد عن التزوير والغش.

عاين المقاول المواد قال: هذه مواد رديئة ومغشوشة.

- ومن قال لك نريدها غير مغشوشة؟ قال: مصباح، أضاف ألا

يمكن أن يقام بها البناء؟

- نحن نشيّد لك المبنى بما تحضره لنا، لكن عمره سيكون قصيرا.

- المثل يقول: «اللي يعطيك حبل كتفه بيه»

- هذا صحيح، ومثل آخر: «اللىّ إديره العشمة ياكلوه ضناها»

- نفّذ واسكت وخذ حصتك.

- هيّ قبل كل شيء والاّ...

- تقول؟

- دون شك.

- أستلم واسكت

- وأنت سلّم تسلم

- الآن قلت الحق.. السلامة فى قلّة الكلام.

عاد مصباح إلى الفندق عند منتصف النهار، وجد باولا تنتظرة فى بهو الفندق.. صاحبها إلى المطعم.. جلسا فى انتظار الطعام كان متهلّل الأسارير.

قالت باولا:

- حبيبى، هل وفقت فى أمر كنت تقضيه؟

- جدا كنت موفقًا.

- خبرنى.. عساك وجدت المقاول المنفذ

- واتفقنا.. هو من أحسن المقاولين، وأسرعهم فى التنفيذ.

- ومتى يبدأ العمل؟

- غدا وسأشرف أنا على العمل، على كل شيء، حتى مواد البناء أنا الذى أقوم بشرائها خوفا من الغش.

- فعلت خيرا احذر من الغش.. والغشاش لا يفلح.

- الغشاش: يغش نفسه.

- لا تترك فرصة لمن يغشك.

- أنا المشرف على كل شيء، ولا أسمح لمن يريد أن يغشنى أو يسرقنى، أنا أحسب هذا الأمر.

- دمت لى يا حبيبى.. كم أنا مشتاقة أن أرى دارنا تتصدّر سفح ذلك الجبل المقابل للبحر.

- ستة شهور ليس إلاّ كما أخبرتك من قبل، والوقت يمرّ بسرعة

- وكذلك العمر، كانت زلّة نطق بها لسانها دون أن تشعر، غطى عليها عامل المطعم وهو يقوم بترتيب المائدة.

تظاهر مصباح بأنّه لم يسمع الكلمة، وحوّل الحديث بفطنته إلى العامل بطلب منه نوعا معينًا من المشروبات، ثم التفت إلى باولا، فوجدها كأن الخاطر قد ذهب بها بعيدا أثر زلة اللسان تلك التى نطقت بها لا إراديًا.. دغدغها قائلا:

- حبيبتى.. ما رأيك أن نسهر الليلة خارج الفندق.. فى ملهى قريب..

ملهى شبابى؟

- نسهر حيثما تريد يا حبيبى.. أنا نمت اليوم حتى الساعة الحادية عشرة.

- وغدا تنامين بعد الفجر كليلة البارحة، ثم غزاها بابتسامة.

ابتسمت وربتت على يده، ثم قالت:

- جئت نشطا مشبعا بجو الواحة وهوائها الصحراوى

- جو يفعل فعل السحر..هواء منعش، وجو نظيف خال من الرطوبة.

ذهبا إلى ملهى ليلى شبابى قريبا من الفندق.. سهرا ورقصا.

كانت تكابر حين تتوالى الموسيقا مصاحبة لرقصات شبابية لا تقوى عليها، لكنّها لا تريد أن تشعره بوهنها، أو أنها رقصات ليس لمن فى سنّها، فتقوم مكرهة تدارى عدم رغبتها، حين يدعوها للرقص، كان يريد أن ينهكها،ويهدّ جهدها، فتتنبّه إلى نفسها أو تحترم سنّها فلا تطمح أكثر فى مزيد من التشبث بالحياة.

عادا قرب الفجر إلى جناحهما فى الفندق، كانت لا تكاد تقوى على الحركة، وضعت حقيبة يدها على أقرب كرسي وارتمت فوق السرير، ونفسها يتقطّع من شدّة الأعباء.

نظر إليها وهى نصف نائمة، داعبه خاطر شرير فيه شماتة وتشفي، ونوع من الاحتقار، واللامبالاة وعدم الاكتراث بها، جلس فى الفوتيل الكبير المقابل للسرير.. سحب سيجارة أشعلها.. صب كأسا من

الشراب.. ضل يستعرض حياته معها منذ سنتين تقريبا.. وهو يناور، ويتآمر، ويدبّر يطبّق كل ما زوّده به مستشاره إبليس من نصائح شريّة، وتدابير سوء، ومكر وخداع، سنتين وقت ليس بالقصير، ولم يضرب ضربته القاضية بعد.

لا بد من المبادرة، كى ينفّذ مخطّطه الرهيب الذى أعدّه للإيقاع بفَريسته، وفى أسرع وقت، بعد أن يستكمل بناء الدار مباشرة، وقد تزامن مع بناء الدار بعث المشروع الذى اقترحه على باولا، وقالت: له من قبل: ليس لى معك رأي، ولا تستشيرنى فى شيء نفذ ما بدا لك فأنت الحارس الأمين على ما لنا يا حبيبى.

كان المشروع الاستثمارى الذى بدأ تنفيذه: عبارة عن عشر حضائر لتربية الدجاج البيّاض: بناء بطوب محلّى وسقوف من خشب وزنك.. هو لا يعوّل كثيرا على جدواه الاقتصادية.. هو مشروع بالنسبة له باب يستنزف عن طريقه مزيدا من مال باولا، يسرق ثلاثة أرباع القيمة، والربع الباقى ينفذ به المشروع ذرا للرماد فى العيون ليس إلاّ.

اكتمل بناء الدار، وانبعث المشروع لم تعد له حاجه بباولا التى تعتبره زوجها، ويعتبرها هو بقرة حلوب، يجب استغلالها، إلى آخر قطرة من لبن فى الضرع وقد تم له ذلك.. الآن أصبح وجودها عبئًا يثقل كاهلة، ويجب التخلص منه، هو لا يعدم وسيلة لذلك.. مستشاره قريب منه.. شيطانه فى حببه كما يقولون.

(14)

عندما جلس فى الفوتيل الكبير بجانب السرير، الذى انطرحت فيه واستغرقت فى نوم عميق من شدّة الإعياء، كان هو يرتب أفكاره الشيطانية، يستعرض سيناريوهات عدّة للقضاء عليها بضربة قاسمة للظهر.

استقرّ رأيه على انجعها وقرّرا التنفيذ منذ الصباح.. أخذ قسطا من النوم، قبل أن تستيقظ هي العاشرة صباحا، وعادة حتى فى الأيام العادية.. هي فى تلك الليلة كانت مجهدة بسبب الرقص الذى أفرطت فيه تجارى شابا فى الثلاثين.. نهض مسرعا فكتب لها رسالة حتى لا تصر على مرافقته إلى الواحة، كما طلبت ذات مرة ووعدها بذلك.

كتب لها رسالة مفادها: أنه اضطّر للسفر فى أمر عاجل بينه لها: أن عمته أخت أبيه: وفاها الأجل، وعليه، لا بد له من التواجد فى الواحة، يشد أزر أبيه واسرة عّمته، ولحضور مراسم الدفن وقبول التعازى من المعارف والأجوار، والأمر يتطلب منه غياب عشرة أيام، بعدها سيعود فلا تشغل بالها، وعليها أن تستضيف عندها فى الدار صاحبتها الفرنسية، لتوانسها وتبدّد عنها الوحشة.

أخذ السيارة وذهب إلى مغارة، كان قد اشترى منها جميع لوازم العرس، عرسه على صالحة.. تلك التى توجد فى الواحة، حمّلها فى جميع فضاءات السيارة من الداخل، وفى الحقيبة الخلفية وانطلق مسرعا فى الطريق.

هكذا كانت أوّل خطوات السيناريو الذى اعتمده وأخذ ينفذه خطوة بعد أخرى، حتى يخلص من باولا بعد أن جردها من مالها وما

تملك، بطرق التزوير والحيلة، حتى شقّتها الفاخرة فى جنيف باعتها وحوّلت ثمنها إلى حسابه.

وصل إلى الواحة وحقيبة يده ملئى بمبالغ مالية: عمله محلية وأجنبية، جنّب منها مصاريف العرس، وما بقى دفع جزءا منه لوالد صالحة مهرا لها، وزاد قيمة مضافة كمنحة ليوسع بها معمل النجارة.

اشترى بيتا متوسط الثمن فى الواحة لعائلته، فانتقلوا فورا من حي الأكواخ إلى الحي الذى به الدور: المبنية بالطوب وتعتبر عصرية إلى حد ما إذ هي مزوّدة بالماء والنور.

أقام عرسا تحدّث به الناس فى الواحة كلّها، حتى إن بعضهم وصفه بالمهرجان، ذبح الذبائح، ووزّع الهدايا، ونصب الولائم يأكل منها كل من أَمَّ العرس، وشهد الشهود: أن مصباح تزوّج صالحة بنت النجار.

حجز مصباح غرفتين فى الفندق الوحيد فى الواحة، الذى غالبا ما يكون فارغا، الاّ من بعض المجاميع السياحية التى تزور الواحة بين فترة وأخرى، كانت إحدى الغرفتين مميّزة، أشار بها عليه موظف الاستقبال الوحيد، بعد أن نفحه بمبلغ من المال، أما الغرفة الثانية فكانت تستعمل كصالة استقبال، حين يزور الواحة مسئول محلي سامى.

دخل مصباح بزوجته صالحة فى تلك الغرفة المميَّزة وجعل الغرفة الصالة، لاستقبال ضيوف زوجته المهنّيات من معارفها وأقاربها حين يأتين فى الصباح، لحضور الصباحية، وقد قرر مصباح أن تكون فى

الفندق، تقدم فيها المشروبات والحلويات، والهدايا توزعها صالحة على المبجّلات من صاحباتها المقربات.

عشرة أيام قضاها مصباح مع زوجته فى الفندق، ينعم بحبّه القديم الجديد، الذى تمتد ذكراه إلى أيام كان فيها صبيًّا يعمل فى دكان والدها.. وجاء يوم الرحيل إلى الساحل حيث توجد داره الفخمة التى حدث بها صالحة.. وجاءت ساعة المواجهة مع باولا، لابد أنّه حسب لكل شيء حسابه، إنّه يخطّط لكل شيء ولا يترك ثغرة يحتمل أن تسبّب له بعض الإشكالات دون أن يسدّها، فى الطريق أخبر زوجته بقصته مع باولا، مع الاحتفاظ ببعض التفاصيل التى قد تنغص عليها، أو تخلق عندها شيئًا من الغيرة.

قال لها:

- هناك امرأة عجوز فى الدار من سويسرا حلّت ظيفة عندى لأيّام، وسترحل عمّا قريب، أنت لا تتكلمين لغتها، وهي لا تتكلّم لغتك، سأكون أنا المترجم بينكما، أنا كنت أساعدها كدليل حين تزور الآثار والأسواق الشعبية، هي امرأة كبيرة بالسن، وقد لاحظت عليها أخيرا أنها مصابة بالخرف، فلا تأخذِ بعض كلامها على محمل الجد حينما يتخلى عنها عقلها.

- أنا لا أعبأ بها ما دامت فى حالٍ كما قلت، وهي ظيفة، لكنها ظيفة ثقيلة كما يبدو، لماذا لا ترحل وأنت معك زوجتك؟ ألا تستحي أن تشارك رجلا فى بيته، ينام مع زوجته؟!

- الأجانب وخاصة الأوربيين، لا ينظرون إلى هذه المسألة بشيء من الاعتبار.

تعمّد أن يدخل الدار فى وقت تكون فيه باولا:- زوجته السابقة كما أصبح يسمّيها بينه وبين نفسه.. فى صالة الطعام، ولا تعود إلى الدار الاّ فى وقت متأخر، خاصة إذا كانت برفقتها صاحبتها الفرنسية العجوز مثلها، والمصابة بثرثرة الكلام.

أدخل السيارة فى المرآب، وحمل الحقيبة الكبيرة التى امتلأت بها ملابس صالحة وحاجياتها الخاصة، وحملت صالحة حقيبة أخرى صغيرة.

دخل وإياها الدار التى أدارت راس صالحة بفخامتها وحسن ترتيبها، وأناقة أثاثها وما فيها من تحف ومزهريات توّزع عليها باولا الورود كل صباح وترشها بالماء.. هالها الصالون الفخم، وطاولة الطعام الكراسي المموهة بماء الذهب، والمرايا فى كل ركن، ونظافة الحمّام وحسنه وما فيه من قنينات عطور فاخرة، ومنظفات، ومناشف من كل لون.. عالم ساحر كأنها فى خيال، كاد رأسها يدور من بهاء المكان وجمالياته.

قالت:

- مصباح.. هذا كلّه لى أنا؟!

- ولمن تضنينه؟ هل عندى غيرك؟!

- لا اعلم أنا مذهولة.. وليتنى أصدق أن هذا كلّه لي.. ولى وحدى.

- ولمن يكون إذا لم يكن لك أنت.. وأنت وحدك؟

- مرّة أخرى يراودنى الشك.. هذه جنة يا حبيبى إن كانت لى حقّاً.

- ولماذا تستكثرين على نفسك هذا النعيم؟

- لأننى لم أحلم به فى يوم من الأيام.

- لأنك لا تعرفى مصباح على حقيقته - وخزه ضميره أنه سارق - وعندما تعرفينه سوف لن تستكثرى شيئا.

- يا حبيبى هذا فوق الخيال. كيف لواحدة مثلى كانت تعيش فى غرفة من طين دون باب، وبين يوم وليلها تجد نفسها فى هذا الجو الباذخ الذى لا يصدّقه عقل مثلي.

- مرّة أخرى أقول لك إنك لا تعرفي مصباح، وسترين أكثر من هذا غدا، عندما تشاهدين عشر حضائر للدواجن تدرّ كل يوم مالا وفيرا.

- دعنى أستوعب هذا أولا، هذا شيء خرافي، ولا يقدّر بمال.

- هذا قليل من كثير، ولو علمت ما خفى، لكان استغرابك أكثر.

- وهل هناك أكثر من هذا؟!

- نعم هناك - يقصد رصيده فى البنك - وستعرفين كل شيء مع الأيام.

عادت باولا حين دخلت من باب الحديقة طالعتها السيارة فى المرآب.. مصباح عاد، أسرعت تحث الخطى، وهي تحاذر أن تتعثرّ فى الدرج الخارجى.

فتحت الباب.. لمحت مصباح فى ركن من الصالون.. تقدمت نحوه تسبقها الفرحة، قالت:

- آه، مصباه، هبيبي!!

أشار إليها أن تصمت خوفا من التمادى فى الكلام، وربما الفعل.

وقفت مبهوتة.. بدأ المشهد هكذا: مصباح جالسا وقد أشار إلى باولا بامر جديد عليها.. ظهرت زوجته من الغرفة، وقد سمعت المرأة لغطت ثم صمتت.. وقفت بدورها قريبة من مصباح..

صاحت باولا: مصباه من هذه؟!!

- قال:

- هذه زوجتى.

- قالت: وقد جن جنونها - زوجتك؟! ومن أكون أنا؟!

صالحة وقد استغربت من المرأة العجوز: صراخها ولهجتها التى تدلّ عن دالّة على مصباح.

قالت:

- ماذا تقول هذه العجوز؟ أليست هي الظيفة الثقيلة التى أخبرتنى عنها.

مصباح: يتكلّم بالفرنسية مع باولا وبالعربية مع صالحة ويترجم بينهما: يقول ما يريد ويحذف ما يريد.

قال يخاطب صالحة.. ألم أقل لك إنها خرفة وتتصرّف أحيانا كأنها صاحبة الدار.

أصبح الثلاثة فى موقف دراما تيكي.. عاودت باولا السؤال وهي تهتزّ من شدّة الانفعال.. مصباه قل لى من هذه؟!

- قلت لك: إنها زوجتى.. قالها مصباح بلهجة جادّة وحاسمة.

- صالحة حقًّا إنها عجوز وقحة وترفع صوتها كأنها صاحبة الدار!!

انهارت باولا لم تعد تقوى على الوقوف ولا أن تسمع أكثر.. جلست على كرسي قريبا منها تنشج بالبكاء.

دخلت صالحة غرفة النوم التى وضعت فيها حقائبها حين وصلت، ما زال فى مصباح بقية مروءة.. فقد ترك لباولا غرفة نومها التى طالما قاسمها إياها قبل ان تكتمل المؤامرة، وخصّص لزوجته الغرفة المخصصة للظيوف.

قفل الباب وضلّ مع صالحة التى رابها الأمر فلاذت بالصمت قبل أن تفتح معه بابا للحوار، إلاّ بعد فترة وجيزة.

ضلّت باولا تتجرّع مرارة القهر، وتذرف الدمع إلى قرب الفجر حين غلبها النعاس، فتحوّلت إلى السرير الذى كان من قبل دافئا مريحا بوجود مصباح، فأصبح باردا خاليا منه.

نظرت إلى مصباح صالحه، نظرة منكرةً لوجودا العجوز ومسترابة فى أمرها.

وفى حقيقة الموضوع من أصله، طاف بخاطرها قدوم مصباح إلى الواحة بعد طول غياب فى المرّة الأولى، ثم فى المرّة الثانية بعد أسبوع واحد، وذلك الزواج السريع، والبذخ الظاهر الذى كان فى جميع مظاهر العرس، والمال الذى منحه لوالدها فوق المهر.. البيت الذى اشتراه لعائلته.. السيارة الفارهة التى يتنقّل بها.. كلام الحى والواحة كلّها

المتداول بين الناس بخصوص مصباح وشراء البيت لأسرته.. الخ.

قالت:

- مصباح ما حكاية هذه المرأة العجوز التى تتكلّم معك كأنها صاحبة الدار، وأنت خادم عندها؟!.. إلاّ إذا كانت زوجتك كما فهمت من إشاراتها.

- قلت لك: ان بعقلها مسًّا: الزهايمر.. أتعرفين الزهايمر؟

- أنا لا أعرف عمّاذا تتحدّث.. عقلى يقولى غير هذا.

- ماذا يقول لك عقلك؟

- يقول: إنك متزوج بها.

- ولنفرض هذا.. اعندك مانع؟! أليس لى الحق فى أربع؟

- لك الحق.. نعم.. لكن أتبدأ المسألة بشكل عكسي؟!

- ما معنى قولك هذا؟ أنا لم أفهم.

- إذا أنت من لا يفهم.. فمن الذى يفهم؟!!

- فسرى لي كيف هي المسألة العكسية التى بدأت بها؟

- إذا كانت هذه هي زوجتك الأولى.. عجوز أكبر من أمي وأمك فإن زوجتك الثالثة التى ستأتى بعدى، لا بد ان تكون أصغر منى، والرابعة هي الأصغر.. أليس هذا أمرا معكوسا؟!

- دعك من التفكير فى أمر لم يحدث بعد.. أنا متعب سأنام.

- وأنا جافانى النوم، وسأضل أفكر فى هذا الوضع الغير سوى، وفى الاحتمال الأقرب: مغشوشا.. عروس فى الأسبوع الأول من زواجها، تدخل دارها فتجد عجوزا شمطاء تشاركها الدار والزوج؟!

- من أين جئت بهذه التخريجة، التى هى فى عقلك وحدك؟

- من الواقع المعاش.. أليس هذا هو الواقع؟.. أليست العجوز الخرفة كما قلت هي التى تنام فى الغرفة الأولى فى الدار، وأنا فى غرفة الظيوف؟

والله إنه لأمر معكوس.

دعي الأمر للصباح.. الصباح رباح.. لن أجادلك مرة أخرى.

- سأجادل نفسى حتى الصباح.

- تصبحين على خير.

- ردت نفس الكلمة بشكل خافت.. ضلّت جالسة وعقلها مشغول بالأمر، زفرت زفرة طويلة وقالت تحادث نفسها.

- ما هذا يا ربىّ!! عروس تدخل دارها فتجد أخرى لا تعرف ما هو وضعها بالظبط.

ما زال هو لم يغفو بعد، قال فى نفسه: يعلم الله إن الدار دارها هي لكن الظروف لعبت دورا معكوسا كما قالت.

فى الصباح تجسّد موقف درامى آخر، كان أبطاله هم الثلاثة:

باولا، ومصباح وصالحة.

استيقضت باولا التى لم يكحل النوم جفنها إلاّ قرب الفجر، بعد أن ذرفت الدمع، وكابدت ألم القهر.. استيقضت على صراخ صالحة، وهى تجادل مصباح فى أمر الظيفة الثقيلة، كما كانت تعتقد حتى ذلك الوقت، وان كان يغامرها الشك: أن فى الأمر سرا، لا يريد أن يفصح عنه مصباح، كانت تقول له وبصوت عال

- أصدقنى القول: بخصوص ظيفتك الثقيلة كما تسميها، وإن كنت أعتقد:

أنها ضرّة، وضرّة سابقة قبل بامتياز.

- هي كما قلت وكفى.

- تريدنى أن أسكت عن الغش؟! أنا تربيت فقيرة: صادقة وأمينة، وعفيفة نزيهة، لا أعرف الغش ولن أعيش فى وسط مغشوش.

- هذا شأنك.. أما أنا فهذه دارى وهذه ظيفتى وكفى.

- سأتدبّر أمرى.. بنت النجار لا يضيرها أن تعود إلى تلك الغرفة الوحيدة التى تضم عائلة كبيرة وفقيرة لكنّها شريفة، ولا تعيش فى مثل هذه الدار، وفى قلبها شك، وليس لها فيها حق كما يبدو.

كان هو جالساً فى الصالون، وكانت صالحة واقفة تواجهه صوتها عاليا تجادله.

جاءت باولا فزعة، وقد فهمت حدسًا، أن الأمر يتعلق بها فى جزء

منه، وقفت هي أيضا على رأسه، ورفعت وصوتها لأول مرة عليه.

قالت:

مصباه.. ماذا فعلت؟.. أمارست عليّ الخداع والغش.

دبّرت وزوّرت، استوليت على مالى بالحيلة والمكر؟ ثم ها أنت تتزوج بأخرى؟ كانت تتكلّم باللغة الإيطالية التى يتقنها.

ردّ عليها:

- تزوجت بأخرى لأن الشرع عندنا. سمح لى بأن أتزوج بأربع كما سمعت من قبل، وسأتزوج بالثالثة والرابعة فى وقت قريب، أنا رجل موَّسع عليّ ولى قدرات أخرى تعرفينها.

- تتزوج بأربع؟!! يا إله ماذا أسمع، هل أنا فى حلم، كيف يتزوج الرجل بأربع؟!

تدخلت صالحة فى الجدل، كانت تسمع الكلام ولا تعى معناه، لكنها لبيبة بالإشارة تفهم، كانت تتابع حركات باولا وهى تشير إلى مصباح بأصابعها: أربع.. أربع.

قالت صالحة بالإشارة تخاطب باولا:

- هذا حقا له أن يتزوج بأربع.. أريد فقط أنت من تكونين؟

لم تفهم باولا سؤال صالحة، تطوع هو فترجم السؤال إلى الإيطالية.

قالت باولا تخاطب صالحة:

- أنا زوجته.. زوجته الأولى، كما أخبرنى، إن لم يكن قد كذب عليّ كما لا شك أنه كذب عليك.

قالت صالحة موجهة الكلام إلى مصباح:

- الآن حصحص الحق.. أنت رجل غشاش، ودخلت الغرفة تشرق بدمعها.

ضل فى المشهد مصباح وباولا: هو جالس وهى واقفة وقد زلزل كيانها زلزالا شديدا.. ضلت صامتة فى وجهه وهى مروّعة تكاد تسقط على الأرض قائلة:

- أنت كذّاب.. أنت شرير.. عديم الضمير والشرف والإنسانية، غشاش وماكر ومخادع.. يا اله كيف لم أكتشف فيك: هذه النذالة والحقارة والسفالة والخلق السيء، وهجمت عليه تحاول طرده.

- الآن حالا تخرج من دارى.. أنا لم أعد اثق فيك، ولا آمن جانبك.

- دارك؟، أين هي دارك؟ هذه دارى أنا، وأنت ابحثى عن دارك فى مصلحة العقارات.

ماذا تقول؟ أليست هذه دارى، وقد شيدتها بمالى وتعب عمرى كلّه؟

- كونى على يقين: لا الدار دارك، ولا المال مالك، وعليك أن تتأكدى من كل شيء بنفسك، وكل شيء موثق.

- سأشكوك إلى من بيده الأمر.

- لا تتأخرى قدّمي شكواك لمن تريدين. والآن عليك أن تخرجى حالا من دارى، فلم يعد لك من إقامة هنا منذ الساعة.. أغربى عن وجهى.

- حين جنونها وكادت أن تسقط مغشيًّا عليها من شدّة ومرارة كلماته الصادمة المهينة.

لا الدار دارك ولا المال مالك.. فطنت إلى وجود لعبة خطيرة لعبها معها، وتدبير محكم دبّر لها، تزوير وتدليس مارسه عليها.

كان هو يستعجل خروجها، من جهة لتقف هي على الحقيقة حين تستفسر من مصلحة العقارات، وتعرف أنها لا تملك دارا ولا أرضا، ومن جهة أخرى ليخلو بزوجته الغضبى، وذلك من أجل أن يمارس معها هي أيضا، لعبة التحايل والمكر، فيبقيها معه إلى حين ولغرض فى نفسه

أخذت باولا تجمع بعض الأوراق التى ليست ذات بال، والتى لا تهمّه هو فى شيء، ولا تفيدها هي فى موضوع الدار وملكيتها.. مجرد بعض الفواتير المزوّرة التى كانت موجهة إليه كزبون مشتر لبعض مواد البناء.

خرجت باولا على عجل تقصد مصلحة العقارات، سألت عن وضعية الدار العقارية، قيل لها إنها ملك مصباح بن... أسقط فى يدها، والمال الذى حْولته كان يدخل فى حسابه الخاص، هي تعرف هذا جيدا.

ذهبت إلى مركز الشرطة، قدمت شكوى دون دليل.. نصحوها أن تكلّف محاميا لمتابعة القضية فى المحاكم.. طلب منها المحامى الحجج، لا

تملك حجة ولا دليلا، قال لها: القضية خاسرة.. التجأت إلى القنصلية أفادها القنصيل: أنها لا تملك دليلا على ادعائها.. نصحها أن تسافر إلى بلدها.. لم تكن تملك حتى ثمن تذكرة السفر.. منحتها القنصلية تذكرة السفر إلى البلاد، رحلت المسكينة مقهورة تكابد حزنها وتلوم نفسها على طيشها وغفلتها.. لم تنس كلمة قالها المحامى: أنا وغيرى يعرف الحقيقة، وبلا حجة ولا دليل، نعرف أن المال مالك والدار دارك.. نعرف هذا بالقرينة ومن سوابق المزورين والمدلسين، وهم كثر، ولا يخلو منهم زمان ولا مكان: هنا عندنا وفى بلادكم وفى كل الدنيا، لكن القانون لا يعترف إلاّ بالحجة والبرهان، لقد كانت بك غفلة، تذكّرى أن القانون، لا يحمى المغفلين.

بعد خروج باولا من الدار، دخل مصباح على زوجته فى غرفة النوم وجدها جالسة على طرف السرير مطرقة، كأنها تفكرّ فى أمر استعصى عليها فهمه، اختلطت عليها الأحداث المتسارعة، والمتقاربة على مدى أسبوع واحد تم فيه زواجها من مصباح الذى كانت تعرف فيه وجها آخر غير هذا الوجه الذى ظهر به، منذ أن وطأت أقدامها هذه الدار التى أخبرها: أنها ملكه، وإذا بها منذ الوهلة الأولى تشك فى ذلك لفخامتها.

إن فى الوضع أمرًا ما، وان مصباح يخفى عليها بعض الأشياء، إلى أن تأكدت وعلى وجه اليقين - اليوم صباحا - من كل شىء، الدار ليست ملكه، وإنما استولى عليها بطرق ملتوية: غش وتزوير وسرقة، وان الضحية هى تلك العجوز، ورغم وجودها الذى ضائقها

على أية صورة من الصور، إلاّ أنها تعاطفت معها بينها وبين نفسها.

كانت صالحة تكره الظلم وتمقت الغدر، وقد لحق بهذه العجوز التى لا شك أنها دفعت لمصباح بشقاء عمرها، والآن أصبحت صفر اليدين من كل شيء.

(15)

كان له ألف لون كالحرباء، وقدرة عجيبة على اللعب بالعقول يتمسّح كصاحب الحاجة الذليل، لسان معسول الكلام، وقلب المفاهيم، وإلباس الحق بالباطل.. فى سبيل الوصول إلى الهدف يتذلّل وينافق، ويتمسّح ويظهر ما لا يبطن، يلّوح بالأحلام الوردية والآمال.

بعدما خرجت باولا من الدار مقهورة مسحوقة فى اتجاه المدينة تكظم غيضها، وتغطى على جراحها، وهى شبه متأكدة، من أنها خرجت من دارها، ومن مالها، وما بقى لها إلاّ الندم والضعة والهوان.

دخل اللص إلى غرفة النوم ووجد زوجته كما تقدم الوصف، بعد أن تأكد من خروج باولا المسكينة، وهو يشيعها بالنظر من خلال إحدى النوافذ كاللص المحترف، كانت ابتسامة عريضة تسبقه وفرحة كاذبة ونظرات فيها رجاء وتوسّل غير منطوقة، طالع بها صالحة، رَبَّتَ على رأسها بلطف.. قال:

حبيبتى: خرجت الظيفة الثقيلة دون رجعة، طردتها شرّ طردة ولا يمكن أن تعود إلى هذه الدار مرّة أخرى.. دارك أنت وحدك، إلاّ إذا جاءت لتأخذ حاجياتها، وقد جمعتها لها فى حقائب وخزّنتها فى المخزن..

هيا حبيبتى تعالي تفرجى على غرفتك، التى كانت تحتلّها وقاحة وسماجة.. تعالي تفرجى على غرفة أحلامنا وسعادتنا الدائمة، وانزعى من خاطرك شكوكا لا أساس لها، حيث سحرها بكلام رتَّبه مسبقا، وخدعها، بلمحات كاذبة، طرح لها الأمانى العذاب،وجعل يوعدها الوعود، ويتوعد باولا بالشر والوقيعة.

قامت تتبعه، ربما عن غير اقتناع بنواياه وكلامه المعسول الساحر، أو بحكم الفضول، والاطلاع على الغرفة التى وصفها، وقال إنها غرفتها هي من الأصل، لكن الظيفة الثقيلة أحتلتها دون حياء ولا خجل، ولا مراعاة للّياقة وكرم الظيافة.

دخلت الغرفة، هاهى ما كانت عليه من فخامة فى كل شيء: سريرها الواسع المريح، ستائرها الفريدة من نوعها، وسائدها، جهاز التلفاز فى ركنها البعيد، أباجورات الإنارة على جانبى السرير، دولاب التزيين والمرآة، خزانة الملابس ذات الابواب المتعدّدة، كرسي الفوتيل الكبير، وآخر أقل حجما يقابله، برّاد صغير داخل الغرفة للمشروبات، تحف موضوعة على طاولات صغيرة هنا وهناك.

تهلَّلت أساريرها، تبسّمت تبسّم الرضاء، عانقته دون أن تتكلّم، كأنها تقدم له جائزة، مكافأة على ما أهداها من مظاهر النعيم.

قال:

- إن لم يرضك هذا.. عليّ أن أبدّل كل شيء جديد أو أفخم من هذا.

- لا.. لا تبدل.. كل شيء جديد كما يظهر، وإن نامت عليه تلك

العجوز الضيفة، لا تواخذنى على غضبى، حبيبى.. أنت تعرف أننى امرأة غيورة.

***

فى الطائرة كانت باولا، معلقه بين السماء والأرض، تذكّرت من فى السماء، كانت موجوعة مقهورة، جرحها ينزف دمًا، مؤلم هو الخداع والاحتيال، وقاتل هو الغدر ممّن تثق فيه، طعنة تلقتها فى ظهرها، ومن مكمنها، ومن زوجها كما كانت تعتقد، لص محتال جرّدها من مالها وما تملك، إنه مجرم سافل لا ضمير له.. أخرجها من دارها مطرودة تبكى.. ذكرت ما يقوله الناس: أن دعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب، صعد دعاؤها وهى بين الأرض والسماء إلى من فى السماء.. تنفسّت الصعداء، لامس فؤادها إحساس بالراحة، أيقنت أن المجرم لا يفلت من العقاب..عدالة السماء، القصاص بالحق.. كانت على يقين من ذلك، لكنّها تريد أن تسمع عنه، أو تراه ينال جزاءه: ذلك الخائن الذى ظلمها وقهرها وطردها مهانة، لا تملك تذكرة سفر إلى بلادها.

فى الدار كان التراضى بين صالحة ومصباح، التف حولها، وعدها الوعود، أغراها بالمظاهر والفخامة التى استولى عليها بالاحتيال والمكر والتزوير والغدر، وسّع لها الآمال، ولوّح لها ببريق الذهب والحرير، والنعيم الذى ينتظرها فى أيامها القادمة، كان يمارس الزيف والكذب، والحيلة والنفاق، كان يمكر لها، ويمكر له القدر.

بعد أسبوع واحد فاجأ صالحة الوحم.. أصبحت لا تطيقه، أنكرت خلقته، تأففت منه وتجنّبته، ضلت لا ترد عليه جوابًا، ولا تبادره بالكلام، حتى الطعام لا تشاركه فيه، ولا الفراش.. حالة تعترى من تصيبها هذه الأعراض المعتادة عند كل النساء، هي لم تفسّر له هذا السلوك من شدّة كرهها له، وهو لم يفطن لهذا عن جهل أو غفلة، ضنها تتعالى عليه وتحتقره، بسبب ما أطّلعت عليه من سلوكه الشائن مع تلك العجوز المسكينة، وقد أصبحت تتعاطف معها بشعور داخلى لا تدرك كنهه.

قال لها عندما طفح به الكيل:

- أنت سيئة الطباع، وخبيثة وماكرة، وسافلة وحقيرة، أنت لا تستحقين هذه النعمة، لانك عشت فى الفقر والحرمان، وكأنك تستكثرى على نفسك الحياة الرغدة، والعيش الكريم، أنت فقيره بنت فقير وهذا العز والقدر ليس من قدرك.

كانت هى تتميّز من الغيض عجزت عن الكلام، خاطبت بلغة أخري، وعاء للطبخ لحضتها جن جنونها فبصقت علي وجهه مباشرة لم يتمالك نفسه هجم وطرحها أرضا وأخذ يكيل لها اللكمات فى كل مكان من جسمها وهي تصرخ مذعورة وما يزيده صراخها إلا عنفا، أصابتها لكمة أفسدت الجنين، تركها وخرج ضلت المسكينة في الدار تتلوى حتي الصباح أما هو فقصد إلى مقهى قريب من الفندق، وجلس يتناول إفطار الصباح مع قهوة ساخنة.. بعدها لم يذهب إلى الدار، فقد شك

وهو فى ثورته الغاضبة حين هاجم صالحة، واعتدى عليها بالضرب المبرح، شك أنه أصابها إصابة ضارة، إذ صرخت صرخة مدوِّية فزعة، جراء إحدى ضرباته، ثم تلوّت ومسكت بطنها بيدها.. شك أنّه ألحق لها ضررا بالغًا، وربما تخرج فى الصباح، تشكوه إلى مركز الشرطة.

ضل خارج الدار طوال النهار، وفى المساء استطلع الدار من خارج السور، فلما لم ير أثرا لصالحة، تقدم على حذر وفتح الباب ودخل.

صالحة خرجت حين ظهر النهار وقصدت المدينة على بعد كيلو متر واحد حيث سألت عن محطة السيارات التى تنقل الركاب إلى مدن الدواخل.

سألها أحدهم عن البلدة التى تقصدها.. سمّت له الواحة.

قال لها:

- تلك لا تستطيعين الوصول إليها من هذه المدينة، وانما عليك أن تأخذي، أحد الباصات وسمى لها رقمه: تلك تأخذك إلى العاصمة ومنها تجدين كل المركبات القاصدة كل الاتجاهات نحو المدن والقرى والواحات فى الداخل.. شكرته وفعلت ما أشار به عليها.. فى المساء كانت فى الواحة بين أسرتها وهي فى حال من الإحباط وسوء الحالة النفسية والانهيارا الجسدى، الأسوء الذى جعلها تنام من شدّة الإعياء، وطلبت من أمها ألاّ توقضها أو تسألها عن شيء حتى تأخذ قسطا من الراحة.

ضاق مصباح من وجوده وحده فى الدار، لا مع من يتكلّم ولا من يطبخ له طعاما، لا أنيس ولا جَليس، هو لا يتابع محطات الإذاعات

الفضائية كثيرا، ولا يقرأ الكتب، ولا يحفل بوسائل الإعلام والثقافة، وليس له منها نصيب، هو خلق لشيء آخر: الاحتيال والتزوير..

الخداع والإيقاع بالناس.. سلبهم أموالهم بالباطل، لا يردعه رادع من ضمير، ولا يحسب حسابًا لعاقبة تحلّ به بفعل القدر والقانون.

خرج بعد ساعة.. قصد توًّا خمَّارة فى المدينة، لم يجلس على طاولة، وقف قبالة النادل المكلف بإدارة البار، طلب نوعا من الخمر، لم يتكلّم مع أحد ممّن كانوا وقوفا بجانبه، ثنّى بكأس أخرى، وثالثة.. ثقلت قدماه ورأسه، اعتلى كرسيًّا من تلك الكراسى المصفوفة أمام (الكنتوار) بدأت الخمر تسحبه فيصبُّ منها المزيد.. انهالت عليه هواجس وأفكار سوداء حاول أن يبعدها عن خاطره.. تكلّم مع جار له على الكنتوار يشاركه الحال فى معاقرة الخمر.

قال يخاطب جاره:

- من أين الرجل؟

- من بشر يدبّ على الأرض.

- لكنك الأن لا تدبّ.. أنت جالس تشرب الخمر.

- نعم. إنه خمر.. ومر.

- يقولون: ما يلجئك إلى المر الاّ ما أمرُّ منه.

- هذا صحيح.. نحاول أن ننسى مراراتنا، التى نحسُّ بها تطاردنا ونحن فى كامل وعينا.. لكنّنا بهذه الخمرة اللعينة نذهب عقولنا.. فنفقد

وعينا.. ننسى إلى حين، ثم تعاودنا المرارات.

- يقولون: الهموم لا تقتل لكنها تشيِّب شعر الرأس.

- وفى المأثور:

«والهم ما يقتلشى غير إشِّيب والجرح لاناس العروق إعيب»

يظهر أنك يا صاحبى محاصرا بالهموم مثلى، حتى طفح الكيل.

- ولولا هذا، ما جئت إلى هذه الخمارة، وكل يوم أبِّذر مالى وعقلى.

- لكنك تنسى ما أنت فيه من هم على الأقل فى هذه الساعة؟

- وأعيش ما أنا فيه من هم بعد ذلك ساعات طوالا.

- ليس أنا وحدى المهموم.

- الهم مفرّقا بين الناس، وفى هذه الحال: هو مخفّفاً، كل يأخذ نصيبه منه ويمضى.

- نعم إنه مفرّق بين الجميع، ولو أنه على واحد لقتله.

- يا صاحبى يظهر أنك مثلى مهموم إلى حد كبير، لكن ما هم أو عسر إلاّ وراءه فرج قريب.

- كأسك الذى بعد أمامك على: حسابى.

- بالحرام مأنت بدافع درهما هذه الليلة على حسابى أنا.

- لكن أنا كنت قبلك جالسًا على هذا الكنتوار، العرف السائد: السابق هو الذى يتكرّم على اللاحق.

- ذلك فى الحلال.. نحن الآن نتعاطى الحرام، والحرام لا عرف له ولا أصول.

- الحكم حكمك، أنت أكبر منى سنًّا والكبير له قدره واحترامه، أم عندك رأى آخر.

- رأيي فقط ان نشرب نخب بعضنا، وأن يفضى كل منا للآخر بدخيلته، الظاهر يا صاحبي، أن لكل منّا همًا.

- أما أنا فهمي زايد عن حدّه، وقد لا تصدق أن قلت لك أنّى مأزوم إلى حد كبير،

- لكل همه، لا تستكثر همك، ربما غيرك أكثر منك هم همًا وأعظم مصيبة، والأقدار تصيب العباد بنازلات تنؤ بحملها الجبال.

- خبّرنى ماذا دهاك؟ ربّما هانت عليّ مصيبتى.

- لعل فى هذا البيت من هذا الشعر الذى فاض به إحساس أحدهم فى لحظة صدق مع الذات. ما ينبئك عن حالى، اسمع ما قال:

« لوكان نشكى للنجوم إغيبو والبحر ينزح والصفار إشيبو»

كان الرجل جليس مصباح، مدسوسا عليه يطارده منذ أيّام مسخّرا من طرف آخر، ليعقد مع مصباح صداقة، كاذبة من أجل هدف يريد أن يصل إليه، بطريق ملتوى فيه حيلة وتدبير ومكر، كان صاحب السخرة الذى سلط الرجل على مصباح هو: تاجر الأراضى والعقارات.. السمسار الذى باع لمصباح قطعة الأرض، والذى يعرف كل شيء عنه

بخصوص علاقته بالسويسرية باولا، وكيف زوّر عليها فواتير مواد البناء، والثمن الحقيقى الذى اشترى به الأرض وكيف غشّها، وأن أمواله فى البنك مصدرها تحويلات أمرت بها باولا من الخارج.. دخلت فى حساب مصباح باعتباره زوجا لها، وأن مصباحًا طردها أخيرا من الدار بعد أن تزوج بأخرى من منطقته.. كان السمسار يتبع خطوات مصباح خطوة بخطوة، ويراقبه من بعيد:- ذئب يطارد ثعلبًا مراوغا- ولا يفل الحديد إلاّ الحديد كان ذلك الشخص هو: عثمان المهف.

قال مصباح بعد أن استمع من نديمه إلى ذلك البيت من الشعر:

يا صاحبى أنت غارق فى الهم كما يظهر.. فلو أن واحدا فى المائة ممّا عبر عنه ذلك الشاعر: أصابك لكنت أنت أكبر هما ممّن فى الدنيا من العباد..همٌّ يغيّب النجوم، ويفرغ البحر من مائة وتشيب منه الولدان.. حق إنه هم لا يطاق.

- لو خبرتك أنت أيضا لا تصدقنى.. أنا يا صاحبى أعيش فى فراغ كبير، أمشى على الأرض بلا عقل، وآكل الطعام سدًّا للرمق، وأتكلّم مع الناس كى أكون موجودًا ولولا هذه الكأس الحرام وأشياء أخرى ربما لا تعرفها فلا داعى لذكرها، لكنت منذ زمن بعيد فى عداد الأموات، الذين قضوا نحبهم حسرة وندمًا.

ازداد مصباح فضولا وحرسًا، على سماع ما طرأ على الرجل من غرائب الدهر، وعلقت بذهنه تلك الأشياء التى ذكرها محدّثه، حينما قال:

لولا هذا، وأشياء أخرى لا داعى لذكرها، فبيّت فى نفسه أن يستدرجه فى الحديث لمعرفة تلك التى يخفيها صاحبه ولا يريد أن يصرّح بها.. ولو اطّلع مصباح على نوايا صاحبه، وانّه يريد جرّه إليها ولو بعد حين، وأنها هي مربط الفرس بالنسبة له ولمن سخّره، لو علم تلك النوايا والتدابير المستهدف هو شخصيا بها، لنأ بنفسه من الساعة.. لكن بدأ العد التنازلى بالنسبة لمصباح وأن ما زرع طاب حصاده، والحصاد من جنس الزرع، وهذا ما لا يخالف فيه أحد.. زرعت كرمًا لا تأكل من غيره، أو زرعت قمحا تحصد القمح، وإن كان الزرع شوكا، فلابد أنك حاصده شوكا، هو الخير يقابله خير، والشر مقابلا للشر، وصاحبه الذى دسّه صاحب آخر للاثنين - الصحبة هنا بمعنى الرفقة، أو اللقاء العابر - وأحد موجود الآن فى الصورة يجالس مصباح على كأس من الخمر، وآخر خارج الإيطار ينتظر بفارغ الصبر هو: السمسار السابق الذكر.

قال مصباح:

- الخمارة قاربت أن تقفل أبوابها، وأنا وأنت يظهر: مازلنا فى حاجة إلى الشراب.

- هذا الذى كنت أفكّر فيه.

- وما العمل؟

- العمل أن نأخذ ما يكفينا من الشراب، ونخرج قبل أن تقفل الخمارة إلى غابة قريبة، تعوّدت ان أذهب إليها كلما كان لى غرض فى مزيد

من الشراب فهي مأمونة.

- ولماذا الغابة؟ وأنا عندى مكان أفضل، نأخذ فيه راحتنا، وفيه من الشراب ما يكفى، فلا داعى حتى إلى أن نأخذ شراب من الخمارة، نحن لسنا فى حاجة إلى الشراب فى حد ذاته، نحن فى حاجة للحديث والأنس والصحبة البريئة وبالتالى: للفضفضة والتخلّص ممّا يضائقنا من هم دفين، سيما وأننا فى الهم سواء، وكل منّا يريد أن يفضى لصاحبه بهمّه علّه يجد السكينة والراحة.

- نعم الرأي والحكمة.. هل عندك شقة أو دار؟

- أي شقة، وأي دار.. سترى وتحكم.. هيا بنا.

فى الفيلا الكبيرة ذات الحديقة الواسعة، وحوض السباحة والأثاثات الفخمة، تواصلت السهرة بين النديمين.. لم يعرف مصباح اسم صاحبه بعد، كان الشراب الثالث بينهما، شراب فاخر أحضره مصباح مع ملحقاته (من مزات مختلفة)، كانت فى المطبخ.

جلس مصباح قبالة ضيفه، وأخذ يملأ الكأسين، ثم مدّ لصاحبه بكأسه قائلا: فى صحتك وعلى شرف هذه الفرصة التى جمعتنا على الأحزان.

- قال صاحبه:

- هناك فى البار كنّا أغراب، وربما شربنا ثم افترقنا، وكل ذهب فى سبيله، أمّا هنا فقد أصبحنا أصحابا، ولا يصح أن لا يعرف أحدنا اسم الآخر.

كان هو يعرف مصباح ويعرف كل شيء عنه فهو مدسوس عليه

ومزوّد بكل المعلومات، لكنّه التمويه ولإبعاد الشبهات وللطمئنينة.

- أنا اسمى مصباح... وأتشرف بوجودك الليلة فى بيتى، وفى كل ليلة إن شئت حللت أهلا ونزلت سهلا.

- وأنا محسوبك مختار - مختار للمهمة المكلف بها - ابن الصادق من مدينة (...) فأنا لست من هذه المدينة، جئت فقط هروبا من همى الذى لم تعرفه بعد

لكن الهمّ يلازمنى أين ما كنت، ولولا الكاس الذى يسرّى عنّا بعض الهم، وينسينا أنفسنا وهمنا لبعض الوقت لمتنا نكدا وغمًّا.

- قلت من قبل لكل همّه، ويظهر أن حالنا كما يقول المثل: «اللّى بتشتكيله يبكيلك» ودارت الكاس بينهما حتى وقت متأخر من الليل، حيث ثقل اللسان عن النطق السليم، وتقطعت الجمل، وأدغمت الكلمات، وتشوهّت الأفكار حتى أصبحت نوعا من الهذيان، وتقاطع الخطاب حتى كأن كل منهما لا يسمع الآخر. وانما يلقى كل واحد بما فى جعبته من أقوال لا روابط بينها، حينها أسند كل منهما رأسه على مسند الكرسى الكبير الفخم الذى يغرق فيه وناما حتى الضحى.

تكررّت اللقاءات بينهما فى النهار والليل، حتى أصبح يلازم كل منهما الآخر ملازمة الضل لصاحبه، المختار يروض مصباح، يخدّره على مهل، يدرس نقط الضعف فيه.. إذ لمس فيه فطنة وذكاء غير عادى، بل وجده مراوغا كبيرا، يحتاج إلى تدبير محكم، وأن يؤخذ من مكمن لا

يفلت منه، وبضربة قاضية، وكان الأمر.

تواصلت الرفقة بين مصباح ومختار، فى الصباح فى مقهى المدينة وفى الليل فى بيت مصباح، يعاقران الخمرة حتى ساعة متأخرة من الليل، وفى هذا الفائض من الوقت يتحدّثان فى كل شأن، كان المختار أكبر سنا من مصباح فكانت تجربته أوسع فى مناحى الحياة، وله خبرة أكثر، خاصة فى العلاقات الاجتماعية ومنها: المرأة على مستوى الرباط الزوجى، وخارجه فى إطار الحرية السرية وعدم الارتباط.

جرهما الحديث فى هذا المجال، المختار مطلّق وله قصة طويلة مع مطلقته، ومصباح فى حكم المطلق، غادرته زوجته غاضبه بعد أن أهانها وضربها الضرب المبرّح، ولا يدرى أين هي، وان كان شبه متأكد أنها فى بيت والدها عمار النجّار.

قال المختار:

يستدرج مصباح بطريق غير مباشر ويغريه.

- يقولون النساء: «لا خير فيهم لا الخير بلاهم... ولا الخير فى اللي ماجراش وراهم»

- صدق صاحب القول، وماذا تساوى الدنيا بلا المرأة؟

- إذا كانت صالحة ومستقيمة، وتقدّر الحياة الزوجية حق قدرها.

- وهل توجد امرأة كاملة تامّة الشروط كما يطلبها الزوج؟

- من المستحيل بالطبع الاّ ما قل وندر، والنادر فى حكم الشاذ: استثناء.

- لهذا غادرتنى زوجتى، وطلقت أنت زوجتك، وها نحن بلا زوجات.

- أما أنا فزوجتى كان عليّ ان أذبحها واشرب من دمها، وكما حدثتك من قبل هي كانت جزءًا من الهم الذى أحمله - بدأ يكذب فالكذب كان جزءًا من الخطّة المدبّرة مع السمسار - وليس كل الهم، وسوف أحكى لك حكايتى من أولها.

- صب واحكي يامختار.. روّح عليّ وعليك.. القلوب تضيق بالأسرار، وما ضل سرٌّ فى صدر طول الحياة.

- وليس بين الاثنين سر، ما ضل بينهما، فإن تجاوز الاثنين فشى.

- قلت حقا، ليس بين الاثنين سرا، إذا كانا صديقين.

ودارت الكأس ثلاث دورات، بعدها انطلق اللسان يظهر ما كان يبطنه العقل، لأن العقل تحرر من العقال، حرّرته الخمرة جعلته يستخف بكل حكم، ولا يرى غضاضة فى كل قول، أو حتى فعل، كانت له خصوصيات يحتفظ بها فى وجود الأغراب أما وقد فعلت الخمرة فعلها، فلم تعد هناك من خصوصية أو تحفظ ما.

- المرأة يا مصباح إذا كانت صالحة نعمة، وفضل كبير.. عطاء خير وهدية كبرى أهدتها المقادير للرجل طول العمر، وعلى الرجل أن يحافظ عليها حفاظهُ على حياته.

- وكيف إذا كانت غير ذلك؟ وهل على الرجل أن يحتفظ بها ويحافظ عليها؟!

- هي لا تكون مجرّدة من كل قيمة فاضلة، أو خصلة طيبة، والنسبية

واردة فى جميع الأحوال، غير أنّه عندما يختل الميزان، وتتغلّب الجوانب السلبية عندها على الإيجابيات، تكون فى هذه الحالة غير صالحة، وعلى الرجل الاّ يحافظ عليها ولا يحتفظ بها، وتكون هي التى خبت على نفسها، كما فعلت زوجتى.

- أنت لم تخبرنى عمّا فعلت زوجتك، حتى استحقت الطلاق.

- هي كما قلت لك تستحق الذبح.

- هل جرمها كبير إلى هذا الحد؟!

- خانت وما جزاء الخائن فى حكمك؟

- أنا أعرف أن الخيانة الوطنية، يحكم فيها بالإعدام.

- فى اعتقادى أن الخيانة الزوجية أشد وأنكى، لأن الخيانة الوطنية: ضررها يتفرق بين المواطنين، أما الخيانة الزوجية فإن ثقلها ووجعها الفضيع على واحد هو الزوج.

- هذه وجهة نظر.. لم تقل لى كيف كانت خيانتها؟ فسرقة المال خيانة، وفضح الأسرار خيانة، وأشياء أخرى كثيرة تحسب فى خانة الخيانة.

- كل هذه الخيانات اقترفتها، وزادت عليها خيانة الفراش، لقد ظبطّها متلبّسة بالجرم المشهود، فى غرفة نومى، وعلى سريرى، عارية مع خدينها فى وضح النهار، ولم تستحي بل تجرأت وقالت لى:

إن كان لا يروق لك هذا، فطلقنى واخرج من دارى.

- هل الدار دارك أم دراها؟!

- الدار دارها، وهذا الذى شلّ إرادتى، وقيّد يدى أن أفعل ما يجب أن أفعله ذبحها.

كانت الحكاية برمتها مختلقة ومحض خيال، كان المختار يكذب، هو محترف كذب، وللكذاب مآرب، هو يكذب أحيانا ليرى ردّة فعل من يمارس عليه الكذب، وهذا نوع من السادية يتلذذ بها.

الكذاب، يريد أن يرى أثر كذبه فى وجوه من يكذب عليهم، هو يرى فى الكذب نصرا على الآخرين، وقدرته على تمرير كذبه دون أن يفطن الآخرون، هزيمة لهم، الكذاب يقولب الكذب ويلبسه لبوس الحق، يكسوه أسلوبا ملفتا للنظر، يثير الإعجاب والغرابة، حيث ينتشى الكذاب، بسحر الإعجاب الذى يقابله به المستمعون إليه. يملؤه الزهو والعجب بنفسه لأنه حقق نصرا.

قال مصباح وكان ينصت إلى المختار باهتمام وشغف:

- ألم تتزوج بعدها من النساء؟

- عاشرت العشرات ولم أتزوّج.. تجولت فى عالم النساء طولا وعرضا، وعرفت أسرارا وأخبارا، عرفت كيدهن وكيدهن عظيم.

- وكانت لك خبرات واسعة لا شك.!!

- النساء كالمدن الكبيرة، لهن طرق ومسالك تتفرق وتتفرّع، ميادين وحوارى، سبل وتعاريج سرية، أبواب ونوافذ وشرفات، لهن معالم وخصائص تحتاج إلى خرائط ومفاتيح للتعرف عليهن وتطلع على

الخبايا والأسرار.

- أنت زير نساء يا مختار، تعرف عنهن كل شيء، وتعرف العشرات.. وأنا وأنت حياتنا باردة، لا دفء فيها فى هذه الدار الواسعة يصفّر فيها الريح.

- أنا ظيف وحكم الظيف فى يد المظيف.

- أتريد حكمى؟

- نعم حكمك عليَّ فى يدك كما قلت لك.

- أليست النساء شموع الجلسات حين تطفى المصابيح؟؟

- هو كما قلت.

- وماذا ينقصنا كى لا ننوّر جلستنا هذه؟!

- لا شيء.. الدار فسيحة فخمة، وفيها الطعام والشراب، عدا شيء واحد.

- ما هو؟!

- السجائر.

- هناك منها الكثير.. هذه علبة مفتوحة ما زال بها سبع علب (باكوات) وهناك أخرى كاملة تحتوى على عشر علب.

- لا أقصد هذه التى أدخنها أنا وأنت.. هناك نوع آخر من السجائر تفضّله النساء، ولا تنسجم إلاّ به.

- أتعرف أين يباع هذا النوع من السجائر؟ اشترى منه ما شئت.

- غالي الثمن، وقليل منه يكفى.

- ليس هناك شيء غالى فى سبيل الترويح عن النفس، وأنا وأنت مهمومان، فى حاجة إلى ما نرّوح به عن أنفسنا ونطرد أحزاننا.

أخرج مصباح حزمة من ورق البنكنوت، دفع بها إلى مختار وقال له: إن لم تكف هذه أعطيتك أكثر.

أخذ مختار يعد النقود، قال:

هذا يكفى لهذه الليلة - كان يريد أن يستدرج مصباح خطوة خطوة إلى الشرك المنصوب - التى أرجو ان تكون عامرة بها لذ وطاب وحافلة بالأنس من الجنس الذى هجرك وغدر بى.

تهيأ مختار للخروج وقال لمصباح:

أين مفاتيح السيارة.. أريد أن أبحث عن باعة السجائر أولا، هم دائما يختبئون فى أماكن غير معروفة، يغيّرونها بين الحين والآخر ثم بالمّرة أحضر معي الأنس - يعنى النساء - كان يعرف كثيرات من الجانحات - انتظرنى فى الباب الخارجى، والآن اقفل بعدى الباب، ولا تفتح لزائر كائن من كان، لا ظيف الليلة.

- سأطبق التعليمات بالحرف.. هذه مفاتيح السيارة وإن لم تكف النقود، قل لى.. اللّى يسكر ما يتاجرش.

- في ما بعد.. الآن يكفى.. لقد وفيت.

خرج مختار بعد المغرب بقليل، فهو خبير بأوقات انتشار المروجين للمادة المطلوبة، وكذلك بالنسبة للحاجة الأخرى:- صيد الجانحات.. لابد له من ستار الليل، حصل على بغيته من المطلوب من كلا الصنفين، وعاد مسرعا، حيث كان فى انتظاره مصباح، يترقب بفارغ الصبر عند الباب.

كان برفقة مختار شابتان، وفى جيبه ما يكفى من الصنف، كما يسمّى فى البلاد، وبأسماء أخرى فى بلاد أخرى مستعارة مثل: الشي، أو الزطلة، والكيف وغيرها، وبالواضح الصريح: الحشيش أي المادة المخدّرة التى تخلط مع التبغ، ويدخنها المدخنون، وأصناف أخرى تعرف: بالدروق، تتناول بطرق شتى، ونسبة تأثيرها فى متعاطيها عالية جدا.

أخذت إحدى الشابتين، بعد أن جلس الجميع فى مجلس فخم ثرى يدل على الوجاهة وسعة ذات اليد.. أخذت تفرغ التبغ من السجاير فى وعاء ثم تخلطه بالمادة، وتعيد إعدادها من جديد على شكل سجاير ثم تشعلها وتأخذ منها نفسًا، وتمرّر نفس السجاير على الجميع واحد بعد الآخر من الجالسين، وهكذا إلى أن ينتشى الجميع: ينزطل، يتكيّف، يدوخ أو يتخدّر، ساعتها يتحرر الجميع من كل تحفظ، ويباح كل شيء: تنطلق الغرائز من عقالها، وتمارس الفعل بلا ممنوع ولا محضور.

فى البداية هستيرية من الضحك، كلام فيما يعنى ولا يعنى، عبارات فارغة من كل معنى، وأخرى تظهر نوعا من الفلسفة وتقيم الأحوال بشكل صحيح، وأحيانا بالمقلوب، تتقاطع الأحاديث، وتجنّح الأفكار، يختلط

الجائز بما لا يجوز، ليس هناك تحفظ ولا ممنوع، تشتَط الأفكار وتعمَّم، حرية مطلقة فى القول والفعل، تجرّ أحيانا إلى التحرر من بعض الملابس وربما من كلّها، فالجو مغاير لما قبل تعاطى تلك المادة، هناك عالم آخر، تعيش فيه تلك المجموعة، منفصل عن عالم الناس فى الحالات العادية، دنيا غير الدنيا، مشاعر تختلف، أخيلة تحلق فى أجواء أخرى، سعادة تبدو تضلّل المكان، وترفرف على الجميع، سعادة كاذبة مؤقتة لا تدوم.

ضلّت الليالى تتوالى وتتكرّر الجلسات، قوامها الطعام المباح والشراب المحرّم، وتلك السجائر المخلوطة بالمادة (الصنف) مع اختلاف الجنس الآخر فى الأعمار والوجوه.

كان مصباح منسجمًا مع هذا الجو الذى لم يألف من قبل، ومقبلا على هذه الدنيا الزاهية بهمة ونشاط، يغترف من الملذات والمتع ما وسعه، وكانت إمكانياته كبيرة: جسدية ومالية.. أطلق يد رفيقه فى البذخ والتبذير، جعله ينوّع ما يجلبه من سلع على اختلافها: بشرية متمثلة: فى النساء من بائعات الهوى، ومكيفات: حشيش، كوكاكين، هيروين، ومواد هلوسة، ومستحضرات كيماوية أحدث من الكل وأخطر. تتابعت الأيام، وتنوّعت السهرات، كثرت المصاريف، وبدا الرصيد يتناقص، إلى أن اكتشف مصباح ذات يوم بداية الفاجعة، كان حسابه: أرقام كثيرة وأصفار على اليمين، أصبح لا يزيد عن أربع خانات، حاول أن يستدرك الأمر: بالكف عن السهرات فى كل ليلة، وقرّر أن تكون مرة

فى الأسبوع.. لكن هيهات له ذلك، صاحبه أحكم عليه الخناق، فأصبح مصباح قاب قوسين أو أدنى من الوقوع فى الفخ، فما أن يأتى المساء إلاّ ويطلب من مختار أن يأتى المطلوب الثمين والمكلف بنوعيه، والمختار يعرف هذا لأن الأمر استفحل ولا صبر له على فراق ما اعتاد عليه وتمكّن منه، خاصة المهديات كما يسميها المختار، هى تحترم المواعيد، لها موعدها الذى لا تخلفه، فما أن يتخلص الجسم من آثارها إلاّ ويطلبها.

ويستمر استنزاف المال يوما بعد آخر، وهذا ما يريده مختار، أو على الأصح ما يريده سمسار العقارات، الذى دبّر أن يجرّد مصباح من مال يعرف كيف استولى عليه، وهو أكثر من مصباح حيلة وأقدر على الخداع والتدليس.

وبدأ السقوط المريع من علو شاهق، ليس سقطة واحدة، وينتهى الأمر، وإنما تدحرجا من القمة عبر السفح وحتى القاع.

وأخيرا كانت الضربة القاضية التى قسمت الظهر، عرفت رِجل مصباح طريق صالات القمار - والمستشار دائما مختار - كان فى البداية الربح ثم الربح، تلته الخسارة ثم الخسارة، وتوالت الخسارات، هكذا هو دائما القمار، إلاّ لمن احترفه وعرف أسراره.

لم يتبق فى الحساب مال ولا سند، جاء موعد المادة التى لا تخلف الميعاد، طلبها من مختار، اقترح مختار أن يلغى جزءًا من مكونات السهرة، استشار مختار مصباح، أي مكون يلغى.

قال مصباح:

لا داعى الليلة للعنصر البشرى، فقط أريد تلك المادة أنا لا أعيش بدونها.

- هو ما كنت سأقترحه عليك، يكفى الليلة ما أشرت به مع الشراب.

- الشراب متوفّر وعندنا منه ما يكفينا مدّة طويلة، لكن تلك المادة أهم شيء بالنسبة لى.

- وكذلك أنا.. أي نوع تريده منها؟

- ذلك النوع الأبيض الذى يوضع فى الأنف: (البودرة)

- أصبحت مفقودة وغالية الثمن، نتيجة الحملات على المروجين.

- خذ.. هذا ما تبقى لى من نقود، حتى حسابى فى البنك صفر على الشمال.

هذا ما كان ينتظره مختار:- حسابه صفر على الشمال.. بدأ صاحبه يحتضر، ولاحت لمختار الغنيمة التى سيتقاسمها مع السمسار الذى جنّده للإيقاع بمختار منذ شهور، قال:

- اصرف ما فى الجيب ياتى ما فى الغيب.. اليوم خمر وغدا أمر.. قالها امرؤ القيس.

- كيف يكون الأمر يا صاحبى؟! وأنا لم أعد أملك من المال إلاّ ما دفعت به إليك، لحاجتى هذه الليلة، وليلة الغد كيف تكون؟!

- لا تبخل على نفسك يارجل.. عش ليومك، وللأيام أرزاق تأتى معها.

- دبّر عليّ.. أنا كما قلت لك لم يعد عندى مال إلاّ هذا الذى فى

يدك.. غدا ماذا يكون من أمر، وأنت تعرف أنى لا أعيش دون أن آخذ هذا الذى له موعد لا ينساه.

- قال مختار وهو يحاول أن يتباطأ ويتمهل فى إسعافه بالمطلوب حتى تشتد عليه حاجته فيكون مهيئًا لقبول ما يقترحه عليه من تدبير كما طلب منه:

- يا مصباح أنت عندك الكثير الذى تعيش به طول عمرك فى بحبوحة ورغد من العيش.

- كيف.. أين هو.. قل لى كيف؟!

- عندك هذه الدار الواسعة، المقطوعة عن المدينة، يصفق فيها الريح، وأنت قابع فى ركن منها، تعيش وحدك لا أنيس ولا جليس،

- يستدرك.. عفوا إلاّ صاحبك مختار، الذى يبغى مصلحتك، والصاحب لا يكون فيه خير إن لم ينصح صاحبه.

- انصحنى يا صاحبى.. أنا ثقتى فيك كبيرة، فأنت الوفي المخلص والناصح الأمين.

- بع هذه الدار، وسيتوفر لك المال الكثير اشترى شقة فى المدينة تكفيك وعش عمرك، بما يتبقى لك من مال، ولا تفكّر بعد ذلك فى شيء.

- رأى صائب، وتدبير سليم، ابحث لى يا صاحبى عن مشتر.

- دع عنك هذا.. اترك الأمر لى.. يستدرك: الآن تذكرت شخصا معجبًا بدارك هذه، وسبق أن كلّمنى بشأنها.. قال لى: إذا كان صاحب

هذه الدار فى نيته بيعها - شاورنى فى الأمر - وهو يعرف أننى كنت أمتهن هذه المهنة بيع وشراء العقارات - ويعرف أن لى بك علاقة.

- ابحث عنه بسرعة.. ومن قال لك إنّه لم يشتر دارا أخرى؟

- سنرى.. إن لم يكن هو، هناك غيره، دارك جميلة والكل يرغبها.

- الآن ارتحت بعض الشيء.. فعلا هذه الدار كبيرة، لست فى حاجة إليها، شقة صغيرة تكفينى ما دمت دون زوج.

- دعنى أذهب أبحث لك عن طلبك أولا، ثم بعد ذلك نتدبّر أمر الدار.

- عجّل يا صاحبى بحاجتى.. رأسي يا مختار يكاد ينفجر وأطرافى ترتعش، وأنا فى مزاج سيىء للغاية، عجبت لأمرك كيف أنت يا مختار لا تتلبسك حالة مثل حالتى.

كان مختار لا يتعاطى تلك البودرة اللعينة، يأخذ منها أمام من فى المجلس ثم يتحايل كيف يتخلص منها بسرعة فى غفلة من الجميع، كأن يتذرّع بدخوله للحمّام، ويرمى بها فى المرحاض، ويستبدلها بمسحوق أبيض يشبهها، يضل يستنشقها أمامهم موهما الجميع أنه يشاركهم كيفهم.

ذهب مختار إلى أوكار بيع المخدرات السرية، فحصل على بغيته وعاد إلى صاحبه مسرعا، وهو ينتظر بفارغ الصبر.. مدّ له بالشمّة كما يسميها، فأخذ يستنشقها بنهم وهو جاحظ العينين، مرتعش الاطراف فاغر الفم، تنهّد تنهيدة طويلة، فخف اضطرابه فاستراح.

خاطبه مختار، وهو - مصباح - على حافة الوعي قائلا:

- وجدت صاحبنا الذى سيشترى الـدار.. أوصيك إذا جاء ليفاوضنا على الثمن، قل له: إن هناك من عرض شراءها بمبلغ سمّاه له.. أضاف أن الدار لا تساوى هذا الثمن، والمشترى مهما أنقص من المبلغ، فأنت دائما الرابح.

- لا عليك سأنفذ ما تقول به.

- والمشترى الذى أخبرتك عنه حتى لو دفع ثمنا للدار: نصف هذا المبلغ فنحن الرابحون.. كان يطمئن صاحبه على أنه ناصح أمين.. فلا تترك الفرصة تفلت من يدك.

- تصرّف أنت كما ترى، المهم أن يتوفّر لنا المال.

- سيتوفّر لك مال كثير، بعد أن تشترى شقة محترمة فى المدينة.

- نعم الرأي لا تفوّت يا مختار الفرصة.. عجّل اليوم قبل الغد.

- غدا صباحا سأتصل بالمشترى، وسيكون الأمر كما نريد.

- وكان الأمر المدبّر بين المختار وصاحبه السمسار فالغنيمة بينهما مناصفة، وبيعت الدار بنصف ثمنها الحقيقى، اشترى مختار لصاحبه مصباح شقة وضيعة فى عمارة قديمة وفى الدور السادسة ودون مصعد، نقله إليها حالا وسلَّم الدار فورا.

ضل فى تلك الشقة الزهيدة العارية من كل أثاث، إلاّ من سرير حديدى وضيع، عليه فراش قديم رث، لا طعام فيها ولا شراب، ولا كيف يدبّر فيها الطبخ، فليس هناك أدواته ولا هو يعرف كيف

يطبخ.. اعتمد على طعام الأكلات الشعبية الخفيفة فى حي قريب منه، يعود مصباح إلى الشقة ليلا فقط، وفى جيبه (شمّة) يأخذها وينام حتى الصباح.. هجره صاحبه مختار فلم تعد له به حاجة، بعدما استولى على كل شيء عنده، وتركه مفلسا لا يملك شيئًا.

وكما تدين تدان، هكذا فعل مصباح مع باولا، وها هو الآن ينال الجزاء من نفس العمل.

ما تبقى له من مال بعد شراء الشقة نفد، باع الشقّة أيضا، واكترى غرفة واحدة فى مبنى قديم يسكنه عزّاب جميعهم يشتركون فى حمام واحد.

بعد شهرين فقط عجز عن تسديد أجرة الغرفة، طرده صاحب المبنى.. هام على وجهه فى حوارى المدينة، وشوارعها الخلفية الضيقة، ينام فى الليل تحت الأقواس، يفترش علب الكرتون إذا وجدها.. جاء عليه يوم لم يجد درهما يشترى به رغيف خبز، كان الفصل شتاء، وهو يتقى الزمهرير بأسمال بالية، وبطن خاوى، تحرك صوب حاوية قمامة مركونة بمحاذاة الرصيف.. بحث بين أكياس القمامة، وجد بقايا خبز أخذ يلوكها وهو يرتعش، هبّت عاصفة هوجاء: رياح عاتية وأمطار غزيرة، رعد وبرق وبرد قارس، احتمى بتلك الحاوية، لم تفيده فى شيء، الجوع يعضه من الداخل، وزمهرير الشتاء.. يهاجمه من الخارج.. تكوّم تحت تلك الحاوية قضى نحبه، أصبح جثّة هامدة، فى الصباح جاء عمّال النظافة بلّغوا عن غريب ميتًا، جاء المختصون بمثل هذه الحالات من موظفى البلدية، نقلت الجثة ودفنت فى مقبرة الاغراب، كان الميت

مصباح: ذلك المحتال الذى ابتز المسكينة باولا وطردها من دارها تذرف الدمع، لا تملك نقودا تشترى بها تذكرة عودة إلى بلادها.. ها هو الآن يخرج من تلك الدار، بعد أن خرجت من جيوبه وحسابه كل الأموال التى استولى عليها ظلما وعدوانا، عن طريق التحايل والتزوير، أموال باولا التى أدّخرتها طوال خدمتها منذ أن توظفت على وظيفة كبيرة وهي فى سن العشرين إلى أن أحيلت على المعاش وقد تجاوزت الستين.

هكذا يتأكّد معنى المثل القائل: «الدنيا كفاها فيها» بمعنى جزاء الفعل فى الدنيا، خير أو شر، يتحقق فى الدنيا قبل الآخرة، وفى الآخرة جزاء آخر والجزاء من جنس العمل.

هذا ما حدث فى هذا الفصل الطويل من الرواية: وجدنا مصباح الذى كان دوره محوريا فيها: ينال جزاء فعله: هلاكا وسوء مصير، فتكون خاتمته تعيسة، ليموت ككلب أجرب بين القمامة.

(16)

كانت مارقاريتا تستمع بكل انتباه إلى مجدولين، وهى تروى لصاحباتها حكاية باولا، على مدى خمس جلسات فى ذلك الركن من المقهى الذى اعتدن الجلوس فيه، وقد كانت تنوى - مارقاريتا - الرحلة إلى الجنوب فى هجرة معاكسة، فلمّا استمعت إلى ما حدث لباولا صرفت النظر عن هذا الاتجاه، وغيرت سفرها نحو اتجاه آخر، بلاد أخرى فى أوربا الشرقية، وآسيا الصغرى التى لم تشاهدها من قبل.

ما جرى لباولا مثال من أمثلة كثيرة أخرى، حدثت فى بلدان متعدّدة فى الجنوب، ولا يؤخذ الأمر على الإطلاق والتعميم.. هناك حالات أخرى لم تشبها شائبة من خداع أو سوء معاملة، ضفر فيها الشماليون بالراحة والطمأنينة، وطيب المقام، حموا أنفسهم بالإجراءات السليمة والقانون ولم يكونوا فى غفلة من أمرهم، فاحترسوا وقدّروا الأمور بالعقل والحكمة، ولذلك تجنّبوا الوقوع فى حبائل المحتالين الذين لا يخلو منهم مكان ولا زمان، سوى فى الشمال أو فى الجنوب.

هذه إحدى المآسى الفردية الكثيرة، التى تشكّل جزءًا من المأساة الإنسانية الكبرى التى عاشها ويعيشها الإنسان فى الجنوب والشمال على حد سواء فى الهجرات والهجرات المعاكسة المتبادلة بينهم.

عودة إلى عرض بعض من مآسى الجنوب المهاجر نحو الشمال، فهي مآس مستمرّة تكاد تكون فى كل أسبوع، ان لم تكن فى كل يوم.. وما تعرضه الصحف والإذاعات الفضائية بين الحين والآخر، وعبر جميع وسائل الاتصال فى جميع أنحاء العالم الذى أصبح قرية صغيرة بفضل تقدم التكنلوجيا، إلاّ قليل من كثير، والبحر الأبيض وأسماكه شاهدان على فضاعات المهربين المجرمين، المتاجرين بحياة البشر.

حقا إنها لمأساة كبرى تجسّدها تلك الهجرات، وخاصة نحو الشمال، أما الهجرات نحو الجنوب فهي أيسر، وأقل فضاعة ورعب، ويكفى أن خطر فقدان الحياة فيها لا يكون إلاّ فى حالات نادرة، تحدث نتيجة للطمع فى المال، أو بفضل الشذوذ الجنسى و غيره.

ذهبت بمن فيها غرقا ولم يسمع بها أحد إلاّ الحوت الذى اتخذ منها وليمة لعدّة أيام.

لم يسمع بها من على الجانب فى الضفة الشمالية ولا من هو فى الجنوب.

فأغلبها غرقت فى المياه الدولية.. هجرات تقع بفعل الترتيب السري، وبوسائط تفتقد وسائل السلامة، فما أنْ تخرج من المياه الإقليمية وتتوسط البحر، حتى تحطّمها الأمواج، عندما تغضب الطبيعة، أو تتعطّل وسيلة النقل، لأنها غير صالحة لولوج البحر، فهي إما مراكب من خشب متهالكة، أو قوارب مطاطية عرضة لكل خطر، وكم من أعداد هائلة من البشر فقدوا حياتهم، فضاعت آمالهم وأحلامهم هباء منثورا، لا هم وصلوا إلى الشمال ولا هم ضلوا فى الجنوب.

وهذه مأساة قافلة من هؤلاء البائسين، نتتبّعها منذ أن تسربت من بلدانها الأصلية فى الجنوب، عبر الصحراء الشاسعة القاتلة جوعًا وعطشا وبُعد مسافةً، إلى إن وصلت السواحل الجنوبية للأبيض المتوسط، نقطة الانطلاق نحو الشمال.

كامارا وأخوه جامايا من ساحل العاج.. كيتا وثلاثة من أبناء عمومته من غانا.. يعقوب، وداما، وسيدى ددّه من النيجر، تجمّعوا كلهم فى مالى، كوّنوا قافلة مع ستة آخرين من مالى فى قرية بعيدة عن العاصمة.. أعدّوا

طعاما جافا: زادا من تمر وقربة هي: وعاء بلاستيكى به ماء، توزعوه فيما بينهم حملا على ظهورهم ولجوا الصحراء مشيا على الأقدام: مساحات واسعة قاحلة، لا نبات فيها ولا حيوان، يقطعون على مدى خمسة أيام بلياليها بحرا من الرمال، يصعدون كثيبا، ويهبطون منخفضا، بعدها تظهر بعض الواحات متناثرة غارقة فى الرمل، لا تراها العين إلاّ حين تصعد كثيبا من الرمل عال كالجبل، ثم تنحدر منه منهكا من شدّة التعب.. هناك فى بعض الواحات تزوّدت القافلة المتكوّنة من خمسة عشر فردا ببعض الزاد من الطعام والشراب، جاد به بعض ساكني تلك الواحات.

واصلت القافلة سيرها بعد راحة فى الواحة مدّة نصف يوم ثم واصلت سيرها، ودائما نحو الشمال بعد مدة أخرى من الزمن - هم الآن أصبحوا غير معنين بعدد الأيام - ظهرت عليهم واحة من بعيد تفصلها عنهم مسافة لا بأس بها من الأرض المنبسطة يتراقص فيها السراب.. بعد ساعتين وصلت القافلة البشرية الراحلة إلى الواحة بعض العسس التابعة للسلطات المحلية، قبضت على المجموعة للاشتباه فى تبعيتهم لبعض التنظيمات المحظورة، بعد التحقيق، أو شبه التحقيق، الذى هو مجرد مبرّر للحصول على رشوة ولو كانت زهيدة، أطلق سراح المجموعة، واصلت الطريق فى اتجاه الشمال، مازالت القافلة داخل الأراضى المالية.. هناك فى الزاوية حيث تلتقى الأراضى الجزائرية مع النيجر وبينهما مالى، يكون الخيار: الانعطاف يمينا نحو النيجر أو يسارا نحو الجزائر، والهدف دائما الوصول إلى شواطىء المتوسط الجنوبية، حيث نقاط الانطلاق من ليبيا،

أو تونس، أو الجزائر إلى الضفة الشمالية للمتوسط، ومنها التفرّق إلى المدن الأوربية محط آمال المهاجرين من الجنوب: الجنة الموعودة كما أخبر عنها من هاجر إليها سابقا ثم عاد فأخبر الآخرين الغافلين، وكما فى الأمثال: «يمشى الغَافل واجي الجافل»

من تلك النقاط السرية، شبه المرافىء، فهي فى الحقيقة نقاط تهريب للبشر عبارة عن أماكن يغيرها المهربون حسب الظروف الأمنية.. يصل إليها الذين يريدون الهجرة سيرا على الأقدام فى مياه البحر فى أغلب الحالات والمياه تصل إلى أذقانهم، أو سباحة حتى يدركوا المركب فى عرض البحر، التى تخاف من دوريات خفر السواحل.

من تلك المرافئ السرية، وفى مراكب أعدّت لتهريب البشر تنضم القافلة التى تتبّعنا سيرها عبر الصحراء، إلى قوافل أخرى، جاءت من بلدان أخرى جنوب الصحراء وشرقها، من تشاد، والسودان، من أرتيريا والحبشة والصومال، وحتى من تنزانيا وكينيا، وجنوب اليمن، وأحيانا من بنقلادش البعيدة فى شبه الجزيرة الهندية.

تجمعت تلك القوافل الصغيرة الوافدة من كل مكان ذكرناه، فكان عدد أفرادها الإجمالى يزيد عن مائتين.. تجمعوا فى مركب واحد، ومن أجل غرض واحد: الهجرة إلى الشمال.

سارت المركب فى عتمة الليل، بعد أن دفع بها المجرم المهرّب إلى عرض البحر، لتواجه مصيرها المجهول، وكان قد درّب أحد المهاجرين

تدريبًا غير كاف، وليس على قاعدة علمية لقيادة مركب عبر الأمواج، نظير ألاّ يدفع أجرة ركوبه، فالمهرب المجرم لا يهمه مصير الركاب ولا أن تعود إليه المركب أو لا تعود، هو قبض الثمن من الركاب التعساء، من شقائهم لأعوام طوال، وحسب قيمة المركب أضعافا مضاعفة، أنه داخل فى المكسب خارج من الخسارة مقدما.

كانت المركب من مطاط، يدفعها محرّك أصابه العطل أكثر من مرّة وأصلح على عجل، حمّل بتلك الشحنة البشرية وليس فيه من الطعام والشراب للوصول إلى البر الآخر.. المسافة محسومة ومحسوبة، فلا بأس أن بقى الركاب دون طعام أو شراب ليومين أو ثلاثة.. هذا إذا لم يضل طريقه ويتوه فى البحر، ولا من يسمع به أو يجيب، أو ينقذه من الكارثة.

مركب من مطاط تحمل على ظهرها جماعة من البشر ألجأتهم الحاجة والعوز إلى ركوب البحر، بحثا عن العيش الكريم، وهروبًا من الاضهّاد أحيانا، وأحيانا من الفقر الشديد، مركب غير مأمونة السلامة تدخل البحر، تنشد الوصول إلى البر الآخر ، لكن هيهات لقد غرقت قبلها مراكب أخرى، انطلقت من أماكن متفرقة على ساحل المتوسط الجنوبى، ولم تصل منها إلاّ القليل.

مركب آخر من الخشب تجاوز عمره آلافتراضى بسنوات، تحرّك هو الآخر من مرفأ فى دولة ساحلية أخرى من دول شمال أفريقيا يحمل حمولة من البشر المعوزين فى بلادهم، وصلوا إلى السواحل الشمالية من أفريقيا وراء الصحراء بطرق شتّى، وبأسمال بالية على ظهورهم،

وجيوبهم خالية من النقود، قلوبهم عامرة بالأحلام والآمال، قاصدين ما وراء البحر.. ركاب هذا المركب الخشبى المتهالك

أغلبهم من أفريقيا الغربية: من السينغال، وغينيا، وغامبيا وسراليون، وغانا، والتوقو، وموريتانيا وبلاد أخرى.

تجمع هذا الخليط من الجنسيات فى قرية قريبة من إحدى نقاط الانطلاق على الشاطىء، وفى الموعد المحدّد لهم للإبحار، جيء بهم إلى أحد المرافىء السرية وفى سرّية تامة، وتحت ستار الليل زجّ بهم فى البحر على ظهر ذلك المركب العتيق، فاستلمته الأمواج تتقاذفه هنا وهناك، والبحر هائج مضطرب، بفضل التيارات القادمة من الأطلسي إلى المتوسط تندفع إلى شاطئه الشرقى فى أسيا.

ها نحن الآن نصحب هذا المركب فى البحر وعلى ظهره أكثر من مائة وخمسين فردا، من البشر أغلبهم من أفريقيا الغربية كما تقدّم.. قدموا عبر صحراء مالى وموريتانيا، نساء وأطفال ورجال، كان بعض الرجال يصحبون عائلاتهم، منهم كامارا الذى جاء من السينغال ترافقه زوجته الشابة وطفله الرضيع وبنت عمرها خمس سنوات.

ومن غانا جاء جونسن تصحبه زوجته وأخت زوجته، وآخرون من جنسيات أخرى، ومعهم أطفالهم وزوجاتهم وأصحاب لهم.

قريبا من سواحل أسبانيا كان تيار قوى يندفع بشدّة عبر (البوغاز): مضيق جبل طارق، يداهم المركب، يلعب بها يمنة ويسرة، ثم يحطّمها

بموجة عالية عاتية، تنثر ألواحها فوق الماء ويغرق الركاب، وتغرق معهم الآمال، إلاّ من بعضهم كتبت لهم الحياة، حيث كانت حوّامة قرب المركب تراقبها لتقبض عليها بمن فيها، غير أنّ القدر سبقها، خاطبت الحوّامة مركز زوارق الانقاض السريعة، فجاءت لتدرك بعضا من البشر أحياء.. أخذت قوارب الانقاض تلتقط من كان على قيد الحياة، بفضل إجادته للسباحة رغم معاكسة الأمواج العالية.

كان كامارا حين تحطّمت المركب وتناثرت ألواحها، وبدأ صياح الركاب نساء وأطفال ورجال، وهم بين غريق يهوى فى قاع البحر وبين متشبث ببعض الألواح، وضجة الركاب المساكين تعلو إلى السماء، كان كامارا يخطف ابنته فيضعها على ظهره ويمسكها بيد ويدفع الماء باليد الأخرى، أما زوجته فكانت تحتضن ابنها الرضيع حين تحطّمت المركب تصرخ تستنجد بزوجها، لكن هيهات له أن يدركها، وقد غطتها موجة عالية مع ابنها فذهبت إلى الأسماك، كان قلبه يتفطّر من الهلع، تنهمر دموعه يغلبها الماء فلا يراها أحد، هو وحده الذى يحس بها، وهو يصارع الموج والموت وابنته على ظهره يمسك بها فهي التى بقيت له بعد الآن.. أدركه أحد قوارب النجاة، التقطه وابنته التى كانت فى حالة من الفزع والذعر، تمزّق نياط القلب، انتشله المنقذون من موت محقق، ضم ابنته إلى صدره، يحاول تدفيئتها من البرد القارس بحرارة جسمه، وقد كانت أسنانها تصتك من شدّة البرودة والخوف الفضيع.. نست أمها والرضيع من هول الفاجعة، أما أباها فكان المسكين يدارى عنها دموعه

التى تذرف باستمرار حسرة على زوجته الشابة وابنه الرضيع، وقد ودّعهما فى مشهد مرعب، ما زال ماثلا أمام عينيه ضلت فى الذاكرة.. انفلتت منه صرخة هلع بصوت عال سمعها من معه فى زورق الإنقاذ وانتبهت لها صغيرته.. صرخ آه.. ولم يزد على قراءته للآية الكريمة «إنّا لله وانّا إليه راجعون» وضم إليه ابنته: كامارا كان من طائفة المسلمين السنة فى السينغال.

بدأ روع البنت الصغيرة يهدأ قليلا. تذكرت أمها وأخاها الرضيع، ما زال شيء من مشهد تحطّم المركب فى ذاكرتها ماثلا لها، قالت:

- بابا أين ماما وأخي الصغير؟!

- نظر إليها أبوها فى إشفاق.. لم يقدر أن يفتح شفتيه.. لاذ بالصمت الرهيب.. صمت بشيء بالحرقة واللوعة العاطفية التى تمزق الفؤاد.. انهمرت من عينيه الدموع، دموع تنبىء بالجواب.. فهمت البنت الصغيرة جواب أبيها دون ردّ منه.. نظرت إليه فى هلع.. رأت أمها وقت الفاجعة، وهي تستغيث وفى حضنها الصغير.. بعدها غاب عنها المشهد، داهمها شعور داخليّ بأن المصيبة وقعت.. أمها وأخوها ابتلعهما البحر.. دسّت رأسها فى حضن أبيها، وظلت تشهق وتذرف الدمع، ومناحة داخلية تعصف بها كأنها تقيم معزى للأم وطفلها.

انتشلت الزوارق بعضا من ركاب المركب المنكوب.. الذين كتبت لهم النجاة.. جاءت بهم إلى مراكز الإسعاف، تم علاجهم، حوّلت

الحالات الخطيرة إلى المشافى واحتفظت الجهات المسئولة بآخرين فى المعتقلات، ومنها إلى بلدانهم الأصلية، حسب التراتيب المعتادة بشأن الهجرات غير الشرعية.

كامارا المفجوع فى أسرته، وبسبب تلك البنية الصغيرة التى تيتّمت من أمها منذ ساعات، وهي تمسك بوالدها ودموعها على خدها.. تسأل أين أمي.. أين أخى، وتصرخ أحيانا بأعلى صوت، وأبوها يهدئ من روعها، ويشاركها البكاء والنواح فى مشهد يقطّع نياط القلوب الرحيمة، فى هذا المشهد المأساوى، حضر المسئول المشرف على تلك المنطقة التى تمت فيها عملية الإنقاذ.. استفسر الرجل من مساعديه، عن وضعيّة هذا الرجل.. أخبروه عن مأساته، وكيف فقد زوجته وابنه الرضيع.. كما أخبرهم.. وهي تستغيث به حتى ابتلعها البحر، وإن هذه البنت الصغيرة المفجوعة هي من تبقى له من عائلته، وقد أنقذها من الغرق على ظهره، وصارع بها الأمواج، حتى أدركته زوارق الإنقاذ.

تحرّكت فى ذلك المسئول نوازع الخير.. قال لمساعديه:

هذا المسكين المنكوب، والمفجوع فى زوجته وابنه، ومن أجل هذه الصغيرة التى أنقذها القدر معه.. باسم الإنسانية: يحوّل إلى ملجأ مؤقت، حتى نتدبّر له مخرجا استثنائيًّا، إكراما لهذه الصغيرة المكلومة.

ضل كامارا فى الملجأ علامة فارقة لونًا، وشاذة وضعًا، فهو الملوّن الوحيد وابنته فى ذلك الوسط.. فطن المسئول الذى أمر بتحويله إلى

الملجأ أن الموقف يتسم بحساسية من الناحية القانونية، فأخذه إلى ضيعة يملكها حين علم أنه - كامارا - كان يمتهن تقليم الأشجار فى بلاده ويربّى الحيوانات.. أخذه إلى الضيعة، ورتب له مأوى، وأجرى له أجرا.. فكان الرجل ممتنًا لهذا الصنيع الذى خصه به المسئول صاحب الضمير الرحيم والمروءة والشفقة والعاطفة الإنسانية.. وللأقدار تدبيرها وقرارها النافذ فى الوقت المحدّد.

كان على ظهر المركب أختان من مالى عبرتا الصحراء مع زوج إحداهما، إلاّ أن الزوج قضى نحبه فى الطريق قبل الوصول إلى الساحل فى الشمال.

واصلت الأختان السير مع مجموعة المهاجرين حتى ركبوا جميعا البحر.. حكم القدر على إحداهما بالغرق حين تحطّمت المركب، وكتبت الحياة للأخرى، كان وضعها شاذا فى مجموعة من المهاجرين المعتقلين الذكور: وهم القلّة الناجية من الموت، والتى كانت السلطات بصدد تسفيرهم إلى بلدانهم، رابحين حياتهم، وخاسرين أحلامهم فى الوصول إلى بلاد الشمال.

أخرج الظابط المسئول، ذلك الذى رحم كامارا من قبل - والله هو الرحيم - ولكن فى الناس من يرحم الناس بإذن من الله.. أخرج تلك المرأة المالية التى فقدت أختها فى البحر، والحقها بخدمته فى بيته.. شكرت له حسن صنيعه، وتفانت فى خدمته، كانت مطيعة مخلصة،

سرعان ما أستوعبت أساليب حياة الرجل وأسرته، وأصول الخدمة والتخاطب مع زوجته - فرنسية الأصل - فالخادمة كانت تتقن اللغة الفرنسية، إذ أنها كانت مدرسة أطفال فى إحدى المدارس الفرنسية فى مالى.. فرحت الزوجة بالمرأة الأفريقية الخادمة، أولا لأنها تتكلم بلغتها، وثانيا لطاعتها وحسن تدبيرها شؤون منزلها، وثالثة أخذت تعلم الصغار وتراجع لهم دروسهم، فكانت لحسن الحظ لأسرة هذا الظابط: ذات نفع من وجوه عديدة.

ضلت ماندلينا واسمها: اسم فرنسى - تخدم الرجل بنصح وأمانة وتعتنى بالأطفال - ولد وبنت - تربية وتعليما كأحسن ما تكون التربية والتعليم، وكان الرجل ممتنا منها - الخادمة - وزوجته فرحة بها، تحترمها وتقدّرها وتقدم لها الملابس والهدايا.

خطر على الرجل الظابط خاطر لم يخبر به زوجته إلاّ بعد وقت، عندما اطمأن إلى حسن ما خطر بباله، وأن الأمر فيه خير للجميع، كامارا والمرأة الخادمة وله ولزوجته أيضا.

قرّر الرجل الظابط ذو القلب الرحيم، بعد أن شاور زوجته فى الأمر، أن يزوج كامارا من مندلين، وان يهىء لهما بيتًا صغيرا فى ركن من حديقة المنزل، وكان الأمر كذلك .. فرح كامارا، ورحبت مندلين، كلّف كامارا بالإشراف على الحديقة وتنسيقها ومرافقة الأولاد إلى المدرسة، بما فيهم ابنته التى أصبحت فى سن الدراسة، وتكفّلت ماندلين بأعمال

البيت، ومراجعة دروس الأولاد الثلاثة، بنت الظابط وبنت كامارا فى عمر متقارب والولد متقدما عنهما بسنتين.

هكذا قررّ القدر قراره، وقرار القدر نافذ وفى الموعد الذى يحدّده.

عوض كمارا زوجة أخرى، وقد فقد زوجته وطفله غرقا فى البحر منذ عام، وعوض ماندلين زوجا عن زوجها الذى قضى نحبه فى الصحراء قبل أن يصل إلى البحر.

هو حكم السماء، وفى حكمها الخير كل الخير.. «وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى ان تحبوا شيئا وهو شر لكم»

عاشت ماندلين القادمة من مالى فى كنف زوجها كامارا من السينغال فى هناء وراحة بال، واحد من السينغال وأخرى من مالى والبلدان متجاوران واللغة مشتركة بينهما - الفرنسية - فهما من المستعمرات الفرنسية سابقا، والمحلية التى كان أصلها واحدًا قبل أن تتحول إلى لهجات مختلفة.

كانت بنت كامارا تملأ عليهما البيت الصغير أنسا، وهما يتطلعان إلى الانجاب، بعد سنة واحدة أنجب كامارا من ماندلين ولدًا تم به الانس سمّاه عثمان، فكامارا مسلم سنّى أما ماجدولين فكانت ديانتها المسيحية الكاثولكية، ثم أسلمت حين تزوجت كامارا.

كانت أسرتان صغيرتان: أسرة الظابط وتتكون من أربع، وأسرة كامارا وتتكون من أربع، ولأن الرجل الظابط الإسبانى كان على خلق

كريم، وكان بالدرجة الأولى ذا قلب رحيم وإنسان بمعنى الكلمة، كذلك كانت زوجته طيبة ودودة، تحترم الآخر وتقدّره ولا تسىء إليه بكلمة ولا فعل، لذلك كان الاثنان: الرجل وزوجته يعاملان كامارا وماندلين معاملة حسنة، يوفران لهما الطعام والشراب واللباس، ويدفعان لهما أجرة مجزية، علاوة على ذلك سعى الظابط الكبير، وكانت له حيثية فى دوائر السلطة، وجاه مع زملاء له فى مصالح الهجرة.. سعى فى استخراج أوراق إقامة، لكل من كامارا وماندلين، فأصبح وضعهما قانونيا يتمتعان بكامل الحقوق والمواطنة فطاب لهما المقام.

فى سياق آخر كان كيتا من مالى، ضمن تلك الجماعة البشرية التى زاد عددها عن مائة وخمسين فردا، راحلين كلّهم نحو الشمال، كانوا على ظهر المركب الذى حلّت به الكارثه، ومع كيتا أبناء عمومة له وآخرون من قرى مجاورة لقريته فى مالى.. نجا كيتا من الغرق بأعجوبة حدّث بها أهله حين عاد، قال:

كان من حظى حين تحطّم المركب، وتناثرت ألواحه فوق الماء، أن أمسكت بلوح من تلك الألواح التى تناثرت فى البحر.. وضعته تحت صدرى، وأخذت أدفع الماء من حولى.. كانت زوارق الإنقاذ تقترت منى ثم تبتعد تلتقط أولئك الغارقين الشارقين الذين لم يظفروا بلوح من ألواح المركب المحطّم.. كنت أصرخ حين يقترب منى زورق للنجاة، لكن لا يلتفت إليّ حتى شارفت على الغرق، وشعرت باليأس من النجاة.

دقائق كأنها دهر، ويأتى إليّ الفرج، قارب يمدّ إليّ بحبل النجاة تعلّقت به واعتليت القارب، وأنا أرتعد خوفا ومن البرد، تنفّست الصعداء وحمدت الله على النجاة.. فى مركز الإسعاف تفقّدت الموجودين، أبحث عن رفاقى وعددهم ثمانية عشر، لم أعثر على واحد منهم، داهمتنى نوبة من النحيب حتى أخذ بيدى واحد من المسعفين، أدخلنى غرفة وهدّى من روعي قليلا.. صرت أتذكّر أصحابى وأبناء عمومتى، ومن عرفت على ظهر المركب، واحدا واحدا، وبعض الوجوه ممّن عشنا معهم فى البحر على مدى ثلاثة أيام قضيناها فى البحر إلى أن حلّت بنا الكارثة.. يا الله عشرون رجلا تقريبا كنا رفقة واحدة، لم يبق منهم أحد الاّ أنا؟! يا لهول المصيبة.. يا للفاجعة.. أهذا ثمن الهجرة إلى الشمال؟! والأدهى أنى علمت أن الناجين لا يزيد عددهم عن خمسة عشر فردا، أي أن المفقودين: نسبة تزيد عن تسعين فى المائة.. حقا إنها مصيبة المصائب، وكارثة الكوارث، ومثلها تقع كثيرا فى البحر المتوسط، من البوغاز غربا وحتى غزّة شرقا، على طول الساحل آلأفريقى الشمالى، وجزء من ساحل غرب آسيا، هجرات نحو الشمال، يدفع بها الجنوب ضحايا لا عدد لها، تبلغ الآلاف فى بعض السنوات، كما تخبّر به الإذاعات والصحف فى نشراتها وإحصاءاتها من واقع الحصر الذى تقوم به جهات الاختصاص.. جاء فى احصائية صرّحت بها السلطات الإيطالية فى سنة من السنوات.. جاء فى تلك الإحصائية غرق أكثر من ألفين من البشر خلال أربعة أشهر، هي أشهر الزوابع وهيجان البحر،

وكلهم من الجنوب فى هجرة نحو الشمال.

كوارث ومصائب وفواجع مهلكة، تذهب بأرواح أبرياء من البشر كلهم من الجنوب قاصدين الشمال، باحثين عن حياة أفضل ورزق أوفر، فى هجرات غير شرعية، تنطلق من مرافئ سرية فى غفلة من السلطات على امتداد الساحل الجنوبى للمتوسط، بطول ما يقرب من خمسة آلاف كيلو متر تبدأ من طنجة فى المغرب، وحتى بورسعيد فى مصر.

جنوبيون يتجمعون على السواحل الشمالية لأفريقيا، قادمون من كل حدب وصوب، من هضبة الحبشة ومن الصومال، من أرتيريا والسودان، من كينيا وتنزانيا فى شرق أفريقيا الفقير، جنوبيون من تشاد ونيجيريا، من مالى والنيجر وموريتانيا، وبقية شعوب غرب أفريقيا دون استثناء، شباب ورجال بما فيهم النساء وحتى الأطفال، يعبرون الصحراء الكبرى، وصحارى مصر والسودان فى غربهما، وليبيا فى الجنوب الشرقى، يقطعون المسافات الشاسعة سيرا على الأقدام، مع معاناة العطش والجوع والعراء، فيافى موحشة خالية من العمار، يكابدون فيها المشقة والتعب الشديد، حتى يصلوا إلى الشمال أو لا يصلوا، ومن ثمَّ يركبون البحر والخطر الأكبر.. فى البحر فجائع وأهوال، وكم من حادثات مؤلمات وقعت لمن ركب البحر مهاجرا سرّا نحو الشمال.. أحصتها سجلات السلطات على الضفتين، على الضفة الجنوبية حيث الغرقى يقذفها البحر بعد ما تحطّم امواجه وسائل ركوبهم، الغير مأمونة وخالية من جميع وسائل السلامة والأمن، والتى حشرهم فيها

الضالعون فى جريمة تهريب البشر بالهجرة غير الشرعية والتى تقوم بمكافحتها دول حوض البحر المتوسط، خمسة فى الجنوب وخمسة فى الشمال، لكنها هجرات تزداد كل يوم، ولم تفلح معها المراقبة والتضييق، ورغم المعتقلات والسجون فى الجنوب والشمال، ورغم الموت غرقا فى البحر، فالأعداد كل يوم فى ازدياد، والهجرة لا تنقطع.

ظاهرة العصر هذه: الهجرة السرية بين أفريقيا وأوربا، هي التى تشكّل الجزء الأكبر فى المأساة الكبرى: الهجرة والهجرة المعاكسة.

نقطة سوداء قاتمة فى تاريخ البشرية هذا الذى حدث وما زال يحدث، على مدى أكثر من ثلاثين سنة، وتحديدا من بداية العقد الثامن من القرن العشرين، حتى يومنا هذا فى تاريخ2015: خمسة عشرة سنة فى الألفية الثالثة.

طوال هذه المدة أي: ثلاثة عقود ونصف، وأفريقيا تدفع بالتعساء البائسين، الذين ضاقت بهم الحياة فى بلدانهم، وحطمتهم الفاقة، وأهلكهم العوز الشديد، تدفع بهم بلدانهم إلى بلدان الشمال ذات الثروات والعمل المتوفر والعيش الرغيد، باحثين عن العمل الشريف والحياة الآدمية الكريمة، لكن البحر يبتلع الكثرة منهم ولا تصل الاّ القلّة القليلة. أما الباقى فيذهب فى بطون الحوت.

ان الهجرات الجنوبية نحو الشمال: الغير شرعية عبر البحر، تشكّل الجراح الأكثر إيلامًا والقاتلة، فى هذه المأساة الإنسانية، التى تحدث منذ

عقود ولا زالت مستمرة كل يوم.. وإن كانت تقابلها هجرة عكسية من الشمال نحو الجنوب، وفيها أيضا كوارث وفضاعات ومحن وسوء معاملة يلاقيها الشماليون فى الجنوب، تشكل هي أيضا جزءًا آخر فى المأساة، إلاّ أنها تعتبر صغيرة بالنظر لما يلاقيه أهل الجنوب المهاجرون، لكنها تكمّل المأساة الكبرى: الهجرة والهجرة المعاكسة: جنوب شمال، وشمال جنوب.

هذه المآسي التى استعرضناها من خلال هذه الرواية، والتى ارتكزت على معطيات ثابتة حقيقية، تناقلتها الأخبار الصحيحة من المصادر الموثوقة فى الإعلام، وخبّر بها الذين عاشوها ممّن كتبت لهم الحياة، وكذلك شهود العيان المتعاملون مع هذه الظاهرة، فى المكافحة والمراقبة، والإسعاف، والمشرفون على المعتقلات، كذلك المواطنون الذين يعيشون فى القرى الساحلية، وعلى أطراف العواصم، حيث يشاهدون بين الحين والآخر الجثث التى يلقى بها البحر على الشاطىء.

(17)

أما أهل الشمال المهاجرون إلى الجنوب، هجرات قصيرة المدد، بغرض السياحة والترفيه، والإقامة فى بعض الأحيان، خاصة المتقاعدين.. هؤلاء معاناتهم أرفق، وخساراتهم أقل، وإن وجدت فهي خسارة مادية أو معنوية لا تصل إلى فقدان الحياة، إلاّ فى حالات نادرة، تكون بسبب الجريمة المباشرة نتيجة الطمع فى المال، أو بسبب السكر وفقدان الوعى، كما يحدث بين شباب وعجايز كبار من النساء، وأحيانا

تكون الجريمة دافعها شذوذ جنسي، كما ترصد الصحف ومظابط التحقيقات فى مراكز الشرطة.

استعرضت هذه الرواية، ما حدث للمرأة السويسرية باولا فى أحد بلدان الجنوب، وقد جاءت بنية الإقامة لما تتمتع به هذه البلاد من مناخ معتدل، ونظافة هواء، وشمس مشرقة، وشواطىء جميلة.. حيث أعجبت بموقع إحدى المدن فأرادت أن تقضى فيها بقية حياتها، لكنها ولسوء حظها تتعرض للابتزاز، فخسرت المسكينة شقاء عمرها وما تملك، ولم تستمتع بما ضنته مقاما طيباً، فعادت إلى بلادها مقهورة، تعض على أصابع الندم، جراء ارتباطها بمحتال خطير، أوقعها فى شراكه، وشوّه سمعة بلاده وسمعة الجنوب، فكان نموذجا سيئًا أساء إلى وطنه ومواطنيه.

والهجرات على اختلافها، من الشمال إلى الجنوب والعكس، شرعية أو غير شرعية، تختلف أغراضها بالطبع، أهل الجنوب يهاجرون إلى الشمال، من أجل البحث عن العمل، وتحسين أحوال العيش، والهروب من الاضطهاد والقهر وطلبا للحرية والكرامة المفقودة.

والشماليون يقصدون الجنوب لغرض السياحة والترفيه، والاطلاع على الثقافات المتنوعة لدى الشعوب، والتفرج على الآثار والتمتع بالمناخ المعتدل: من هواء عليل وشمس مشرقة، وشواطىء نظيفة.

هذه الهجرات سواء كانت من الجنوب إلى الشمال أو عكسها، لها اثار سلبية أخرى، غير ما تقدم ذكره: مكابدة، ومشاق فى الطريق، وأخطار محدقة بالمهاجرين الجنوبيين، يصادفونها فى كل قطر يجتازونه، فهم:

يدخلون الأراضى دون تأشيرة دخول أو مرور، وبلا جوازات سفر فى الغالب، وبذلك هم عرضة للقبض عليهم، والاستجواب والاعتقال، والأحكام بالسجن، ولا يخلو كل هذا من العذاب النفسى والجسدى، هذا إلى جانب ما يلاقيه هؤلاء، من جوع وعطش يجتازون صحارى شاسعة موحشة، قضى فيها كثيرون نحبهم، قبل الوصول إلى العمران على الضفة الجنوبية للمتوسط، نقطة الانطلاق إلى ما وراء البحر.

هذا عن الجنوبيين، أما الشماليون فإن رحلاتهم نحو الجنوب سهلة ميسورة، حضارية منظمة ومرفهة.. طائرات نفاثة من أحدث طرز تنقلهم في ساعات إلى وجهاتهم المقصودة دون مشقة ولا تعب، رفاهية أثناء الرحلة في الجو من مآكل ومشارب، وتكييف وفخامة مجلس، ورفاهية في مكان الإقامة حيث الفنادق الضخمة، والمسابح والحدايق والطعام والشراب وكل شيء بانتقاء، في روايات متعددة على لسان شخصيات هذه الرواية. في أدوار مختلفة: رئيسة وثانوية، وردت أوصاف هذه عن أحوال مختلفة في تفاصيلها، وملابساتها، وظروفها وأماكنها، وما فيها من معاناة كان قد عاشها المهاجرون نفسية ومادية وغيرها، أوصاف لبعض الحالات وليس كل الحالات.. هناك نكبات وفجائع وكوارث عاشها. وصادفها هؤلاء المهاجرون في الاتجاهين، لم تأتِ بها الأخبار لا في الإذاعات الفضائية ولا في الصحف ولا من شاهدها أو سمع بها... ضلت مجهولة في البحر سرا يحتفظ به؟ فالبحر لا يبوح بسرّه، ولا يخبر عن ضحايا فاجأهم القدر في عرضه فتلقفتهم

الأسماك، هذا عن أصحاب الهجرات غير الشرعية من الجنوبيين المساكين- أما الشماليون فإن نكباتهم التي يحتفظون بها في صدورهم، فيها من الفضاعة والمهانة والتعدي على الحقوق ما يعجز عنها الوصف ولعل في حكاية باولا السويسرية الدليل.

إن ما يصيب أهل الشمال أغلبه مستتر لا يعلمه إلا قلة من الناس، وفي حدود ضيقة، أو صاحب المصيبة نفسه رجل أو امرأة وليس على نطاق واسع. مآسي لاشك في ذلك لكنها محدودة وفي بعض البلاد دون غيرها.

للهجرات هذه سلبيات لا يغفلها الراوي، وهي حقائق ثابتة، واقع ملموس بالحجة والبرهان والدليل، حجة دامغة، وبرهان ناصع، ودليل واضح ثابت... واقع معاش في الجنوب والشمال على السواء.. اكتوت به المجتمعات على مستوى الصحة والثقافة والحياة الاجتماعية: سلوكا وعادات وممارسة... وقيم أخلاقية، ومظاهر حضارية، وحياة متضادّة، لا يرتضيها هؤلاء من جانب الآخرين، ويرفضها أولئك الآخرون من الجانب الآخر.

من هذه السلبيات التي يأتي بها العابرون للصحراء من الجنوب إلى الشمال، في هجرات غير شرعية، تتوقف في محطات على سواحل شمال أفريقيا، ثم تواصل الرحلة إلى ما وراء البحر، بعد أن تتوطّن هذه القوافل المهاجرة لمدة من الزمان تقصر أو تطول حسب الظروف، هذه القوافل وقوامها البشر لها سلبيات تنشرها أثناء إقامتها بين الناس في

تلك المحطات وتحملها معها حين تغادر نحو الشمال، إن نجحت في عبور البحر.

سلبيات خطيرة تتعلق بالسلوك والعادات والصحة والأخلاق، يأتي بها هؤلاء إلى مجتمعات نظيفة خالية منها، يرفضها الدين والعرف والتقاليد، والثقافة والحضارة.

يأتي الجنوبيون إن لم يكن كلهم فجلُّهم، يحملون أمراضا مستوطنة في بلدانهم، ويصعب حصرها، ويستعصى علاجها، تصيب من يختلط بهم لا محالة، ويكون الثمن باهض أحيانا: الموت المحقق، يأتون ولهم أخلاق سيئة يمارسونها، ويجرمها القانون، كالسرقة، والسكر، والدعارة وترويج المخدرات والمنشطات.

ولهم أيضا سلوك وعادات مستهجنة يأباها الذوق السليم. وليس أدل على هذا من بعض ما يرويه الرواة وتحديدا حادثة وقعت في إحدى دول الشمال الأفريقي، وفي عاصمتها، وكما رواها الراوي، فكانت على الوجه التالي:

من عادات هؤلاء القادمون عبر الصحراء من كل مكان، ومن دول معروفة بالفقر والتخلف، والقهر والاستبداد، وغياب الحريات والديمقراطيات ووجود الطبقية والتمييز بين الطوائف والأقليات العرقية، وهم مختلفوا الديانات: بعضهم يدين بالمسيحية- قشورها وليس لبّها- وبعضهم يدين بالإسلام- اسما فقط لا يطبق قواعد ولا

واجبات- وهناك من لا دين له أصلا، إلا من طقوس وممارسات من عادات القبائل البدائية التي ينتمي إليها.

هؤلاء المتجمعون داخل المدن، أو على تخومها، يمارسون العمل في مدن مختلفة، ودونما عقود مجرد عمالة عارضة تعمل أسبوعا، وتعطل أسبوعا آخر.

هؤلاء يتدبرون سكنا لهم في تجمعات وبؤر أنشأها من سبقوهم من المهاجرين، على أراضي فضاء داخل المدن تكون عادة من أملاك الدولة المقيمين فيها، أو في غابات على أطراف المدن، أو في إحدى المزارع يؤجرها لهم مالك طمّاع، يستلم منهم أجرة في نهاية كل شهر عن كل فرد.

في هذه البؤر والتجمعات السكنية، تختلط الأجناس والجنسيات وتتباين العادات والسلوكيات، وتتعدد الثقافات واللغات، وتكون الأخلاق في الحضيض.

هنا تروّج المخدرات والمنشطات، وتباع الخمور وأقراص الهلوسة، وتمارس الدعارة، ويكثر العنف، حيث تنبعث في هذا الوسط الغير متجانس، أعمال البلطجة والعصابات. يحدث التحايل والتزوير، وتزوير العملة، وتنتشر الشعوذة وجميع الموبقات التي لا يسلم منها المحيط الذي هو بالطبع آهل بالسكان الأصليين في البلد المضيف.

هذه حادثة رواها شاهد عيان، وأحد المسئولين عن التنفيذ في

إحدى دول شمال أفريقيا، قال المسئول:

جاءت الأوامر من أعلى الجهات إلى أكبر مسئول تنفيذي في تلك الدولة التي تمت فيها العملية.. جاءت الأوامر باستهداف تلك المستعمرة التي يسيطر عليها المهاجرون غير الشرعيين، ويتخذون منها أوكارا للرذيلة بأنواعها: من سكر وعربدة، وترويج للمخدرات، ودعارة وشعوذة، وبلطجة وتزييف عملة وغيرها، فكانت تلك البؤرة الفاسدة كأنها دولة داخل الدولة... وجاءت التعليمات بالإزالة مرة واحدة، بحيث تبقى تلك المستعمرة، قاعا صفصفا لا يبقى لها أثر في الوجود.

هاجمتها الجرافات ليلا وضلت تعمل حتى الفجر وفي الصباح كانت تلك البؤرة الفاسدة: عبارة عن فضاء زرعت فيه شجيرات على عجل ورشت بالماء، وبدأ تسويرها في نفس اليوم، ثم كانت بعد شهور سوقا عامرة يقصدها المتسوقون للتبضع وشراء الحاجات.

تفرّق ذلك الجمع الخطير مندسًّا في جيوب المدينة وحتى لا يظهر من جديد تابعته عيون المراقبة وضيقت عليه، فتوزع بعد ذلك. بين المعتقلات والتهجير، فأمن الناس شره. تلك المستعمرة كانت أغلب بيوتها من صفيح، وسكانها أخلاط من جنسيات مختلفة، وافدة من بلاد عديدة وراء الصحراء، وإن تمت إزالتها وأصبحت أثرا بعد عين، إلا أن ساكنيها من المسالمين والذين ليس لهم سوابق، وليسوا من أفراد العصابات المجرمة، والمروجين للمخدرات والخمور، والمتاجرين في

الممنوعات الأخرى بما فيها الدعارة... هؤلاء القادمون من أجل الهجرة سرعان من يتعجلون القيام بهذه العملية، فنجد منهم الذي جمع مبلغا من المال يمكنه من حجز مكان على مراكب الموت على اختلافها، تلك المصنوعة من خشب- التقليدية- والمصنوعة من مطاط، وكلها وسائل نقل غير مأمونة، وخاصة في فصلي الخريف والشتاء حين تهب العواصف ويهيج البحر فتعلو أمواجه وتقوى تياراته... أولئك المساكين لا لهم مفر من ولوج البحر مهما كانت الظروف والأسباب، بغية التخلص من هاجس الانتظار الطويل، وتحقيق الحلم الذي يراودهم منذ زمن حين يتم وصولهم إلى الشمال، الواعد بطيب العيش والحياة الكريمة وأشياء يسمعون عنها. يأخذ هؤلاء طريقهم عبر البحر على نحو وصفه الرواة في أكثر من رواية، وتختلف الروايات حسب الحال المشاهد والمعاش.

وهذه بعض الروايات يتتبع أصحابها خطوات تلك المراكب: (والحرّاقة)، بمعنى التي تنفذ الهجرات غير الشرعية في اتجاه الشمال وما حدث فيها من حوادث غرق، ومصادرة من طرف خفر السواحل للمراكب. على جانبي البحر، واعتقال للمهاجرين، حبسهم أو تسخيرهم، أو حجزهم في المراكز الصحية لمن به مرض معدي، أما الذي تكتب له الحياة ويصل إلى الأرض الأخرى في الشمال، فهذا بدوره له سلبياته يحملها معه ذكرها الراوي آنفا ينشرها بطريقة أو أخرى في تجمعات خالية منها، وكان يجب أن تكون بريئة من تبعاتها.. لكنها تصاب بشرر منها في غفلة ودون علم.

وكما ابتلت البلدان التي كانت محطات انطلاق هؤلاء المهاجرين المرضى بجملة من الأفات، ينال الشمال نصيبه أيضا من هذه الآفات التي منها الأمراض المعدية، والسلوكيات الغير أخلاقية وغيرها.. بهذا تكون تلك الهجرات غير الشرعية أحد أسباب تلك المأساة الإنسانية الكبرى التي تعاني منها بعض الشعوب بفعل الهجرات بين الشمال والجنوب.

وإذا كانت هذه بعض السلبيات التي يرمي بها الجنوبيون شعوب العالم، فإن للشمال أيضا سلبيات يهديها للجنوب في أشكال براقة مغلّفة بالسلوفان، تغري وتهلك، تصيب في مقتل، تسحر ثم تدمّر، سلوكيات عصرية، وممارسات لا أخلاقية، مادية ومعنوية، مظاهر زائفة، وثقافة مستوردة يعقبها استلاب.. لعلها تكون في أسبابها التالية:

(18)

الشماليون يأتون إلى الجنوب بسلوكيات عصرية، مارسوها في بلدانهم بحكم الحضارة والتقدم، وفيها كثير من الحرية الزايدة عن الحد، والزيف والانحلال والتفسخ يصل أحيانا إلى درجة الإباحية في بعض الأمور، انطلاقا في بعض البلاد من فلسفة الوجودية التي ظهرت في أوروبا، وروج لها في كتاباتهم، كل من الفيلسوف الفرنسي، بول سارتر وسيمون بوفار وآخرون، هذه الحرية الاجتماعية... وهي شخصية على كل حال- تعد صادمة لفكر وقيم المجتمع في الجنوب، يرفضها من البداية ولا يأخذ بها، بل يعدها خروجا عن الخلق الكريم، وهي لذلك بحكم الدين والعرف عند أهل شمال أفريقيا المسلمين السنة، وهي التي

تمثل بلدانهم المحطات التي يقصدها الشماليون من المغرب بلد الطبيعة الساحرة الجزائر وتونس وليبيا ومصر بلد الأهرامات والآثار.

تلك السلوكيات التي يأتيها الأوربيون القادمون من بلدان في دول الشمال، ومنها على سبيل المثال، كوبنهاجن عاصمة الدنمرك ومدن أخرى أصغر حجما ومن استكهلم في السويد، ومن فلندة والنرويج، وفي ألمانيا: همبرج وكولن ودسلدرف وستوت فارد وفادرزبادن وغيرها، في فرنسا، باريس وليون، وليل وطولوز ومرسيليا ونيس في سويسرا جنيف وبازل وزيورخ، في إيطاليا روما وميلانو وبرفا وفينيسيا ومدن في لجنوب، كل هؤلاء القادمون من هذه المدن في تلك الأقطار إلى الجنوب، يأتون بخصوصياتهم في اللباس والسلوك والتصرفات ونمط الحياة الاجتماعية التي هم عليها في بلدانهم هم من البلاد الباردة قادمون وما أن تطأ أقوامهم الدفء والحرارة والأجواء الساحرة المغرية، حتى يتخففوا من ملابسهم في البداية ثم يصبح لباسهم يستر القليل من أجسامهم، يلغون ثلاثة أرباعه من فوق، ولا يبقى إلا الربع من تحت يشف ويغري يحرك الأحاسيس والغرائز تضل الرذيلة تمشي في الشوارع والميادين تلفت انتباه المراهقين والشباب وحتى الكهول والشيوخ من أهل الجنوب مما يجعلهم يحلمون ولعابهم يسيل، ولا يعدم أحدهم وسيلة الوصول إلى مبتغاه، الطرق عديدة، والمبررات جاهزة، وكل طرف يتواطأ مع الطرف الآخر ساعتها تحدث المحضورات والممنوعات بكل الأحكام في مجتمع الجنوب، والمباحات بالنسبة للشماليين القادمين لغرض السياحة والترفيه، والتي هي جزء من برنامج الرحلة إلى

الجنوب، باب يفتح للفساد على المجتمعات المحافظة.. سلبيات يزرعها الشماليون في الجنوب، ليست هي الأهم، وإنما غيرها أخطر وأبرزها:

-الاستلاب الثقافي:

هؤلاء السوّاح من كلا الجنسين القادمون في هجراتهم نحو الجنوب، وهجراتهم شرعية بالطبع، ولمدة قصيرة في الغالب، هجرات منظمة في جماعات ومؤقتة المدة: أسبوعان عادة ولا تتعدى الشهر- وتنظمها جمعيات ومكاتب للسفر والسياحة وشركات، وأحيانا تكون فردية للعمل أو التجارة وما شابه ذلك.. ولأن غالبية هؤلاء هم من كبار السن من الجنسين وقد بلغوا سن المعاش.. هؤلاء جميعهم متشبعون بثقافاتهم المحلية، ومتمسكون بلغاتهم، وعاداتهم وتقاليدهم لا يحيدون عنها، أما أساليبهم في الحياة وما درجوا عليه من حرية اجتماعية غالبا ما تكون في حكم الشاذ والمستهجن، عن المجتمعات الجنوبية المحافظة، وهذا أبرز ما يرفضه الناس في الجنوب، ويعد من السلبيات التي يسرّبها الشماليون عن غير قصد، وتنتشر بين الجنوبيين بفعل المعاشرة والاختلاط ولو لوقت قصير.. تلك الثقافات واللغة التي تتمسك بها هذه الفئة العمرية من الأوربيين، إذ لا يعرفون غيرها في الغالب... الألماني متعصب جدا للغته والفرنسي كذلك لا يحيد عن ثقافته ولغته وعاداته وأسلوب عيشه، والإيطالي وبقية الجنسيات كل له خصوصية ثقافية ولغوية، الأمر الذي يجبر أهل الجنوب المتعاملون معهم على أن يشاركوهم في خصوصياتهم الثقافية والمعرفية، وأن يتعلموا لغاتهم..

هنا يصير الاستلاب الثقافي ويعم خاصة بين الشباب، فهم أكثر الفئات العمرية التي تختلط بهؤلاء.

من السلبيات أيضا ما نجده في الممارسات الجنسية المباحة عند هؤلاء العجائز خاصة مع الشباب، كما نجد المثليين القادمين الذين يجدون ضالتهم هنا في الجنوب، ومعروف أن في الاتصال الجنسي عموما، مخاطر ومهلكات خاصة في هذا العصر الذي يظهر فيه بين الحين والآخر، مرض جديد، لا تاريخ له ولا هوية، يمر وقت طويل قبل أن يكتشف له العلماء أمصالا واقية، وعلاجات ناجحة. يأتي الأوربيون بثقافة الملبس والسلوكيات المصاحبة: والتعري أو ما يشبه التعري أثناء السباحة في البحر أو عندما يتمشون على الشاطئ، وحتى في المتنزهات، والميادين والشوارع، وفي السهرات التي تقيمها الفنادق والمركبات السياحية، وفي الملاهي الليلية حدث ولا حرج، عن مظاهر الحرية الاجتماعية أو قل التفسخ والانحلال، والتمادي في إثارة الغرايز وإذكاء نار الشهوات فالقبلات جائزة في كل مكان، واللمسات والاحتضان في حلبات الرقص على مشارف الحب لا حرج منها ومباحة علنا. تمارسها العجائز المتقاعدات، والمحالات على المعاش، وعلى العمر والحياة، مع شباب في عمر الأحفاد، عجائز متصابئات وحين تنتهي السهرة يكدن يلفظن الأنفاس من شدة الإنهاك بسبب الرقص مجاراة للشباب الطامع فيهن والطامعات فيه.

ومن السلبيات ما يضاف إلى ما تقدم من انحطاط أخلاقي، وشرور

مادية أخرى مدمرة للإنسان نفسيا وجسديا، ينشرها الشماليون بين أهل الجنوب.... أهمها المخدّرات من حشيش وحبوب هلوسة، وهيروين، وكوكايين، يجلبونها معهم، أو يطلبونها من المروجين المحليين الذين تمدهم بها عصابات إجرامية ومافيات خطيرة، تتاجر في كل شيء من الجنس إلى السلاح... تفعل كل شيء محضورا وممنوعا وتفلت من طائلة القانون.

ومن الآفات الخمور يتعاطاها الشباب مع هؤلاء الوافدين من أوروبا، أثناء مصاحبتهم لهم في السهرات أو المطاعم، وفي الجلسات الخاصة، أو في الملاهي والبارات، ومعلوما أن الخمر محرمة في الدين الإسلامي، الذي هو دين كل السكان في بلدان الجنوب التي يقصدها السواح من الشمال، والخمر ممنوعة في تشريعات بعض هذه الدول، وفي البعض الآخر مسكوتا عليها بطريقة أو بأخرى، بمعنى الباب مواربا بخصوصها، أو هو مفتوحا نصف فتحة، كما يقال هي ممنوعة في العلن، ولا تقدم إلا في أماكن مرخص لها، كالمركبات السياحية أو الملاهي الليلية، أو الفنادق الراقية التي يؤمها الأجانب غير المسلمين.

الخمور والمخدرات والجنس، والإباحية، والشذوذ، والاستلاب الثقافي، كلها سلبيات جاد بها الشماليون على الجنوب، بحسن نية أو بغيرها، انتشرت واستفحل أمرها.. وأضرت بالمجتمعات وأفسدت شبابها.. ثروة المستقبل البشرية، وعماد بناء الأوطان، تدبير مقصود أو غير مقصود، منهج شيطاني رهيب يستهدف القيم والمبادئ، يقتل في الشباب روح الخلق والإبداع، والتطلع إلى الغايات السامية والأهداف

النبيلة، هذا الشباب الفئة العمرية المبدعة والمتوثبة لصنع الحضارة والتقدم... رجاء الشعوب ومناط أمالها، شعوب في شمال أفريقيا اكتوت بنار الاستعمار في العصر الحديث، حيث تسابقت دول الشمال كلها دون استثناء لغزو تلك البلاد واستعمارها من المغرب في الغرب، وحتى مصر في الشرق، وهي البلاد التي يفد إليها أولئك الأوربيون وأحفادهم الذين استعمروا هذه البلاد وحتى بقايا من كانوا في حملات الغزو الذين طال بهم العمر جاءوا في هجمات من نوع آخر... غزو بشكل جديد: هو الغزو السياحي إن صح التعبير، ترافقه تلك السلبيات.

وتلاحقنا لعنة الشماليين في بلادهم، حين نفد عليهم في ديارهم مرغمين ومجبرين، بسبب الحاجة والعوز، بحث عن العمل عندهم من أجل لقمة العيش، التي عزت في أوطاننا، ولأسباب أخرى أهمها الحرية التي ربما تكون المكرمة الأهم، وغيرها أخريات تنشدها وتبحث عنها.. هناك في ديارهم يستفردوا بنا ويطرحوا علينا قيمهم ومبادئهم، سلوكياتهم ونمط عيشهم وبعضا من عاداتهم وتقاليدهم، وأعرافهم ونظمهم الاجتماعية وقوانينهم... هناك نبقى أسارى عندهم، لا نحرك ساكنًا إلا بأمرهم وفق توجيهاتهم وتوجهاتهم، هم الغالبون عددا، وقانونهم هو الغالب، هم المتفضلون ونحن المحتاجون هم أرباب العمل، ونحن العاملون، أن لم نقل هم السادة ونحن العبيد.

بهذه المعايير نجد أنفسنا مضطرين للاندماج في حياتهم التي لا تروقنا.. حياة فيها كثير من المستهجنات عندنا والسائدة عندهم، لا

عرفهم عرفنا، ولا تقاليدهم تقاليدنا، يختلفون عنا ونختلف عنهم في كل شيء، الغرب غرب والشرق شرق.

ولعل بعض من النماذج التي يسردها الراوي كفيلة بتوضيح المشهد وتجسيد الصورة.

- أحدنا نحن أبناء الجنوب، عاش وتربى على قيم ومثل وأخلاق وجد عليها الآباء والأجداد ولا يحيدون عنها قيم فاضلة يقرّها الدين، والعرف والعادات والتقاليد.

(19)

كان شابا في عز شبابه لا يتجاوز الثلاثين من العمر، حين رمت به الأقدار في إحدى دول الشمال، وفي عاصمتها بالذات، ذهب وحارقًا: هجرة غير شرعية- هناك تحايل على القانون، وحيث لا يسمح له بالإقامة، فهو لا يملك مصوغاتها، وحين يكتشف أمره يسفّر إلى بلاده فورا، وهو فارّ منها بسبب الحاجة وضيق ذات اليد، هناك لابد له من إيجاد المخرج بأية وسيلة.

اصطادته صدفة امرأة من تلك البلاد، كانت تملك ملهى ليليا في إحدى الحارات.. امرأة تجاوزت الأربعين، استدرجته بطريقة أو أخرى إلى بيتها.. تسترت عليه لغرض في نفسها، كان هو في حاجة للاختباء، وكانت هي في حاجة إليه، لعلها تنوي استخدامه في الملهى، أو لغرض آخر، هو مشكلته الأوراق، التي تبرر له البقاء في تلك البلاد بصورة

شرعية، وهي تعرف نقطة الضعف هذه فيه، وفي من سبقوه في الخدمة.

قالت له: أنا أريدك أن تعمل معى فى الملهى أنت شاب نشط وعلى خلق، أنا أرى لك مستقبلا زاهرا إذا طاوعتنى.

وأنا موافق على العمل معك من الآن.

لابد لهذه الموافقة من اجراء.

أنا موافقة على كل إجراء تتّخذينه.

لابد لك من بطاقة الإقامة، لتستطيع العمل والخروج من هذا المعتقل كما تسميه.

ساعدينى فى الحصول على بطاقة الأقامة.

كان أسمه جمعه، وهى تناديه جيمى - من أسماء الدلع - قالت:

جيمى تزوجنى.

صمت ولم يرد.. حدث له صراع نفسى داخلى: يتزوجها وقد تجاوزت الأربعين؟! أين عمرها من عمره.. ثم تجربتها معه خلال المدة التى خبأته فيها داخل بيتها!! هذا إذا لم تكن لها تجارب أخرى مع غيره، وهى التى تقرّ وتؤمن بهذا المبدأ كما سمع منها ذات مرّه؟! هذا لا شك فيه، وهى التى قالت: أن المرأة فى هذه البلاد لها الحرية فى أن تكون صداقات مع الجنس الآخر، وحتى معاشرة وحياة مشتركة.. من ناحية أخرى هو الشاب الطموح الذى ينشد المستقبل الزاهد، وتحقيق الآمال العريضة بما فيها التطلع إلى أمتلاك البيت الخاص والزوجة التى يرتضيها، وكذلك

انجاب الأطفال، كل هذا من حق.. قطعت صمته قائلة:

جيمى.. فى ماذا تفكر؟ أفى أننى أكبر منك سناً؟ أليس كذلك؟ أعرف هذا، وتفكر فى الأولاد.. أنا أنجبت بنتا من قبل ساحكى لك قصتها.. وما زلت قادرة وراغبة فى الانجاب ومنك أنت بالذات.. أم تفكر فى أشياء أخرى؟ مثل التجارب التى خبرتك عنها، وتمارسها النساء بعد سن الرشد فى هذه البلاد.. النساء هنا كلّهن لهم تجارب سابقة.

ضل صامتا لا يحير جواب.

باغتته وهو شبه غائب عن الوجود.

لم تجبنى.. هل تتزوجنى جيمى. وكمن أراد أن يتحدّى كل شيء.. يتخلّى عن جميع قناعاته السابقة والموروثة، التى قال بها الدين والعرف.. قرّر أن يضرب بعرض الحائط كل العيب، والعار، والأصول، والتقاليد والعادات، المستهجن والشاذ، وكل قيمة أو مبدأ يؤمن به من قبل، ما دامت تشكل سداً منيعاً فى سبيل تحقيق اهدافه ورغباته. خاطب نفسه: لماذا كل هذه العراقيل والمعوقات، والموانع والمحاذير، وغالبيتها من وضع البشر؟!.. الدين فقط كان لا يقترب من حدوده، يؤمن به ايمانا راسخاً ودائماً لا يريد لعقله ترك العنان، للتفكير معمقا فى أمر الدين، أو ما وراء الطبيعة: والمتافيزيقا.

قال فى نبرة أصرار وتحدى، لمن يريد أن يقطع أمراً باتاً:

سأتزوجك.

جيمى.. أنت رائع، واقعى وشجاع.. أنت صاحب عقل راجع ورأى صائب.

وأنت من الآن زوجتى.. لا أريد كنيسة ولا جامع ولا شيخ يشهد على هذا الزواج، ولا راعى كنيسة يباركه.

لا عليك سأعمل على توثيق عقد الزواج عن طريق معارف فى مكتب الأحوال الشخصية فى البلدية.. وغدا نبدأ فى استخراج الأوراق الرسمية اللازمة لبطاقة الإقامة.. أبشر يا حبيبى ستخرج قريباً للعمل معى، بل ستكون شريكى فى كل شيء.

وكان الأمر كما تمنّت أنجلا.. حققت ما فكرت فيه ودبرت انجزت مهمتها عند المصالح الرسمية بما فيها إخراج بطاقة الإقامة باسم جمعه، خرج بعد ذلك جمعة من المعتقل.

بيت انجلا - وذهب للعمل فى الملهى .. بين يوم وليلة صار له حق التنقل بحرية فى كل مكان، وحق العمل ومزايا أخرى.. صار زوج أو نصف زوج كما كان ينعت نفسه، حينما يرى أحد الزبائن الذين يرتادون الملهى، يجلس بحميمية مع المدام المديرة، والذى يظهر أنه كان من معارفها، أو اصدقائها السابقين.. سيان - معرفة أو صداقة أو حتى معاشرة سابقة - استوت الأمور وتوافقت الأحكام، وأصبح الأمر واقعا بالنسبة لجمعة.

نشط جمعة فى عمله، وهو شاب نشط بطبعه، وكانت هى راضية عما

يفعل وما فعلت.. هى تزوجت عن رغبة بعد أن جرّبت، وكان هو أمينا حريصا متغان فى عمله.. يراقب العمل بدقّة ويحرص على سيرة بنظام ودون مشاكل الاّ ما يحدث من بعض روّاد الملهى الذين تذهب بعقولهم الخمرة، فكانت المدام تتكفّل بحل كل المشاكل وتسوّ الأمر.

سارت الحياة رتيبة فى ثوابتها ومجرياتها، الا ما يحدث أحياناً من منغصات طارئة، كالمرضى وبعض الاشكالات الصغيرة فى اختلاف وجهات النظر، مردّها دائما إلى تبائن العادات والأعراف، وخصوصيات أخرى اجتماعية محضة سرعان ما تزول بين الزوجين، كل يتجاوز عن شيء ما أو يتغاضى عن خطأ غير مقصود.

حين أنجب جمعة وأنجلا بنتا بعد عام من الزواج، تفرغت أنجلا لتربية البنت فأصبحت تقضى معظم وقتها فى البيت، كانت تملك دارا كبيرة بها حديقة واسعة فى ضاحية راقية من العاصمة حيّ الموسرين، أما جمعة زوجها الذى قبل بهذا الدور - الزوج - تحت ظروف قاهرة، سببها أنه: حارقاً، وكان يعيش فى غفلة من رجال الضبط القانونى الذين يلاحقون أصحاب الهجرات غير الشرعية.. جمعة هنا: زوج المدام الذى تبرعت له زوجته أنجلا بنصف ريع الملهى دون أن يدفع مالا فى رأس المال.. التزم بالعمل كمدير للملهى ودر عليه عمله هذا ربحا وفيرا، حين حسب المصروفات والمكاسب، وجد ارقاما تضاف إلى حسابه فى البنك.. تأخذه نشوة حب المال فيخالط مزاجه الرضاء، لكنه لا يلبث أن يشعر بوخزة من ضمير مازال فيه بقية من حياة.. هو شاب كان

متديناً، تربّى فى بيئة محافظة، على تعاليم الدين القويم.. على الشرف والأخلاق الفاضلة الكريمة، جاء إلى هذه البلاد يبحث عن لقمة عيش شريف، وإذا به يقع من البداية فى شرك الضلالة والحرام، سلك مسلك السوء من يوم أصطادته تلك المرأة من شارع جانبى يتخفى عن أعين الشرطة وهربته إلى بيتها حيث بقى مدة من الزمن شبه معتقل، وارتكب معها الخطأ تحت الحاح الظروف المحيطة به، تحاصره فيها الحاجة إلى كل شئ.. إلى الطعام والماء والأمن، وغيره من حاجات البشر، كان فى البداية حين كان فى بلاده، قوي الإيمان متمسكناً بالدين والفضيلة النزاهة والمروءة والصفّة كانت من أخلاقه التى لا يتخلّى عنها أبداً.

فى هذه البلاد التى انتقل إليها، كانت المغريات غالية على كل شئ.. يستعرض جمعه بينه وبين نفسه حين تداهمه تلك النوبات الروحية، التى تقوده إلى الوعى، بما هو فيه وما كان عليه فى بلاده من نقاء ونظافة يد وراحة ضمير.. ساعتها يحس بوخزات الضمير تشتدّ، يتنبّه إلى واقع حاله، وكيف أنّه الآن لافكاك له ممّا وقع فيه، وقد كسب المال، ويطمع أن يملك الملك "الآن هو تزوّج وانجب وألف حياة غير حياته السابقة، وعاش فى عالمم آخر غير العالم الذى كان.

ضميره لا يتركه فى سلام.. يسمع حين كان صغيرا من والده الزاهد والملتزم بالفضيلة والدين، يسمع منه" (الفلوس وسخ إيدين، بمعنى: المال زائل، والدنيا متاع الغرور، وفانية.. وأن من عاش نظيفا طاهرا نقياً، أفضل ممنّ ملأ بطنه بمال حرام، أو أرتكب اثماً، أو خالط رزقه مال

مغشوش، وأن المال يفنى والعمر يفنى، وتبقى الأعمال الصالحات.

ثمة نداء آخر خفى يوسوس به الوسواس مغاده: هل أنت تفكرّ فى ترك هذا الذى بين يديك من مال يزداد كل يوم ؟! وحياة مرفهة رغده، وعز مع أنجلا صاحبة البيت الكبير الفخم، والحديقة الواسعة الغناء، ورصيدها فى البنك واملاكها الأخرى، وهى الآن على أطراف العمر؟! لمن تؤل هذه الأرصدة والأملاك، وهذا الملهى الذي يدر كل يوم ذهباً؟ أن لم تكن لك بصفتك الزوح، فلابد أن تكون من نصيب ابنتك الوحيدة منها.. ثم هذه الحياة الراقية والرفاهية والوجاهة والمكانة، على الأقل فى الوسط الذى تعيش فيه، وينظر إليك روّاد هذا الملهى الدائمون والعابرون باعتبارك مالك الملهى ومديره والأمر الناهي فيه».. أتتنازل عن كل هذا بسهولة؟! هل أنت بكامل قواك العقلية حين تفكرّ فى مثل هذا الأمر؟!، لست أنت وحدك من مواطنيك المهاجرين وغيرهم إلى هذه البلاد الذين يعملون فى مهن مختلفة.. ومنهم من يمارس حتى السرقة وآخرون يتاجرون فى الممنوعات كالمخدرات التى يجرّمها القانون وتذهب بعقول الناس وتدمّرهم، منهم من تزوج بمؤمسات يبعن الهوى فى بيوت سرية وفى الشوارع الخلفية وازقّه الحوارى، واسوأ من هؤلاء جميعاً تجار السلاح الذين يبيعونه للارهابين وحركات التمرّ والانفصال، ينشرون الموت بين الآمنين، يدمرون ويخربون به مقدّرات الشعوب، هؤلاء كلّهم جاؤا إلى هذه البلاد من خارجها ولا يفكرون كما تفكر أنت، هل أنت غبى؟! وما هذا يا راجل هذا الذى تفكر فيه؟!

أنت على كل حال أحسن حال منهم جميعاً، تمارس مهنة مرخص لها من جهات الاختصاص ومعلن مكأنها، يرتادها الزبائن بمحضى أراداتهم، يدفعون ثمن الراحة والترويح عن النفس يقضون أوقاتا سعيدة تقل هومهم، وتزيل من قلوبهم متاعب الحياة.. أنت رجل من رجال الأعمال تمارس خدمة عامة كايّ خدمة تقدم للعموم.. مثل المقاهى والمطاعم، والفنادق وشركات التأمين ومكاتب حجز التذاكر والأعمال العامة وغيرها.

دع عنك هذه الهواجس والأفكار، والتفت إلى عملك، حسن من أداءك وطورّه.. حاول أن تستثمر أموالك المتراكمة فى البنوك.. هناك مشاريع تدرّ عليك مزيدا من المال وسوس له بها يطمئنة أنه فيه خير، وليس فى وسوسة الشيطان خير أوصى به: لك أن تنفق ما تحصل عليه من مزيد المال فى وجوه الخير، وهى عديدة، تصدّق بجزء من هذا المال على الفقراء.. هنا أو فى بلادك حين تذهب فى زيارة أهلك.. تبرع بشيء من المال إلى الجمعيات الخيرية التى تساعد الايتام والأرامل فى كل مكان من العالم، وتساعد بالمال مراكز اللقطاء، ودور العجزه وأصحاب العاهات والاحتياجات الخاصة.

كان هذا النداء الخفى من الوسواس، يقدم له هذه الاقتراحات ليبرّر له مواصلة العمل فى تلك المهنة التى كاد أن يقطع بأنها مهينة ويقطع العمل بها ويهجرها إلى غير رجعة.

ضلت تتنازعه هذه الأفكار لايام متتالية، كان الصراع النفسى بين نزعتين متضادتين، وكان لابد لاحدهما أن تنتصر. أخيرا انحاز إلى ما يرى فيه من وجهة نظره الخاصة الصواب، أو على الأقل من ناحية واقعية ما فيه الاعتدال أو التوسّط بين طرفي نقيض: لا يقطع مع تلك المهنة مرّة واحدة؛ ومواصلة العمل فيها عن قناعة واصرار، ولا التوقف عن العمل بها والعودة إلى البطالة، وربما حياة التشرّد والدخول فى زمرة الفقراء مرّة أخرى كما كان فى الماضى، قبل أن يفرو إلى تلك البلاد. وجد حلا وسطا ليس فيه أنحياز إلى طرق دون آخر، قرر العمل به. هو تراكمت عنده أموال كثيرة، يعرف أنها غير نظيفة هذا المشكل وجدله مخرجا: المتصّدق بجزء منه، والتبرع بجزء آخر كما أوحى إليه ذلك النداء الداخلى الخفى، غير أنه يضل لديه مال وفيرا.. لا بأس من استثماره فى مشاريع تدر الربح وبالتالى مال آخر، لابد أن يبحث له عن وجوه للصرف، تكون ذات نفع للناس وخاصة فى وطنه الأصلى: بعث مدارس ومستشفيات وبناء مساجد وملاجئ، ودور رعاية ومراكز لعلاج الأمراض المتوطنة ارتاج إلى هذه الفكرة واستقرّ رائه على تنفيذها.

جمعه تقلقه مشكلة أخرى، تقلّ راحته وتنغص عليه حياته، يطارده شبحها أينما حل، وفى الليل والنهار، وفى اليقضة وعندما يحاول أن يهجع.. هذه المشكلة هى: ابنته جان – وجان اسم مؤنث ومذكر فى تلك البلاد – التى شارفت على سن الرشد وهي بنت أمها: ربّتها كما هي التربية

فى مجتمعها، وهذا من حقها وسائد فى المجتمع، وليس بأمر شاذ، الا فى نظره هو الذى تربّى تربية شرقية محافظة.. جان جمعه - كما هو أسمها فى بطاقتها الشخصية - بعد عام واحد ستبلغ الثامنة عشر من عمرها، وعندها تكون فى حل من أمرها، تفعل ما تشاء ومع من تشاء، تسهر خارج البيت، وتصادق من تحب وتعاشر، تنفصل عن الابوين إن ارادت، وتبات خارجا، تتحكم فى نفسها كما يحلو لها، هكذا يجيز لها القانون، ويسمح المجتمع فهى راشدة لا رقيب عليها ولا حسيب الآ الضمير.

مشكلة جمعة الكبرى والعويصة مع جان.. جان مشكلة المشاكل.. هى حتى الآن ملتزمة بالدراسة فى مرحلتها الثانوية، وبعد عام واحد تنتقل إلى التعليم الجامعى، وتبلغ سن الرشد.

هنا يبرز شبح المشكلة: الوسط الجامعى غير ما فى المرحلة الثانوية، فى الجامعة يجتاز الطلبة مرحلة المراهقة الأولى، ويدخلون مرحلة الشباب، بداية النضج والتفتح على الحياة، يتغير السلوك، يبدأ احساس الفرد بمسؤليته عن نفسه وحريته، يتخذ القرارات التى يراها تناسبه، يتصرف بمفرده دون رجوع إلى الأبوين أو حتى مجرد مشورتهم وأخذ رائهم، يبدأ ارضاء لشعور بالميل نحو الجنس الآخر - الثنائية الإنسانية - بين الشاب والشابة، يحدث الاقتراب: كل يريد الآخر، وكل يستعرض مؤهلاته: قدراته العقلية، اسلوبه المميّز فى الحديث، تبدأ خصائص كل منهما: الذكورية والأنثوية فى شكل اغراء وجذب كل نحو الآخر، وكل يجرّب سحره وتأثيره فى الآخر، وعندما يحصل التوافق والانسجام تبدأ

الرغبة ثم الاشتهاء، تطفى الفرائز، ويقع المحظور، المحظور فى مفهوم جمعه، وذلك الذى يخشاه: الشبح المخيف. أما بالنسبة لابنته: فالمسألة عندها: حق ممارسة كالآخرين ممّن فى سنها، وسمح به القانون وارتضاه المجتمع، والأمر معتاد فى تلك المجتمعات الشمالية ولا غبار عليه، وكما هو سائد فلا حرج منه ولا يمنعه مانع.

هذه هي المعضلة الصعبة بالنسبة لجمعه، ومشكلة المشاكل المعقّدة، لا يقبلها بحال من الأحوال، يرفضها جملة وتفصيلاً ولا يتصور أنها تحدث مع ابنته جان فى يوم من الأيام: تلك الحرية الشخصية التى تفعل بها ما تريد، لا يمكن أن يحدث هذا وهو على قيد الحياة، أنه الشرف، شرفه هو لاغير.

« لا يسلم الشرف الرفيع من الاذى حتى يراق على جوانبه الدم» بيت من الشعر قالته العرب، حفظه جمعه عن ظهر قلب فى المدرسة الابتدائية منذ سنوات.. تذكره الآن فى هذه المحنة التى بدأ يفكرّ فيها وأوشكت أن تقع، يقول فى نفسه - لا قدر الله - لو حدثت هذه المصيبة فى يوم من الأيام: قل على نفسك يا جمعة السلام.. لا لن يحدث هذا أبداً وفي عرق ينبض، أليس هذا ما يقوله: بيت الشعر العربى؟

وتتابعت الأيام وتلتها الشهور.. تنتقل أنجلا إلى العالم الآخر، وتدخل جانيت عامها الثامن عشر.. تبلغ سن الرشد يتخيل جمعة شبح المصيبة، العار، الشرف الذى سيصيبه الأذى.. هكذا كانت قناعاته

وعرفه، علاوة على دينه الذى يحدّ الحدود، وفى هذا الشأن تفصيل.

ابنته تصادق شابا من عمرها وتعقد معه صداقات وتمارس الحب، ربما فى بيته وعلى سمع ومرأمنه؟! هذا لن يكون أبداً وهو على قيد الحياة.

أين ما ينادى به الشاعر العربى؟ لا يسلم...

وجاء اليوم المتوقع المشهود: جانيت أو جان.. هى مسرفة فى الأسماء وكلها ذات ايقاع وأحد وجناس لفظى يكاد يكون تاماً: جان، جانيت، جينى، جيمى: اسم أبيها، كما خرجته أمها على سبيل الدلع، فى تعريفها الشخصى، تكتب أسمها هكذا: جيجى جانيت، حيث أن اسم الأب عندهم يسبق الاسم الشخصى، لكن أباها لا يعترف إلاّ بما يعتقده صوابا فيناديها: جميلة جمعه، اسم أشتقه من: جانيت مجاملة لزوجته. جاءت جانيت رفقه صاحبات لها وأصحاب جروب، مجموعة عددها ثمانية: أربعة شباب واربع شابات.. دخلوا الملهى، لقضاء وقتا فى اللهو.. ملهى جمعة الذى يملكه بعد رحيل زوجته، ويديره بنفسه «هنا أمام عينيه يرى أبنته تدخل وفى يدها شاب من عمرها مع جماعة، يسهرون ويرقصون ويعربدون؟!!

صعق الرجل، وضّل مذهولا لفترة مما يرى أمامه واضحاً جليّا هذا الذى كان يخافه.

أبنته فى معيتها ثلاثة فتيات واربع شبان، يلهون يتحدثون حديث النجوى، يتهامسون ويشربون الخمور، يدخنون السجائر، يدخلون إلى

حلبة الرقص يرقصون الرقصات الكلاسكية على أنغام الموسيقا الهادية، الأيدى تحتضن الخسور، والرؤوس ناعسة على الصدور، وكلمات الهمس فى الاذان تفعل فعلها، تخدر الوعى، تستدعى الشهوة التى تستوجب الإجابة وتلح.. منظر هز كيان الرجل من الأعماق حرك فيه الشعور بالغيرة، كاد ان يتصرف تصرفا أهوجاً، ينكره عليه الموجودون، ويحسبونه عمل مجانين لوحدث فعلا.. هو مقتنعا بأن هذا ما يجب فعله يا إلاه ابنته فى حضن شاب، والناس يتفرجون، يعود له رشده لحظة من زمن، تنبهه الذاكرة: أليس هذا الذى يحدث كل ليلة فى هذا المكان بالذات؟! وعلى حلبة الرقص هذه؟ بين فيئات عمرية مختلفة شبان وشابات ومن الرجال والنساء، وحتى عجائز من كلا الجنسين كل ليلة من العاشرة مساء وحتى مطلع الفجر، وانت أيها السيد الشرقى الغيور شاهد على ذلك.

اليس هذا من سيمات الحياة فى هذه البلاد؟ وان الأمر لا يعدو أن يكون جزء من ممارسات الحياة، وطبيعى جدا عندهم؟ وليس فيه من حرج، بل هو عرف معروف، وعادة متبعة، تنفيس وترويح عن النفس المثقلة بهموم الحياة العصرية المتلاحقة بمستجداتها المرهقة:

خرج أفراد المجموعة فرحين يتضاحكون، تداعبهم الأحلام وتبتسم لهم الحياة، مروا من أمامه، صنفهم هو: شلّه متفسخة منحلة عابثه، وربما الصق بهم تهمه الفاحشة، وكيف يكون الحال لو أن هذه التهمة حقيقة ناصعة وتحدث فعلاً. وبنته إحدى المتهمات؟! ساعتها لا

شك يحاصره ذلك البيت الشعرى القديم: لا يسلمه الشرف.. الذى يحرّض على اراقه الدم.. ياهول المصيبة.. ابنته يذبحها كما يقرّ المجتمع فى بلاده، حتى يمسح العار، لأن عار الشرف لا يمسحه الاّ الدم!! جانيت هذه التى حققت له الابوة وكانت قرة عينه وهى صغيره تحبو وتجلس فى حجرة، وحين تعلمت المشى تسرع نحوه تتعثر فى خطواتها حين يدخل البيت وتتعلق بركبتيه وتبتسم فى وجهه ببراءة الأطفال، والآن جانيت تدخل هذا الفضاء المعد للهو وتمضية الأوقات الممتعة، وفيها ما فيه من تعد على الفظيلة وانتهاك الأخلاق الكريمة وكله استهتار، تدخل وفى يدها شاب، لا يعرفه وتعرفه هى، ويعلم الله ما تفعل معه، تدخل مع رفاق لها، وكلهم فى الهوى سوا.. يدخلون كما يدخل الرواد من الكبار، ياخذون مجلساً يسع ثمانية أشخاص ويطلبون المشروبات الروحية، وهم يتمازحون ويتخازلون، ثم يصعدون حلبة الرقص المرة تلو المرة، يشاركون فى كل الرقصات مع زبائن الملهى، من الفالس إلى التانغو، والسامبا، والتشى تشا، وفى نهاية السهرة يمرون أمام جمعه، وكان واقفاً مصادفة قرب باب الخروج.. لوحت له بنته جانيت بيدها قائلة:

باي بابى وذهبت مع خدينها وكأنها تفعل شيئا عاديا، وهى التى تستحق فى حكمه الذبح.

يتسمّر الرجل فى مكانه، لا ينطق بكلمة، ولا يستطيع حراكاً، انعقد لسانه عن الكلام، وعجزت رجلاه عن الحركة.. تلقى طعنة قاتلة، صعد الدم إلى رأسه ساخناً زلزل كيانه زلزالا شديداً، لاذ بالصمت

كأنه أصيب بخرص مفاجئ.

عاد إلى البيت قرب الفجر.. تفقد غرفة جانيت، وجد الفراشى خاليا، جلس على اقرب كرسى صادفه، أشعل سيجارة تبعها بأخرى، لا مسعف له وهو فى هذا الحال الا التدخين، أضاف إليه الشراب، ضل هكذا. يدخن ويشرب ولا ينام، قرب طلوع الشمس غلبه النعاس.

بعد منتصف النهار، تدخل جانيت نشطة تظهر على وجهها فرحة كبرى، كانت قد نامت خارج البيت إلى ساعة متأخرة بسبب أن اليوم عطلة رسمية - الأحد - نامت بعد السهرة فى حضن صاحبها عند أحد رفاقهما الذى كانت هو أيضاً فى حضنه صاحبته.

دخلت جانيت البيت.. كعادتها كل صباح أحد وذهنها خال مما يعتمل فى داخله من غضب وقهر وذل، يطحنه ويفتت كيانه، يذهب بعقلة، ويحطم أعصابه، يعصف به ذلك الاحساس بالوجع إلى أبعد حد.

أنشغلت جانيت فى شأن يخصها حين دخلت غرفتها ولم تخرج منها الا بعد ساعة تقريباً.

كضم الرجل غيظه، وأخذ مجلسا فى ركن من البيت وظل يراجع الأمر بعقل محايد، عادت به الذاكرة إلى ما عاشه بعيدا وقريبا، كيف أقترن بأمها، وحياته معها قبل الاقتران، ما سمعه منها على مدى عشرين سنة تقريباً عن سلوكيات ونمط الحياة الاجتماعية فى هذه البلاد، العرف والعادات والتقاليد والحياة العامة ما شاهده بأم عينه سوى داخل الملهى

الذى يديره أو فى الشارع، وفى كل الأوساط الاجتماعية على اختلافها وجد نفسه شاذا عن القاعدة، أعترف بينه وبين نفسه بهذه النتيجة ثم بعد هذا ماذا عساه يفعل، الاّ أن يذعن للامر الواقع وياخذ كل شئ على علاّقة ما دام ارتضى العيش هنا فى هذه البلاد وليس، له مناصاً من البقاء، يرعى مصالحه وما حققه من نجاح فى العمل وابنته هذه التى بوجودها فى الدنيا، صار أباً وصار أيضاً شيخاً على مشارف الستين، انقطع عن وطنه الأصلى منذ سنوات، ولم تعد له به روابط وثيقة بعد أن غادر ابواه الحياة، ومعارفه.... باعدت بينه وبينهم الأيام، هو الآن ليس له الاّ هذه البلاد وطنا، وهذا المجتمع عادات وتقاليدا، ونمط حياة، بما فيها الحالة الاجتماعية والعرف، وليس له الاّ هذه البنت التى انكر عليها ما انكر، ولكن بعقلية جاء بها من مجتمع آخر، وتفكير يغاير تفكير هذه البلاد، أقتنع أو اقنع نفسه بأن الغرب غرب والشرق شرق.

ما كان منه بعد تناول العشاء مع ابنته، ومن المرات النادرة التى يتناول العشاء فى البيت – جلس يتحدّث مع ابنته ويتبسّط قال يخاطب ابنته

جميلة.. كيف كانت سهرة البارحة؟

رائعة.. كانت صحبة لطيفة.. رفاقى كلهم رائعون.

هل هم من زملاء الكلية فى الجامعة؟

يختلفون بعضهم فى معاهد عالية مختلفة التخصصات، الا رفيقى بول زميلا لى فى الجامعة ومتقدم عنى بسنتين.

وكيف عرفت زميلك بول هذا؟ ومتى؟!

عرفته منذ سنة قبل أن أدخل الجامعة مرات عابرة والآن توطّدت علاقى به، هو شاب لطيف ومؤدب، وربما أقترنت به فى المستقبل.

والآن كيف علاقتك به؟!

صداقة ليس الاّ.. نحن الآن فى تجربة.. ربما صار التوافق والانسجام بيننا ساعتها سنتشارك فى الحياة.

تتزوجينه.

نعم.. أنا الآن أعيش معه دون رباط، فإذا نجحت التجربة ورغبت فى الانجاب ارتبطنا رسميا.

هكذا كانت جانيت بنت جمعة تفكّر، وكان ذهنها خال مما فى عقل أبيها، هى تربت فى بيئتها وعلى نهجها فى الحياة، والفرد ابن بيئته أما أباها جمعة فهو ابن بيئة أخرى والآن هو أمام أمر واقعاً، وعليه أن يرضخ له أو يمثل دور الشاذ الذى لا حكم له.

هذه واحدة من مفردات كثيرة، شكلت تلك المأساة الإنسانية العصرية.. الكبرى: الهجرة والهجرة المعاكسة بين الشمال والجنوب. مأساة فضيعة مرعبة، قاهرة مدمّرة، مؤجعة مرّة، قاتلة، عصفت بامال وأحلام، أفراد وجماعات، هاجرت هجرات شرعية وغير شرعية، كما جّسدت هذه الرواية مآسيهم على اختلافها، وتباين ظروفها.. زمانها ومكأنها. لعل أبرز تلك الماسى الكارثة التى حلّت بالسويسرية باولا،

وكانت أطول فصل فى الرواية.

كذلك فاجعة كامارا من السينقال الذى ركب البحر مع زوجته وأبنه الرضيع وابنته ذات الخمس سنوات، وقد تحطمت المركب فى عرض البحر وفقد زوجته، وابنها الرضيع، شاهدهم وهم يفرقون مع رفاق وأصحاب. ومن المآس فى هذه الرواية ما حدث للاخوين الحسن والحسين من تشاد وقد فرق بينهما القدر: غرق أحدهما فى البحر وذهب طعاما للسمك، وتاه الآخر فى بلاد الغربة. على أمل أن يلتقى بأخيه الذى ذهب به المركب ولم يعد. أيضاً مأساة آدم القادم من أرتيريا تصحبه زوجته وأبنه الصغير نجا هو يصارع الموج بعد تحطم المركب، وغرقت زوجته تحتضن أبنهها، وهى تودع زوجها على بعد أمتار منها.

وذلك الرجل الصومالى الذى عبر الصحراء على مدى ثلاثة شهور تتبعه زوجته، وهو يحمل ابنه على ظهره، وفى وهج الصحراء الشديد الحرارة يفتقد الماء، يجف جسم ابنه الصغير ويموت عطشاً، يدفنه فى مهمة خال ويمض وتمضى معه زوجته: لكنها لا تلبث أن تقضى هى نحبها، ويواصل هو السير نحو الشمال ولا يصل. وفى الرواية سلبيات عديدة طال شررها الجنوب والشمال ولم يسلم منها أحد.

وكما يسمع العالم كل يوم عن الهجرات السرية، أو الغير شرعية وخاصة فى هذه الأيام والشهور الأولى من سنة 2015 - عن وقائع ثابته وموثقة، تحدث كل يوم فى عرض البحر، وقد أصبحت هجرات

عكسية ولنا أن تقول. شرّعتها عصابات المافية بالقوة، في متوالية تنطلق من سواحل شمال أفريقيا، بدأت مع التغيير الذى طرأ على بعض البلاد العربية، الذى قالوا عنه الربيع العربى، ثم أصبحت تزداد كل يوم حتى أنها تصل إلى أعداد هائلة من المراكب المطاطية ومن خشب متهالكة، يشحن فيها البشر، وتدفع إلى البحر. والبحر يدفع بهم إلى أعماقه، فنكون قبورهم بطون الحوت، ولعل الكارثة التى حلت بمجموعة من مواطنى الدول الأفريقية جنوب الصحراء - يوم 19 أبريل 2015 خير دليل على ما تقوم به هذه العصابات واستخفافها بالقانون الدولى وأستهتارها بالإنسان وحياة البشر، وقد ذهب فى هذه الكارثة ما يفوق عدده الثمانماية انسان، ولم يرتدع هؤلاء المجرمون، بل ضاعفوا رحلات الموت ودفعوا بالمزيد من المهاجرين، وكأنهم يتحدّوا العالم الذى ندّد واستهجن ذهبو وليس لهم شاهد على قبورهم ولا تربة تضم رفاتهم معلومة، أنهم مجرد غرقى يتناثرون من قارب مطاطى أو خشبى كفاه الموج على وجهه فالقى مجموعة من البشر فى الأعماق، لا صلاه عليهم الا تعازى تقام لهم بين أهلهم.

بهذا الفعل المشين. وقد زادت اعداد المهاجرين نحو الشمال وأغلبهم من أفريقيا عن ربع مليون إنسان كما فى بعض المصادر الرسمية. ولأن الظروف مواتية لخدمة تلك العصابات المجرمة المتعاونة مع المافيا العالمية، وللاسف الشديد، بعض أفراد هذه العصابات من الدول العربية وخاصة التى مرت بها رياح التغيير الممنهج فى إطار العولمة،

وهم غافلون أو عالمون بعضهم معرفون بالاسم الهوية، وخاصة من سكان المدن الساحلية، لكنهم باعوا أنفسهم للشيطان، وضحو بارواح الابرياء من أجل مال زائل ياكلونه حراما زقوما فى بطونهم.

(20)

هكذا كانت هذه الرواية تستند إلى كثير من الوقائع الثابتة والمعاشه، والمسجل بها مظابط رسمية لدى جهات الاستقبال الرسمية لهذه الجماعات المهاجرة هجرات سرية من الجنوب إلى الشمال فرارا من الاضتهاد والجوع: وحياة المصبغة والحرمان جماعات هاربة من غول العوز، وفقدان الحريات فى بلدانها، إلى عالم تحلم فيه بالحرية والعيش الكريم، لكن البحر لها بالمرصاد؛ هناك تنتظر الأسماك فى عرض البحر فتكون مائدة حافلة من لحوم البشر أنهم جماعات الهجرة السرية ظاهرة العصر، الهاربون من الفقر الذين تتلقاهم الكوارث، ويستقبلهم الضياع.

فما أن تصل هذه الجماعات إلى ضفة المتوسط الجنوبية، حتى تظهر لهذه الجماعات بارقة أمل فى عبوره إلى الضفه المقابلة التى تقع عليها بعض بلدان الشمال المتقدم، حيث تحلم هذه الجماعات المهاجرة بجنّات الأرض، والعيش الكريم المادى والمعنوى، وما على هذه الجماعات الوافدة من بلدان مختلفة فى الجنوب تحكمها أنظمة دكتاتورية ومتعصبة، ومتخلفة هى أيضا - النظم - تمارس التفرقة والاضتهاد، وسلب الحريات وحتى الأرزاق ما عليها الاّ أن تكد وتعمل أعمالا شاقة

ومهينة، لمدة سنوات حتى تحصل على مبالغ مالية بالدولار، يحدّد قيمتها أصحاب مراكب الموت ومهرب البشر سرّا، وهم أولئك المجرمون من عصابات المافيا، ليحصل هؤلاء المساكين على حيز فى مركب يعبر البحر، يحمل شحنات من البشر، يذهب أغلبها طعاما للحيتان بما فيها في عرض البحر يسمع بها العالم في كل مكان ولا يكاد يتحرك إلا في حدود وبحساب، وكأن الأمر مخطط له، فالصراعات الدولية والإقليمية تبدأ من هذه القضية، أما الصراعات المحلية وخاصة في الدول التي تقع على ضفة المتوسط الجنوبية وأغلبها طالتها رياح التغيير، فهذه وجهها سافر في الموضوع، وتعد مسألة الهجرات السرية ورقة لاعبة رابحة وضاغطة سياسيا واقتصاديا واجتماعيا في يد المتصارعين تجاه الدول المؤثرة في السياسة العالمية، وحتى نجاة بعضهم المتصارعون- حيث يتقوى طرف على الطرف الآخر بمال الإتاوات المتحصلة من المهاجرين المساكين. وهذه مسألة يطول فيها الحديث الذي يخرج بنا عن سياق موضوع الرواية.

أما عن مجتمعات الشمال وحكوماتها التي تستقبل هؤلاء الوافدين في هجرات سرية وغير شرعية، فالأمر له وجه آخر تخشاه هذه المجتمعات وحكوماتها، وتحسب له حسابا يمس الثقافة والاقتصاد والشأن الاجتماعي، والعرقيّة والدمغرافيا.

مجتمعات الشمال المتقدم والمتحضر في جميع مناحي الحياة، تنظر إلى موضوع الهجرة السرية، وخاصة تلك التي تأتي من الجنوب- ما وراء

الصحراء- من زاوية على المدى البعيد.. من ناحية ثقافية ترى في هؤلاء الوافدين التخلف الحضاري والبدائية والبداوة عادات وتقاليدا ومعرفة أسلوب عيش وعرفا وممارسات أخلاقية، لا تتماشى مع حياة وأسلوب الشماليين وعيشهم وتقدمهم الحضاري على جميع المستويات، فهؤلاء المهاجرون.. قصرا بسبب الفاقة أولا، والاضتهاد السياسي والانتماء القبلي ثانيا، وأغلبهم من السود، تخافهم مجتمعات الشمال- أوروبا- من حيث اندماجهم في السكان الأصليين ذوي العرقية المتفوقة على بقية الأجناس كما في اعتقادهم، وهذا ليس يخاف على أحد، ففي التاريخ الحديث، رفعت الهتلرية شعار الآرية وطبقّته. وفي فرنسا الآن ينادي اليمين المتطرف بعقيدة التفوق ويحسب الملونين من الدرجة الثانية رغم جنسيتهم الفرنسية واندماجهم الكلي في المجتمع الفرنسي، وليس بقية أوروبا بأحسن حال من ذلك. في هذا الشأن.

تخشى أوربا الوافدين وأعدادهم بلغت مئات الآلاف في السنوات الأخيرة على الصعيد الاقتصادي، فمن جهة يزداد العرض في سوق العمل وبالتالي يقل الطلب الأمر الذي يحرم العمالة الوطنية من فرص الحصول على العمل وبالأجور العالية المعتادة، نظرا لتوفير اليد العاملة الرخيصة، ومن جهة أخرى اقتسام تلك المجموعات الوافدة مواد الاستهلاك من طعام وكساء وجميع مستلزمات الحياة.

والمسألة الأخرى وهي من الأهمية بمكان، تخص الشأن الاجتماعي، فهؤلاء الملونين من جنسيات مختلفة، وحتى أجناس متباينة.

- وإن كان أغلبهم من الزنوج- تتوفر لهم فرص الزواج من نساء أوربيات، وبذلك تمتزج الدماء، وتختلط الأعراق، وهذا يرفضه المتعصبون المتطرفون، وأصحاب عقيدة نقاء العرق الأوربي، المهوسون بنظرية التفوق العرقي ونقاء الجنس، ولأنّ هذه الجيزات ستكررها الأجيال. فلا شك أن اللّون البشري سيصبح خليطا بين أبيض وأسود وأصفر وبني، كما هو الحال في البرازيل ومعظم دول أمريكا الوسطى، هذا علاوة على تواجد بعض العادات والتقاليد والعرف والممارسات الحياتية والثقافية واللغة التي يصحبها المهاجرون معهم، وتزاحم ما هو سائد في البلاد التي يستقرون فيها من ثقافة وممارسات حياتية وعرف وعادات، فتَلّون الحياة الاجتماعية والثقافية بلون آخر غير مألوف، ثم مع الزمن وتعاقب الأجيال يصبح للحضارة الغربية وجها آخر ولون مغايرا وهذا ما يرفضه المتعصبون، ويتصدون له، كما نرى اليوم في أوروبا القديمة بالذات.

وفي النهاية نأتي إلى بيت القصيدة، إلى أصل الظاهرة: الهجرة غير الشرعية، أو الغير منظمة كما يلّطفونها، دوافعها وأسبابها الأولى والضاربة في أعماق التاريخ، منذ عقود من الزمن وحتى قرون في بعض ا الحالات، ولنقل منذ منتصف القرن السابع عشرة قرن الاستعمار البغيض. منذ ذلك الزمن كانت أوربا القديمة مقصد الهجرة السرية اليوم- تدبر وتضع خططا ممنهجة. لغزو أجزاء من العالم تتوفر على ثروات طبيعية هائلة، وخاصة في أفريقيا مصدر الهجرات المكثفة

اليوم نحو أوروبا وكذلك استعمار أو فرض الحماية على مناطق في أسيا وتحديدا في الشرق الأوسط.

رسمت أوربا الناهضة في ذلك الوقت- بعد منتصف القرن السابع عشرة- الخطة ووضعت الكعكة على الطاولة، وتقابل أصحاب الطول فيها يتقاسمونها فيما بينهم. كانت بريطانيا الامبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس هي اللاعب الأول في هذا الشأن وكانت فرنسا شريكا منافسا قويا لها، وكانت دول أخرى حاضرة بدرجات متفاوتة كألمانيا وبلجيكا وهولندا وحتى الدنمرك وإيطاليا في آخر القائمة، وقد سبقت الجميع تاريخا: أسبانيا والبرتغال في بعض البقاع وخاصة في أمريكا الجنوبية والشرق الأقصى.

تقاسمت أوربا الكعكة، فكان لبريطانيا نصيب الأسد من حيث كبر المساحة، والتنوع الجغرافي، فهي التي استعمرت أجزاء في غرب أفريقيا، كغانا ونيجيريا وبلاد قريبة منها صغيرة، ثم كان لها وجود في جنوب القارة، وفي أخصب الأراضي وأغناها مواردا طبيعية، وفي الشرق القارة كانت لها كينيا وتنزانيا وأوغندة وأراض أخرى، ثم كان نصيبها كبيرا في الشرق الأوسط: فلسطين والأردن والعراق- الذي يربض فوق بحيرة من النفط (الذهب) ولها الجزيرة العربية كلّها بما فيها مشيخات للخليج واليمن السعيد، ولم تحصل فرنسا إلا على سوريا ولبنان الصغير انتزعتها من براثين الأسد البريطاني.

أما فرنسا فقد استعمرت أخصب بلاد شمال أفريقيا عدا ليبيا الفقيرة في ذلك الوقت، ومصر التي استحوذت عليها بريطانيا بالتحالف مع حاكمها محمد علي قطعا لخط الرجعة على نابليون بونابرت في بداية القرن التاسع عشرة، كذلك كانت من مستعمرات فرنسا في أفريقيا: السينغال وموريتانيا ومالي والنيجر وتشاد- السودان الفرنسي- وأراضي أخرى صغيرة لم تكن فيها دول ولا حكومات، وإنما ملوك وزعماء وقبائل.

وتربعت بلجيكا في وسط القارة الأفريقية في أغنى بقعة بالموارد الطبيعية وعلى رأسها الذهب وكان لهولندا والبرتغال بعض الأطراف في أفريقيا والشرق الأقصى.

هكذا كان تقسيم الكعكة الكبيرة والتي لم تحصل منها إيطاليا إلا على ليبيا عديمة الموارد في ذلك التاريخ وبعض أراضي الحبشة والصومال الفقير؟ وما كان استعمار وإيطاليا لليبيا إلاّ لأسباب تاريخية فهي الشأطئ الرابع لإيطاليا القديمة هكذا هي متشبثة بالتراث.

ونعود إلى أصل القضية، الظاهرة التي تعاني منها أوروبا اليوم: الهجرة غير الشرعية أو السرية أو غير المنظمة كما أوجدوا لها وأكدوا وأكثروا التسميات هذه الهجرة أو لنقل الهبّة القومية أو الغزو الكاسح لأوروبا بلاد الحضارة والتمدن أو النهضة الشاملة اقتصاديا وثقافيا واجتماعيا في هذا العصر. ألا يصح لنا أن نسمي هذه الهجرات المتتابعة وفي إصرار رغم المخاطر والأهـوال والموت غرقا في البحر لهؤلاء

التعساء المساكين قاصدين الشمال.

ألا يصح أو يحق لنا أن نسمي هذا الزحف: ردة فعل أو ثأرا متأخرا صبرت عليه أجيال، ثم ها هو جيل صمم وأراد أن ينتزع حقه عنوة ممن حرموه من خيرات بلاده، واضهدوا وعذبوا أجداده، وافتكوا منهم لقمة عيشهم وتركوهم للفقر والجوع والجهل والمرض... جيل زأر وثار وزحف يطلب الثأر، ممن حرموه وأباءه وأجداده من خير بلاده، وآثروا به بلادهم وعمروها وجعلوا منها جنة، يطلبها اليوم هؤلاء الزاحفون. وأنتم اليوم أيها الشماليون، يا من بيدكم الأمر في اتحادكم الأوروبي الذي كان له سابقة عند هؤلاء حين استعمرتم بلادهم عقودا وقرونا... أنتم اليوم تدّابرون وتعقدون الاجتماعات، وتبرمون الاتفاقات والتفاهمات، بشأن هؤلاء الزاحفون كالجراد المنتشر، يفرق بعضهم في البحر، لكن البعض سيصل إليكم لا محالة، أنتم اليوم ترسمون الخطط، وتعالجون الأمر بشأن الحفاظ على حياة البشر وبحكم الإنسانية رأفة ورحمة كما تقولون.

انتم اليوم حيارى وتبحثون عن حلول هل تسمعون قولا لعلكم فاعلون؟؟.. لماذا لا توطنوهم في أوطانهم وكفاكم حيرة وبحثا عن مخرجا من حال أصبح ظاهرة ماثلة للعيان؟! ألم تسمعوا بمشروع مارشال، وقد انبعث في تاريخ قريب؟! أبعثوا مشاريع مارشال جديدة في هذه البلاد مصدر الهجرة الزاحفة إليكم؟ منظمة أو غير منظمة، سرية أو علنية، شرعية أو غير شرعية وإذا لم تكونوا في حاجة إليها وتخافونها الآن وعلى المدى البعيد- ردوا إليهم بعض ما أخذتم منهم...

ألم تستنزفوا موارد بلدنهم الطبيعية على اختلافها؟ وعلى مدى عقودا من الزمن بل قرونا في بعض الحالات، أين ذهب أفريقيا الوسطى والغرب منها؟ والجنوب أين الرصاص والحديد وبقية المعادن؟ أين الأخشاب الثمينة والثروات الزراعية الأخرى؟ وحتى الأحياء البرية الزاخرة بها أفريقيا نقلتموها إلى بلادكم وعن شمال أفريقيا حدّث بمرارة وألم.

من هذه البلاد أخذتم الرجال:- فرنسا وإيطاليا على وجه الخصوص- رجال جندتموهم في صفوف جيوشكم، وقودا للحرب الكونية الأولى والثانية، دفاعا عن أمجادكم وشرفكم وراياتكم، وهل هناك أغلى من الرجال؟!

ولا أتحدث عما أخذتم من بلدان الشمال الأفريقي: تونس والجزائر والمغرب، من ثروات هائلة تتمثل في الفوسفات والإنتاج الزراعي والثروة السمكية والمعادن على اختلافها التي استنزفتموها على مدى مائة وثلاثين سنة في الجزائر وما يقارب من ثمانين سنة في تونس وعشرات السنوات في المغرب أيها الفرنسيون.. أنا أتحدث عن الرجال الذين كانوا عماد جيوشكم المحاربة حتى فى الهند الصينية وليس التاريخ ببعيد، ومنهم ممن مازال على قيد الحياة، والحديث يطول لو عددنا ما كان لأفريقيا من أيادي بيضاء عليكم، وأنتم أهل الحقوق والحريات لا أضنكم بغافلين عن هذا، ولا منكرين. وهذا العمل الروائي كما بدأ تجسيدا لمأساة هي هجرة وهجرة عكسية بين الشمال والجنوب. طغت فيه الحقيقة عن الخيال، وها هو ينتهي بصرخة في ضمير الإنسانية من

أجل الإنسان، احقاقا للحق، وسلام لمن أراد السلام أيها الشماليون، يا من تصديتم للهجرة السرية، ومعالجتها بالطرق الناجعة والسليمة والإنسانية أيضا- وعملكم مشكورا نقول لكم: جففوا منابعها، كفوها من حيث تنطلق، من بلاد الفقر والجوع. هناك في تلك البلاد، أبعثوا تنمية مكانية مستدامة: مشاريع اقتصادية، واستثمارات متنوعة، شركات وتشاركيات، مشاريع كبرى وصغرى على مستوى الأفراد والجماعات، مصانع ومزارع، وورش عمل مختلفة، تستوعب كثيرا من مواطن الشغل، وتمتص العمالة العاطلة عن العمل، وتستغل الخامات والموارد الطبيعية في تلك البلاد.

بهذا فقط تكونوا قد قدمتم المساعدة والعون للدول وحكوماتها، العاجزة عن مساعدة مواطنيها وحل مشاكلهم، وبهذا فقط تكونوا قد قدمتم للإنسانية المعذبة الفضل الكبير وبهذا تدرأوا خطر الهجرة السرية التي هي هاجزكم الآن. إن لم تفعلوا فالخطر قادم، والغزو واقع. والطامة الكبرى ستكون عندئذ ستكون قارتكم ليست هي: سوف تتلون تمتزج الدماء، وتختلط الأعراق، تتلاقح الأجناس والحضارات، والثقافة واللغة، وتكون أوربا المحافظة على نقائها نسخة مغايرة. وأنتم وما تريدون، هذا خياركم.. وأما هذا العبث وليس من وراءه طايل تجتمعون، تطرحون الآراء وتقررون لوحدكم، ودون استشارة أحد، كأن ليس لكم شركاء، على الأقل في تلك البلاد التي تواجهكم على الضفة المقابلة، تلك التي يعبرها المهاجرون وينطلقون منها نحوكم...

أليست هي بلاد تنضوى دولها تحت لواء الأمم المتحدة؟! والقوانين الدولية السارية أليست معنية بها هي أيضا.

أيها الشماليون.. ثوبوا إلى رشدكم، وانصفوا، وعاملوا غيركم من البشر بما تتعاملون به بينكم، وإن الإنسان هو الإنسان في كل زمان ومكان، والله خلقه وكرمه وجعله خليفة في الأرض، والمساواة في الحقوق والواجبات، واجب إنساني مقدس ستحاسبكم ضمائركم إن إن ملتوا كل الميل وسيلحقكم الخسران المبين إن لم تعدلوا.

جرجيس - تونس

8-4-2014